سمير نقاش

الرحيل



سمير نقاش

الخطأ

مجموعة قصصية

جميع الحقوق محفوظة المؤلف

مطبعة المعارف
القدس

قارئي العزيز ، اقرأ هذه الكلمة رجاء

أجل • قبل أن تبدأ بقراءة هذا الكتاب ، اقرأ أولا هذه الكلمة ، ربما كنت لا تعرفني حتى الان • بل أن المنطق يقول بأنك لا تعرفني بالفعل ، لانني وأنا التقي بك من خلال هذا السفر ، انما التقي بك للمرة الاولى • فهذا أول انتاج لي يصل الى يديك • بيد أن من واجبي أن اهمس فى اذنك ، بأن ثمة خمسة كتب اخرى من اعمالي ،ما تزال تتلمس طريقها اليك باحثة لها عن منفذ • ان أكثر من عشرة أعوام قد انقضت منذ ان بدأت تلك الكتب تولد وتتكاثر لتلقى فى ركن مظلم منعزل • وفى ظروف قهرية خارجة عن ارادتي• ان أفكاراً كثيرة ما عتمت فى بطون هذه الكتب موؤدة معها تئن تحت وطأة الظلام والغبار •• ان بعضها قد شاخ ، والبعض الآخر التقطته تأملات بعض محترفي الكتابة•• فهم يقولونه اليوم، رغم أنه مدفون فى أدراج مكتبي، منذ أعوام وأعوام• وأكثر ما أخشاه ، ان يقال عني فى الغد « انه قديم وانه منتحل »، ولكنني أعدك ، بأن القديم الذي مر عليه أكثر من عشر سنوات ، سيصلك مثلما سيصلك الجديد الذي كتب مؤخراً ، والذي لم يكتب بعد •• كل ذلك شريطة أن تساعدني ، وتمد لي يدك ، وتنصفني ، وتعي كلماتي ، وتقرأني بامعان •

أما عن هذا الكتاب ، فلا اخالك ــ وأنت تقرأه ــ تغفل عن أن له وجهين اثنين : أحدهما ظاهري قصصي بحت، والآخر جوهري فلسفي، توخيت أن تكون القصة وسيلة لعبوره الى عقلك وأفكارك • وعن هذا الوجه الاكثر حقيقة ، سوف أتطرق فى هذه العجالة ، موجزاً كل الايجاز ، مميطاً الضباب عما قد يلتبس عليك من أمره ، ومبيناً لك من اتجاهاته ما قد يخفى عليك ، وأنت مسترسل فى ظاهره القصصي الذي قد يبدو لك موضوعياً أكثر مما ينبغي •

اننا نولد ونموت ، وليس لنا فى كل ذلك كلمة • وبين ولادتنا وموتنا تتربع تلك الرحلة القهرية العابرة •• الحياة • ان كل شيء عابر • الماضي لا وجود له • والحاضر وهم كبير ، لاننا لا نستطيع ايقافه أو تحديد معالمه • ونحن نسير دائماً فى اتجاه المستقبل ، فلا يلبث هذا المستقبل ان يستحيل الى حاضر وهمي ، ثم الى ماض لا وجود له• من هنا تصبح كل الحقائق ملغاة ، ليحل محلها شيء اسمه العبث • اننا نكتشف العبث ، ربما فى لحظة عابرة من المسيرة (مصرع سانت‌كلوز)، ثم نجد هذا العبث فى كل ما نفعله ويفعله الآخرون• وبوعينا ان الحياة رحلة عبثية لا قيمة لها ، فان الالم يضحى اكثر الاشياء النسبية قرباً من المطلق (اللعبة والدمعة) • وثمة أسباب اخرى توضح هذا الالم وتعمقه رغم عبثية الاشياء برمتها • من هذه الاسباب رسوخ تلك الطبيعة البشرية الفرضية التي‌تدعى بالغرائز• ومنها ــ وهذا الاهم ــ اننا ونحن نتجه اتجاهاً طردياً نحو الموت ، لا نريد أن تكون مسيرتنا مفتقرة الى الراحة ، فاذا فقدنا هذه الراحة ، لم نعثر الا على الالم• ان قصتي « الخطأ » و « الثغرة » هما بيت القصيد فى هذه المجموعة القصصية • ولقد كتبت « الخطأ » أولا • وبعدها كان من الواجب أن تخرج «الثغرة» الى الوجود ، فـ «الخطأ» الذي تهدف اليه القصة، هو الذروة فى ردود الفعل السلبية على هذه المسيرة العبثية المسماة، بالحياة • وهذا الخطأ ينتشر على طول الطريق المزدحمة بوسائل النقل، وهو المسئول دائماً عن جميع الارتجاجات والاصطدامات التي تجعل رحلة العبث أكثر قسوة وأقل احتمالا • وهو ذاته النتيجة الحتمية لسلسلة من الافعال القهرية ، تشكل فى النهاية ، الدائرة المفرغة التي تحاول أن تتمرد على نفسها كي تنفصم ، ولكنها بهذه المحاولة لا تؤدي الا الى مزيد من الدوائر المغلقة التي تسقط فى داخلها أفعال الانسان ، ليس فى اليأس ، وانما ببركة من الدماء والالم • وهذا الالم

هو الشيء الوحيد الذي لا تستطيع فكرة العبث ابتلاعه أو التغلب عليه • فهو مسبب « مفروض » لاكتشاف العبثية التي تطبع الحياة ، ولكنه من الناحية العملية ــ وكما قلت اولا ــ « نتيجة » صميمية وبحتة لذلك الاكتشاف الخطير • ومن ثم ، ولكي تصبح مسيرة العبث محتملة ، فان علينا البحث والتنقيب عن « الثغرة » •

ان تتابع « الخطأ » و « الثغرة » ليس حتمياً ، ولكنه مطلوب بالضرورة من أجل التخفيف من حدة ذلك الالم وتلك العبثية فى آن معاً • وهذا أمر يتطلب الكثير من الجهد والمثابرة • اذ ان الاتجاه الذي يفصل بين « الخطأ » و « الثغرة » ، ليس اتجاهاً مضاداً وحسب ولكنه جوهري ومصيري • ان اتجاه « الخطأ » اتجاه بديهي وارتجالي بينما اتجاه « الثغرة » اتجاه عمدي واضطراري ولكنه عرضي • ان الخطأ موجود دائماً ضمن الدائرة المفرغة • انه ينطلق من أعماقنا « نحن » كالاشعاع وهو ينبعث كالشرارة من رغباتنا لدى احتكاكها بالرغبات المضادة للاخرين• انه الخطوط المتقاطعة فىالعلاقات البشرية• وهو لذلك يكون الحائل الذي اصطلحت على تسميته فى « الثغرة » بـ (الجدار الفولاذي) • غير أن احتمال تصدع هذا الجدار ، وأحداث الثغرة فيه، قائم دائماً • ومثلما وقعت «الفرصة العرضية الاضطرارية» فى القصة وأحدثت الثغرة ، فان بامكاننا ، بل ومن واجبنا أن نهيىء الفرصة المماثلة ونخلقها كي نحطم الجدار ونملأه بالثغرات •

ان قصة « الثغرة » تبحث عن الخطوط المتحاذية فى كياننا كي تنفذ منها الى الحل الامثل لمعضلة « الخطأ » وما يكتنفه من خطوط متقاطعة •• ولا أشك فى أن الخطوط المتوازية تربط بين البشرية اكثر مما تربطها الخطوط المتقاطعة ، فتلك كما قلت ناجمة عن تصادم رغباتنا وافعالنا ، أما هذه فمصدرها كياننا ذاته •• ان ماهية الانسان لا

تختلف ، وان مصيرة واحد ، وهدفه فى مسيرته العابثة ، هو أن تمر هذه المسيرة بسلام • ان التخفيف من الالم يخفف من عبثية الحياة •• وهذا شيء يجب أن نبحث عنه دائماً داخل الثغرة وليس فى « الخطأ » • فالخطأ لا يفصم الدوائر المفرغة وانما يخلق مزيداً منها ، فيترتب على ذلك تراكم الالم وحصول المزيد منه ، وهذا شيء لا يجب أن يحدث على الاطلاق ••

سمير نقاش

« عبث فى عبث ، قال الجامعة .
عبث فى عبث ، كل شيء
عبث .. »

الجامعة ١ : ٢

مصرع سانت كلوز

عالم الاطفال .. ما أغربه من عالم ! . .

ان المعنى الحقيقي للعبث ينعدم تماماً حينما يعبث اولئك الاطفال . وهذا يعني أن للحيـاة قطبين متضادين . وانهـا تعاش بحرارة وبعمق وبتركيز . وان كل لحظة تمر تعني شيئاً كبيراً ، اما أن يكون مغموساً بالسعادة ، أو أن يكون معجوناً بالالم والشقاء . وليس من اشـراق الطالع أن لكل من طواه العدم ومن سيطويه عاجلا أو آجلا ، باباً ينفذ منه أول ما ينفذ الى ذلك العالم الغريب كي يحظى منه بقسط . ومهما كان ذلك القسط وفيراً أو شحيحاً ، فان المرء الذي « يجب » أن يحيـا لا يملك منه فكاكاً حتى وان نبحت الكلاب بأسـرها أو بكت السماء بملء طاقتها على مدى أربعين يوماً كاملا، نافخة بذلك فى ملحمة الطوفان روحاً تلسع الاذهان التي لا تستطيع دائماً أن تتذكر . ولهـذا السبب فقد كنا شقيقتي وأنا فى يوم من ذات الايام ، نرتع كالظباء الطليقة فى مرعى وفير الكلأ . تماماً على خط الاسـتواء من ذلك العـالم الزاهر العجيب . وكنا نشاهد بأم أعيننا أطرافاً على مرمى العين قاحلة جدباء. وثمـة ضب خشـن الغضروف يمرق فى الخلاء . أو طير ظامىء يبحث بين الجفـاف عن ماء بلا جـدوى .

عالم تعصف به الاحاسيس العميقة . دائماً فى صعود وهبوط كزئبق المحرار . وبصمات تغور وهي تنطبع فى النفس ، عميقاً وكأنها تضغط على تربة شديدة الرطوبة .. نعبث .. أحياناً كثيرة بالسعادة ، وقليلا جداً بالهموم . ولكننا دائماً فى حماية ذلك العـالم . تلفنـا مناقضته الكبيرة ، كالكفن .. تلك المناقضـة التي تعبث بكل شيء ، ولكنهـا تفتقر الى شـيء واحـد أكثر صميمية مـن أي شـيء .. فحـوى العبث ذاتـه .

* * * * *

ـ « مية هلا بسانت كلوز .. ! .. الف هلا بسانت كلوز .. ! »

فى المدرسة بدأت حفلة عيد الميلاد . ليس من عالم .. ليس من اناس يولدون وآخرين يشيعون الى القبور . الورود الحمراء القانية فى حديقة القصر الناعم على بعد ثلاثة اميال تلاشت هي الاخرى . وكاظم البستاني الذي يقلم اغصان الورد فى الحديقة ويعالج قطعة الارض السبخة المعدة لاشجار الفاكهة ، بعد أن حرقت حتى الزيتون والنبق ، بغسلها تارة بالماء الخابط وبدفنها بالرمل تارة اخرى واغراقها ببذور الفول والشعير تارة ثالثة ، هو الاخر قد غرب عن الذهن واختفى تماماً . لم يبق غير عشرات من الصبية تشدهم اليها كراس صغيرة فى صفوف ملأت باحة المدرسة . واياد نحيلة دقيقة تصفق على ايقاع . وعيون نهمة تترقب أمراً جليلا . وأصوات منسجمة ناعمة تهتف وتكرر بلا انقطاع

ـ « مية هلا بسانت كلوز .. ! .. الف هلا بسانت كلوز .. ! »

وبين الحشد كنا نجلس شقيقتي وأنا. هي فى الثامنة وأنا فى التاسعة. غارقين حتى الرأس فى عالمنا الغريب . لا يمكن ان نقف على حافته ، كما وقف آدم منكس الرأس على باب الجنة يوم طرده الله منها ، وحارسها يدفعه الى الخارج باليد اليسرى ويتهدده بسيفه الملتهب المسلول باليد اليمنى . كلا ... وان عكرت الصفو فى تلك الايام الغابرة ساعات من الانسياب الى ما وراء العالم ، كانت تقذفني فى بعض هنيهات الخلوة الى ما بعد الطبيعة : فأنطلق كالشهب بين النجوم حتى أخلفها ورائي ، وأسبح فى الفناء اللانهائي فينة مليئة بالرعب ، ثم أهوي الى الارض ثانية ، لانفض عن رأسي الصغير وصمة الكابوس .

فى تلك اللحظات كان عالمنا الصبياني سخياً ورحبا . والمشاعر العميقة الملتهبة ، أعمق من العمق وأشد التهابا من الهشيم . وكانت الانطباعات التي تغوص فى الاعماق مثلما تغوص السمكة فى اليم ،

تتقلص فى مجريات الساعة دون أن يرهقها البحث عن بديل • وفى تلك الساعة كان ثمة صوت ينبعث عن مكبرة الصوت معلناً لنا •

ـ « البيرمنصور يعزف لكم علىالكمان لحنرن صوتفىالاعالي »•

صغيراً ، ضئيلا ، وقف البير منصور على خشبة المسرح المتواضع الذي اقيم خصيصاً لاحياء حفلة عيد الميلاد • فاشتبكت الاذرع على الصدور ، وكفت الحناجر عن الهتاف الحار لسانت كلوز الى حين •

لعبة ! • مجرد لعبة تعبث بالالحان •• ! •• كان الكمان يحجب نصفه الاعلى و « رن صوت فى الاعالي » ينصهر ويتحول صوتاً ذهبياً يلعلع بلا كلمات • أما الكلمات فكانت تتردد هنا همساً مشوبا باعجاب متناه أبعد عن كل حد • وكنا شقيقتي وانا ندرك أن البير منصور انما كان يحفظ هذا اللحن الكنائسي لاغراض الحفلة وحدها • ففي غير هذا المكان ، وفى غير هذه الساعة ، لم يكن أحد يطلب من البير منصور ان يترنم بـ « رن صوت فى الاعالي » ، لانه لم يكن مسيحياً • تماما كما كنا ، شقيقتي وأنا نتقبل الهدايا من سانت كلوز فى مثل هذه الساعة من كل عام ، دون أن تفرض علينا الشعائر المسيحية ، لذات السبب نفسه•

البير منصور ! • صديقنا وواحد من أبناء جلدتنا وزميلنا فى عالم الطفولة ، يخلق الالحان الذهبية وينثرها فى الفضاء •• يصنع الموسيقى ويصبها فى مئات الآذان المشدوهة •• يا للسحر ! •• كان الشعور بالفخر يرفعنا عالياً عاليا • مرة أخرى لم يكن ثمة عالم، ولم يكن ثمة عناء في استبدال الشعور بالشعور • ففي غير هذا المكان أيضاً ، كان الشعور بالاعتداد والفخر قلما يهبط عن نفوسنا الصغيرة • وفى القصر الكبير كان الناس يترون بلا انقطاع كالحياة ذاتها • وكان منهم الصديق والقريب • وكان منهم من يتنكر بزي الصديق والقريب ، من أجل أن يسترخي على كرسي فى شرفة تحاذي الحديقة ويصب لنفسه الشاي من الابريق الذي ينفث البخار فوق السماور • يرشفه بكميات لا حصر لها

بينما أنظاره تهفو الى الآس والسذاب والبنفسج بمتعة • ولربما امتدت يده الى الزهور الكثيرة المتعددة الاصناف فقطف منها شيئاً • ولربما اكتفى بوردة حمراء يتوج بها شعره اذا كان امرأة ، أو يشبكها فى ياقة سترته اذا كان رجلا • ولهذا السبب فلم يكن الشعور بالفخر والبير منصور يعبث بكمانه ويصنع اللحن الكنائسي الجميل ، يختلف عن الشعور الذي يراودنا حين كان الضيف يقطف من الحديقة وردة حمراء• فالسعادة هي السعادة دائماً • والطفولة هي الطفولة دائماً • وهنا ، سينفحنا العم سانت كلوز عما قليل بهدايا ما فتأت تشوق المخيلة• ورغم أننا لم نكن مسيحيين ، فلم يحدث أن تساءلنا عن سر هذا التكريم الذي يهبنا اياه الشيخ سانت كلوز • فقد كان يكفي أننا ، شقيقتي وأنا متفوقون دائماً فى الدراسة، وان ترتيبنا فى آخر كل عام هو الاول والثاني أبداً • واننا أصغر من فى الصفوف المتقدمة ، وان ثلة من الطلبة المتخلفين الكبار ، الطوال العراض ، الذين كانوا قد تجاوزوا سن الرشد بأعوام ، والذين كنا نصطلح على دعوتهم بالحمير لجسامة أبدانهم وكثافة سوابلهم وكبرهم، كانوا يرمقوننا بنظرة حاسدة حاقدة، وكانوا لا ينفكون يتحرشون بنا معرضين مستفزين ، انطلاقاً مما يحز فى نفوسهم من مرارة ، ومما يكنونه لنا من غيرة وحسد متأججين •

توقف العزف بعد أن ذرف الكمان اللحن برمته • وكان البير منصور منفعلا • وكان اعجابه بنفسه لا يقل عن اعجابنا الشديد به • وأضفى عليه التصفيق الحاد مزقاً من الغرور ما لبثت أن توارت بين الانفعال مثلما تتوارى فقاعات الموجة على صخور الساحل • وبين كل هذا كان الحياء الصبياني يحمل صفة الجلالة • فسرعان ما ارتفق البير منصور كمانه واختفى بين الرؤوس الصغيرة المتراصة معجلا مرتبكاً ، يجتر حياءه مثلما كان زميلنا الآخر الفرد ايراني يجتر قطعة اللبانة فى

تلك الساعة ، غير آبه بهذه الصفة الحيوانية التي كثيراً ما كان المدرسون يلصقونها به وهم يلاحظون أشداقه تتحرك ولا تكف عن اللوك لحظة واحدة .

واقتربت اللحظة الحاسمة . ذكريات من صميم الساعة مغرية ومسيلة للعاب هجمت على العقول البضة فجأة . ان كل شيء يكرر نفسه مع نزر يسير من الفوارق والمفاجآت . عام يمضي وآخر يلحق به . بيد أن عالمنا فسيح ورحب الصدر . وكان يخيل الينا أن أبعاده شاسعة كالدنيا ، وأن في مقدورها أن تستوعب السنوات الكثيرة قبل أن تنتهي ويقضى عليها بالزوال . ان الشيخ سانت كلوز سيظهر عما قليل وجعبته ككل عام مليئة بالهدايا . سيظهر على أصوات التهليل المرحبة به .

ـ « مية هلا بسانت كلوز .. ! .. الف هلا بسانت كلوز .. ! »

مترهلا بجسمه البدين وثوبه الفضفاض . شيخاً طاعناً في السن . ضامر قسمات الوجه . لحيته كثة كأغصان شجرة عيد الميلاد ، ناصعة كنتف الجليد التي تكسو تلك الشجرة . سيبدو في البدء محدودباً عيياً ينوء تحت وطأة السنون الثقيلة . وسيمشي الهوينى متوكأ على عكازه ، بطيئاً مترنحاً ولاهثاً . ثم تتغير الصورة شيئاً فشيئاً . يحتد الصخب ويتعاظم الهتاف والتهليل . وكأنما تصيب العم سانت كلوز عدوى الطفولة الثائرة، فيستقيم ظهره المنحني، ورويداً رويدا ، يغادره الوهن ، فينفض عن كاهله عبء الشيخوخة الباهظ ، وينتصب كالشجرة الباسقة ، أما عكازه فيرتفع الى ما وراء ظهره ويشتبك بذراعيه . ثم يحرك ساقيه ويمتليء حياة ويبدأ بالرقص على وقع الاصوات الصغيرة المحرورة .

ـ « مية هلا بسانت كلوز .. ! .. الف هلا بسانت كلوز .. ! »

أخيرا ظهر.. تماماً كما صورته المخيلة مستعينة بذكريات السنوات الخالية . وكنا شقيقتي وأنا نتعجب .. وكان بقيـة الصغار يتعجبون كذلك . بيـد أن العجب كان يتيـه بين زحام العواطف المشـبوبة . والتساؤلات تتوقف . تضيع كما يضيع العجب . مئـات من السنين مرت وسانت كلوز مـا عتم يطوف على الاطفال ويقـدم لهم الهدايا الثمينة. وكنا جميعاً نعلم بأن الطلعة المتهجنة الضامرة، والملامح المترهلة المليئة بالتجاعيد ، واللحية الكثيفة الناصعة البياض ، والثوب المتهدل الفضفاض ، لم تكن جميعاً الا قناعاً من جلد قد خيط باتقان شـديد ورسـم بعنـاية فائقـة ، وبألوان لم تترك من قوس قزح لونـاً الا واستعارته . قناعا وحسب ، وتحت القنـاع كانت تتحرك امرأة تدعى كراسيا فرهود . ولم تكن كراسـيا فرهود قديسة أبدا . وانما كانت مجرد فرد ينتمي الى سلك المدرسين الذين لم يكونوا محببين دائمـاً الى القلوب . ولم تكن تتوانى عن معاقبة الاطفال بالضرب على الاكف مقابل كل غلطـة يغلطونها فى المحفوظات العربيـة حتى فى أقرس أيام الشـتاء بردا . وكان لهـا مؤخرا عصا غليظة من الخيزران المصقول أعدها لهـا نجار المدرسـة بناء على رغبتها خصيصاً لهـذا الغرض . وكانت كراسيا فرهود تبدو لنا ابان الفصول عجوزا متقدمة فى السن. ولكنها رغم ذلك كانت عانسا . وكان طلبـة الصف جميعا ونحن من بينهم نكتشف منـذ العام المنصرم فضيحـة هادئة محـاطة بالسرية والغموض تكتنف هـذه المعلمة ومعهـا خاحيك مانوكيان ، طالب فى الصف من ذوي السوابل الكثيفة ، كانت كراسيا تتودد اليه بشـكل خاص وتكل اليه بمهمة المراقبة خلال غيابها عن الفصل ، وتتغاضى عن هفواته المتكررة ، وتنفحه الدرجات العالية رغم كونه متوانيا . وكانت تبادله النظرات الغريبـة على مرأى من الجميـع . وفى الفترات التي

تتخلل الدروس ، كانت تجالسه فى خلوات مريبة • ثم حين ينتهي اليوم الدراسي كانت لا تغادر المكان الا واياه ، فيذهبان الى حيث لا يعلم أحد •••

كانت هذه العلاقة بين المعلمة وتلميذها تريب نفوسنا نحن الصغار وتفعمها بفضول متأجج • غير أن الفضيحة مكثت مشوشة غير واضحة الملامح ضمن عالمنا الطفولي الغريب • وبعد أن أصبح الفردوس مفقوداً بعد أعوام طويلة ، وبعد أن نبتت الشعور فوق الأفواه وعلى أطراف الوجنات ، بعدها فقط أخذت الحقيقة تتضح وتتبلور فى جلاء •

أجل •• لم تكن كراسيا فرهود قديسة أبدا • ولكن سانت كلوز رغم ذلك كان حقيقة واقعة • مرة واحدة فى العام كان على الشيخ سانت كلوز أن يظهر كي يوزع الهدايا على الاطفال • وكانت الحقيقتان حقيقة كراسيا فرهود ، وحقيقة الشيخ القديس تمتزجان فى مخيلاتنا وتختلطان • فمثلما أن العالم كان يتلاشى ، فان شخصية المعلمة العانس العجوز ، كانت هي الاخرى تتلاشى • وكان سانت كلوز وحده المهيمن على العالم الصغير الصاخب المتأجج • وكانت الطفولة تتسرب اليه من خلال الهتافات المسعورة ، وكان عكازه الاصفر الطويل يرتفع ، ويفج الهواء مشاركاً هو الآخر فى الرقص •

ـ « مية هلا بسانت كلوز •• ! •• الف هلا بسانت كلوز •• ! »

« ان كل شيء حسن ، بشرط أن تسير الامور كما سارت عليه فى المرة السابقة تماماً • » •• تململنا معاً شقيقتي وأنا • ربما كانت هي الاخرى تفكر بمثل هذا • ان أفكارنا كثيراً ما كانت تتوارد وتتلاقى• وكانت طريقنا الواحدة وميزاتنا المشتركة تعطي ذلك الالتقاء مزيداً من الصدف ، بل وانها فى أحيان كثيرة كانت تشبه التقاء العقارب على ذات الارقام فى كلتا الساعتين اللتين تحملها معاصمنا الدقيقة • وكانت هذه

الشاردة تشرأب من خلال الصخب كالبؤرة التي يفرخ فيها القلق • وبدا القلق شيئاً مغنياً عنه • فلماذا يقلق الأطفال حينما لا يوجد أموات ولا مرضى ؟ ! ••

قالت شقيقتي فجأة

ـ « ان الحصان الهزاز سيكون من نصيبك ، أما هديتي فلا ريب في أنها تلك العروس الكبيرة التي تمتطي الجواد • الا ترى أنهما من أجمل ما أتى به العم سانت كلوز هذا العام ؟ •• فضلا عن أنهما يلتقيان معاً خلافاً لباقي الهدايا الكثيرة ؟ ! •• »

على هدى صوتها الهامس الخجول ، وأصابعها المومئة بعيداً، اهتديت الى الحصان والعروس • وافقت بلا جدل على أنها تصيب الحدس • كانت هداياانا من المفضلة دائماً • ولقد عودنا سانت كلوز على أن نخمن ونحسن التقدير • ففي لحظات التشويق ، هذه التي تسبق توزيع الجوائز ، عمد الشيخ القديس الى صف هداياه في وضع يتيح لنا التعرف على نصيبنا أكثر من أي طالب آخر ممن ابتسم الحظ له فلم يسقطه الشيخ سانت كلوز من حسابه • كانت هداياانا تبدو أبداً مزدوجة • وكان حيز صغير يفصل بينها وبين باقي الجوائز كل عام • وفي السنة الماضية جاورتها هدية ثالثة صنعت معجزة • فقد كفكفت دموعاً سالت في العام الذي سبقه ، وأسبغت على السعادة ثوباً عازلا • سلخها عن اللعنة الآدمية المنبرية كالروح الشريرة المفسدة للبهجة ، وصنع منها جوهراً طاهر الشفافية معصوماً عن أي عنصر غريب ودخيل •

ـ « لا ريب في أنك صادقة •• ولكنني لا أستطيع تمييز هديته بالذات •• »

وترددت قليلا ثم همست

ـ « أخشى ••• »

وكانت هـذه الكلمة اليتيمة المقتطعة من سـيل عارم من الكلمات الكثيرة ، بمثابة كل شيء • أوشـك العالم الصغير المتقلص أن يلحق بالعـالم الكبير ويختفي هو الآخر فى فظاظة • اذن كانت العقارب فى ساعاتنا تشير بالفعل الى الارقام ذاتها • لم تتخلف فى ساعتها كما لـم تسرع فى ساعتي ولا لحظة واحدة • لقـد كان المؤشران يطبقان على الخشية • على نفس الخط من المشاعر القلقة المنبرية من خـلال زحام الصخب المكتظ على الاسـماع • وتتابعت على المخيـلة صور غمرتها نقاط بيضاء رطبـة لم تكن الا دموعا • كـلا •• لن يكون الحصان الهزاز مركبا تترنح فوقه الهموم فى حركة هستيرية شـاردة • وآذان العروس مستودعاً للاسرار المتجهمة الحزينة التي تضيق عنها صدورنا الصغيرة • وفجـأة قلت باصرار

ـ « سـأمنحه الحصان ••• »

بيد ان صوت شـقيقتي سبق نهاية قراري الحاسـم ، هامسا

ـ « سـأهبه العروس ••• »

وترددنا هنيهة • وكان العـالم يتسـع من جديد • عالمنا الطفولي الغـريب •

ـ « ولكن ألا ترين أن حصاني أو عروسـك لن يحلا المشكلة •؟! ان المهم أن تكون الهدية حقيقية وصادقة •• تحمل اسـمه ويقدمها له العم سـانت كلوز ذاته بيديه الرؤومتين • »

انبرت الكآبة على وجههـا الصغير كالاشـعاع الخاطف ، ورددت بهمـس

ـ « مسـكين نابليـون كاكو •• »

* * * * *

تعيدني الذكريات الصارخة الى نابليون كاكو ..

فى تلك الاثنـاء وضمن ذلك العالم لم يكن ما يغفر للحياة هفواتها غير الانفعال أو الالم وفى أحيان كثيرة البكاء • ورغم أن ما حدث كان يحدث قبل حفنة كبيرة من السنين المنصهرة فى ذمة العدم ، فان بداية القصة مع نابليون كاكو كانت ترجـع الى أكثر من عامين آخرين قبل ذلك التاريخ • يومهـا التحق كطالب جديد فى الصف • ولم يكن فى مقدورنا يومذاك أن نعرف الطالب الجديد على أنه « هفوة من هفوات الحيـاة » • كل مـا فى الامر أنه مكث فترة طويـلة وهو يمثل دور الملهاة للصف برمتـه • وكان الجميع ينظرون اليـه نظرتهم الى بدعة دنسة • وكان أي منهم مسـتعداً لان يربت على ظهر كلب أجرب دون آن يعتريه ذلك الاعراض الذي كان يركبه حين يطلب منه الاقتراب من نابليون كاكو • وكان من الاجحاف أن ندعو تلك التصرفات الصبيانية فى حينها أجحـافا • ففي كل ذلك كان يكمن سـر كبير يحرك هـذه التصرفات ويوجههـا • كان نابليون كاكو غريبـاً من أم رأسـه الى أخمص قدميـه • شـعر خنفسـاني مسـترسـل يغطي اذنيـه ولا يجـد سبيله الى الحلاقة أبداً • ورأس كالبطيخة الكبيرة التي مكث داخلها فجاً أبيضا • ورقبة شحيمة عريضة تدعو الاكف الغريبـة أبدا الى التعامل معها بالصفع • وفم يحده من طرفيه معينان ينزان صديدا لا يتوقف ، كان يستخدمه كمصيدة للذباب المتراكم فلا ينفك شـدقه يقتنص الذبابة تلو الذبابة فيلوكها حتى يستخلص أنفاسها ثم ينفثهـا مع بصاقه الى الارض • وكانت ثيابه أشـد بؤسـاً من الرثاثة ذاتها• وكان البعض يدعي بأن أولياء أمر نابليون كانوا يلتقطون تلك الثياب من المزبـلة القريبة من « كانب الارمن » فيرتديها على عواهنها دون ترتيق أو ترقيع ولا حتى تنقية • ولهـذا فقد كانت رائحتها عميقـة

وكريهة ومذكرة برائحة العفونة المنبعثة من حول الحنفية المعطوبة فى دورة المياه ، حيث قطرات الماء لا تني عن الهطول صانعة تحتها مستنقعاً آسناً يحوم فوقه البعوض والبق والنحل وسائر أنواع الحشرات الضارة •

خلاصة الامر أن نابليون كاكو كان قذرا • وكانت قذارته تنحفر فى الرؤوس الصغيرة مع شيء غير قليل من الغرابة • فبالاضافة الى صفاته البدنية ، كانت سكناته هي الاخرى شاذة وناشذة • فكنت تلمح فيه جفول الخروف وبلادة الحمار • وكان جسمه البدين حين يتحرك يشبه الى حد ما الجدار من الحجر الذي نبتت له أرجل فأخذ يتزحزح عن موضعه كتلة واحدة وفى بطء عقيم يعلو على بطء السلحفاة • وكان اسمه هو الآخر مدعاة للتفكه • فقد كان أول من يدعى بنابليون من جميع من صادفناه فى حياتنا التي كانت ما عتمت ضيقة • وكنا نحاول أن نقارن بينه وبين نابليون الآخر الوحيد الذي التقينا به في كتاب التاريخ والذي كانت صورته مطبوعة على الصفحة الثامنة والتسعين من ذلك الكتاب • وفى العادة فقد كان للاسماء المتشابهة ما يوحي لنا نحن الصغار بمزيد من الشبه ينحدر الى الشخصيات • بيد أن المقارنة بين المرحوم نابليون بونابرت وبين نابليون كاكو نقضت هذا الوهم وأبادته عن آخره• فلم يكن ثمة قاسم مشترك يربط بين الاثنين غير الاسماء • أما الاشياء الاخرى فكانت كلها معكوسة ومغايرة • وعندما أعيى الطلبة البحث عن معنى مفيد لكلمة « كاكو » استفسر أحد الشياطين الصغار من كراسيا فرهود عن مصدر هذه الكلمة فى اللغة، فانتهرته المعلمة ولكن نصيب ذلك الدرس كان قد قضي عليه بالفناء بين الضحك والصخب والضجيج •

مكث نابليون كاكو شهورا لا يجد فى الصف مكانا ثابتا له ، كان كالهيضة الباعثة على الغثيان والقيء . ولم تتسع الصدور الصغيرة لما كان يجب أن تتسع له من حسن الجوار عندما كان ذلك الأمر يتعلق بنابليون . رفض الجميع استضافته على مصاطبهم وطردوه بقوة واصرار كما لو كان أفعى سامة أو حشرة مثيرة للتقزز . كان من زعم أن رائحة نابليون الكريهة تؤدي الى الدوار وتشتيت الافكار ، ومن ثم فهي تفسد على التركيز فى أشد الاوقات احتياجا اليه . وكان من ادعى ولا سيما فى دروس الصحة ، أن مجاورته لنابليون أمر مناف لكل قواعد الوقاية واصولها . فالذباب لا يصون حرمة . وليس فى مقدور أحد أن يحظر على هذه الحشرة الانتقال من وجه نابليون المفعم بالقروح المتقيحة الى الوجوه الاخرى القريبة ناقلا اليها العدوى والجراثيم ، وهكذا تحول نابليون كاكو فجأة الى رحالة من أمثال فاسكو داكاما أو ابن بطوطة مع فارق بسيط . فقد كان العالم بأسره مفتوحا فى وجوه اولئك . وكانوا يذرعونه طولا وعرضا بحرية مطلقة وبرغبة تكاد أن تكون مقدسة . أما نابليون كاكو فكان عالم تجواله مقتصرا على حجرة لا يتجاوز قياسها عشرة فى ستة من الامتار . ورغم ذلك فقد مكث ينتقل من مصطبة الى مصطبة ومن شبر الى شبر فلا يجد أمامه غير جدار يسد بوجهه المنافذ برمتها . وكان فى كل ذلك مرغما .. مسيرا .. مغلوبا على أمره ، كآلة الشطرنج .

وأخيرا ، وبعد الشهور الطويلة من عدم الاستقرار ، وجد نابليون كاكو نفسه . وكانت كراسيا فرهود ذاتها التي أمسكت بطرف الحبل .

ـ « لقد جلستما معا على هذه المصطبة سنوات عديدة . وقد آن الاوان لان تنفصلا . عليك أن تجلسي من الآن فصاعدا على

المصطبة التالية ، على أن يحتل المكان المجاور لشقيقك ، الطالب نابليون كاكو .. »

تمخض قرار المعلمة عن لحظة عصيبة حرجة لنا معاً . وفكرت « لربما يكون هذا القرار نوعاً من التقدير والاعتماد على حسن سلوكنا . ولكنه فى الواقع أقسى من أي عقاب يمكن أن ينزل بطالب مهما بلغ من العقوق » وفى تلك اللحظة ذاتها كانت أولى الحقائق المحضة التي تدعو الى التأمل قد بدأت تتكشف . بيد أن العواطف الصبيانية مكثت فى صراع مع القيم الصبيانية ذاتها . حتى انتصرت العادة جالبة معها التسليم بالامر الواقع . ولم يكن وقع القرار الصارم موزعاً علينا نحن الاثنين بالتساوي . فقد عانت شقيقتي من نقض الوتيرة وحدها ، أما أنا فبالاضافة الى ذلك فقد كان يجب أن أحتمل قذارة نابليون ، ورائحته الكريهة ، والذباب الذي يطارده كالظل فى كل مكان .

لماذا لم احاول طرد نابليون كاكو من جواري كما فعل سائر الطلاب ؟ ! ...

ان الذكريات الحادة الصارخة لا تجد جواباً على هذا . على أنها ما فتأت تؤكد أن اليوم الاول كان يوماً كئيباً وربما قاتما. فقد ظل الشعور بالاشمئزاز غامقاً حتى بعد عودتنا الى القصر. وفى ذلك اليوم اغتسلت مرارا عديدة بلا فائدة . وكنت أحس بأن قذارة العالم كلها تتجمع فى الاشياء الممتعة وتجعلها منفرة . وبدا الطعام ملوثاً بالجراثيم فلم أقدر على ازدراده . بدا ذلك عندما اختنقت باللقمة الاولى فاضطررت الى رفضها موشكا أن أرفض معها كل ما فى الجوف من أحشاء . ولم أحتمل الصراع الغامض الذي طحنني طحنا ، فقابلت ذلك التشويش الذي فرض على نفسيتي الصغيرة المرحة ، بالبكاء .

وقالت شقيقتي وهي تلحظ أعراض الغمة التي لحقت بي .

ـ « انني اشاركك الاسى . ولكن أكثر ما أخشاه عليك ، هو أن تصيبك من نابليون كاكو عدوى البلادة ، فتلك هي الطامة الكبرى فيما لو وقعت لا سمح الله . »

ولم يداخلني الشك فى أن رثاءها لي كان صادقاً على ما تبطنه من سخرية خبيثة صغيرة . وكان هذا مدعاة للثورة ، فقلت محتدا ومهددا فى الوقت ذاته

ـ « اذا استمر الوضع على ما هو عليه، فسأجدني فى النهاية مضطراً الى ترك المدرسة حتى وان كلفني الامر ، التضحية بعام كامل ثمين . »

على أن تنفيذ هذا الوعيد لم يكن له ما يبرره . فثمة حقائق صغيرة لا يمكن أن تدركها العقول اليافعة بغير التجربة . وعلى سبيل المثال ، فان نابليون بونابرت ذلك الذي حاولنا أن نقارنه بنابليون كاكو ، كان يبدو لنا يومئذ بطلا متوجاً بأكاليل الغار . لقد كانت تحيط به هالة من الاعجاب حبكها مدرس التاريخ فى مخيلاتنا نحن الصغار ، ثم حين اتسعت دائرة معارفنا فيما بعد ، سقطت تلك الهالة النورانية واتضح أن نابليون بونابرت لم يكن غير مجرد طاغية حالفه الحظ فى البداية ، ثم تخلى عنه حين ظهرت مغبة أفعاله ففقد فى النهاية كل شيء وكانت ميتته فى المنفى جديرة بكل طاغية متعطش الى الدم .

هكذا ، وعلى خط مواز لهذا الاكتشاف ، أخذنا شقيقتي وأنا نكتشف نابليون كاكو شيئاً فشيئاً . كان هو الذي حطم نطاق الصمت المطبق الذي ساد علاقة الجوار فيما بيننا على مدى اسبوع طويل من الاعراض . وكان اسلوبه فى ذلك صميماً وماساً بالعواطف. فقد كانت الواسطة التي احتمى وراءها فى سبيله الى فض خاتم

الصمت ، عبـارة عن مجموعة من الصور المسيحية ، أغلب الظن أنـه حصل عليها من راعي الكنيسـة التي يقصدها مع امه فى أيام الآحاد. وضمن تلك الصور صورة السـيد المسـيح المشـهورة التي يبدو فيهـا معلقاً على الصليب وفوق رأسـه ذلك الاكليل من الشـوك . ومن ضمنها صورة العذراء وهي تحمل الطفل ، وقد أحاطت برأسـه هالة من ذهب مشـع . وثمـة صورة ثالثة تمثل مريم المجدلية مكبة على أقدامهـا تلثم أطراف شـال يسـوع الصوفي ، وهو يربت على كتفهـا ماسـحاً عنها غبار الخطيئـة . وقال نابليون كاكو بلسـان متعثر وهو يقـدم لي المجموعـة :

ـ « اريد أن تتقبـل مني هـذه الهديـة الصغيرة لكمـا معـاً ، أنت وشـقيقتك ... »

وبدت مشـيئته للوهلة الاولى غريبـة وسـمجة . كانت تلك ، هي الكلمـات الاولى التي ترددت بيننا منـذ أن جاورني المصطبـة منذ اسـبوع كامل من الاعراض . ولانهـا كانت الاولى فقـد كان ينبغي أن لا تحمـل مفاجأة . ورغم كل شيء ، فقـد كان ثمـة ارادة عجيبـة تتجاوب فى تلك الكلمات . كيف يجرؤ نابليون كاكو على أن يتكلم وعلى أن « يريـد » كذلك ؟ ! .. وأمعنت النظر فى هديتـه . كان كل شيء يمسـه نابليون كاكو يغدو رجساً . بيـد أن الصورة الزائعـة للمصلوب المعذب بدت شديدة الاغراء. فكأنما أراد نابليون أن يكون السيد المسيح شـفيعه فى الخلاص من الخطر المطبق على عنقه كحبل المشـنقة . ذلك الذي يقـال عنـه أنه كان يبث النور فى العيون المظلمـة ، هل يفعل المعجزة بعد قرابة الفين من السنين ؟ ! .. وهل يفتح العيون التي لا ترى ويرشدها الى الحقيقة ؟ !..

ـ « ولكـن مـا هي المناسـبة ؟ ! ... »

وكان نابليون كاكو يعرف جيدا ما هي المناسـبة . لقد كان وجد

نفسه .. ورغم عنف المقاطعة فقد كان يحس احساساً عنيفاً بالاستقرار . من صميم صميمه ، كان ينبع هذا الاستقرار . وكان يحرص على أن يثبت مكانه بين البشر . كان يريد أن يبرهن على انسانيته رغم ما به من نتن وقذارة وغرابة . ولكن السؤال عن المناسبة أفحمه طويلا . وارتجفت شفتاه المكلومتان طويلا . رغم كل شيء لم يكن واثقاً من نفسه . لقد كان من الجائز أن تفقده جرأته كل شيء مرة أخرى . وكان « كل شيء » بالنسبة له يقتصر على هذا المقعد المتواضع الذي حصل عليه فى خاتمة المطاف .

ـ « لا ينبغي أن تكون مناسبة . هل ثمة شائبة فى أن « يحب » المرء شيئاً لا غبار عليه ، فيقدم من ثم على ذلك الشيء ؟ ! . »

كلا .. لم تكن تلك رشوة .

أدركت من حيث لم أفهم ذلك جيدا ، أن ما كان نابليون كاكو « يحب » أن يقدم عليه ، لم يكن سوى نوع من التعبير عن الاعتراف بالجميل . وعندما تعمق هذا الادراك واتسع ، اكتشفت أنه لم يكن هنالك جميل يسدى على الاطلاق . لقد بدأ نابليون كاكو يتغير ـ فى نظرنا على الاقل ـ فمنذ أن تجرأ على تقديم هديته ، أخذ الجانب الانساني من نفسه يظهر ويتضح . ورغم أن قذارته مكثت على ما كانت عليه ، فانها بدت أكثر وأكثر شديدة الشبه بقذارة الكلب . مجرد لباس يبطن طوية نقية ونبيلة . ومن هنا بدأت أول صورة للفقر والضعف تغشى عيوننا الصغيرة التي تعودت على أن لا ترى شيئاً غير النور .. وكانت هذه الصورة شديدة القسوة.

ومثلما وجد نابليون ذاته بمشقة كبيرة ، فقد كان اكتشافنا ـ شقيقتي وأنا ـ له ، لا يقل عن تلك المشقة الجسيمة . وكانت حقيقته التي بدأت تجهض نفسها منذ أن حطم بمبادءته جدار الصمت، تأتي على دفعات ضئيلة ، مجرد قطرات كقطرات الماء المتدفقة من

الحنفية المعطوبة فى دورة الميـاه • وفى البدء كنا نبادله جمـلا قصيرة لا تخرج عن نطاق الدروس • ثم حدث ما دفـع بذلك الحـوار الذي كان ما عتم عرضياً وعابرا ، الى أن يتحول الى نوع من العـلاقة نبت من مشـاعر كانت تنمو رويـدا رويدا • ففي ذات يـوم ، وفى دورة الميـاه بالذات ، اكتشفناه لصق الحائط محاصراً من قبـل جماعة من الطلاب كانوا يفرغون به كل ما امتلأت بـه نفوس البشر من عدوانية صارخة • ولأنه كان جفولا كالخروف ، فقد وجد فيه اولئك الشياطين هدفاً هيناً للتنكيل • وكان يتلقى اللكمات وهو صاغر • وانهالت عليه اللطمات من دون أن ينبس ببنت شـفة • سـارعنا الى نجدته •وبعد أن انتزعناه من الجدار الذي كان ملصوقاً فيـه ، مضى الى جانبنا من دون أن يعتري وجهه تعبير معين • ولم يبد عليـه أنه يميل الى البكاء• كما لم يلح أنه كان يهـش كثيرا لخلاصه من الالم الذي فرض عليـه فرضا • ولكنـه ردد أكثر من مرة ، وكأنما لنفسـه وحدها •

ـ « ملاعـين ! • ملاعـين ! • »

وفى ذلك اليوم ظـل ملازماً لنا كالظـل • ورافقنا بعـد أن غادرنا المدرسـة مسافة طويلة اضطر بعـدها أن يعود على أعقابه ، قافلا الى ما يسـمى بمنزله الكائن فى كانب الارمن • ولكنه فى اليوم التالي جاء وبحوزته مجموعة من الرؤوس الجبسـية الصغيرة كانت تحمل سمات سـانت كلوز وصفاته • وغمغم وهو يقـدم لنا تلك الرؤوس •

ـ « خذا هـذه •• »

وللمرة الثانيـة فى غضون فترة قصيرة ، أدركنا أن نابليون كاكو يعود ليخضع الى احسان لم يكن يحسـه أحد سـواه ، وأنه مقابل هـذا الاحسان الوهمي يريد أن يعترف بالجميل • ورغم ادراكنا بما يجول فى خاطره فقد عدنا وسـألناه عن المناسـبة • وأدهشنا أنه فى هـذه المرة كان يفلح فى اخفاء غرضـه الحقيقي وراء مناسـبة أخرى

أخرى أكثر اشراقاً وقف وراءها كي يتخذ منها واجهة • وابتسم وهو يقول :

ـ « أي مناسبة ؟ ! •• ألا تعلمان بأن عيد الميلاد يقترب ، وأن سانت كلوز هو رمز ذلك العيد بالنسبة لنا نحن الاولاد ؟ ! •» عيد الميلاد ! •• وعبثت أصابعنا باللحى القطنية التي تزين رؤوس سانت كلوز الجبسية • وكانت أحلام سعيدة تدرك مخيلاتنا الصغيرة وتدغدغها • وفجأة الفينا أنفسنا بين حشد كبير من الطلاب نشاركهم التصفيق ، ونردد معهم بحرارة وعمق :

ـ« مية هلا بسانت كلوز •• ! •• الف هلا بسانت كلوز • »

* * * * *

على ذات المشهد نفسه ، مضت الذكريات الصارخة تروي قصتها • لم يكن ثمة اختلاف سوى الخشية • أما العامان المنصرمان ،فلم تنل أحداثهما من هذا العالم • والافكار لم تتغير كثيرا رغم كل ما يقع • كان الاندفاع وما يزال يحتل مكان الصدارة• والعواطف ما انفكت جياشة •• بين صعود وهبوط كزئبق المحرار• وكان يمكن للبكاء أن يغرق عالمنا الصغير اثر موجة كاسحة من هياج البهجة ، هكذا على حين غرة وبدون مقدمات ، ثم تنعكس الآية ، فتكفكف الدموع لجة أخرى طاغية من السعادة • كل ذلك مقابل دوافع صغيرة لا تربطها بالحقيقة المجردة صلة من الصلات • وفى أحيان كثيرة لم يكن ثمة حتى هذه الدوافع الصغيرة • فكل شيء كان منساقاً وفق تلك العواطف الجياشة العاصفة فى داخلنا كالريح الصرصر • مجرد عبث صبياني لا أهمية له • وللمرة الاولى كان نابليون كاكو يشاركنا المقعد ويهتف لسانت كلوز • وكان العالم الكبير

يختفي تماماً كما يختفي الان فلا يموت الناس ولا يولدون • ولا تفعم القصر زرافات العائدين بلا انقطاع • وتنطفيء شعلة السماور • ويتلاشى البخار المتصاعد من فوهة الابريق • وتختفي البسمة الصادقة الحنون من على وجوه الكبار الذين نعيش فى أكنافهم كأنما فى أحضان عش دافىء • فسانت كلوز يستخفه الطرب • يرقص •• عكازه الاصفر الطويل يشج رأس الهواء ويشطره • ثم تهدأ الجلبة ويبدأ توزيع الجوائز • وأخذت البقعة السوداء تجلل القلب الصغير من قبيل الذكريات ، كما جللته قبل عامين على سبيل الحقيقة• يومئذ كنا نحمل هدايانا ونعانقها أما نابليون كاكو فكانت أنامله مشغولة بشيء آخر • لقد كانت تمتد الى عينيه لتشرب دموعها الغزيرة• أجل ••بكى نابليون كثيرا • فالشيخ سانت كلوز لم يكن أقل لؤماً من الطلبة الشياطين• وكان مثلهم يحسن التفرقة والتمييز والقسوة • ان جميعهم كانوا يرغبون فى أن يبقى نابليون كاكو مجرد صفر على الشمال• وكانت هذه الرغبة لا تترك أحدا حتى الشيخ القديس ذاته • وفجأة كثرت التساؤلات وتعددت • وكانت تساؤلات مجرحة ومنهكة لعقولنا الصغيرة • ان العم سانت كلوز لا يستحق الشكر والتقدير •• فرغم أنه قدم لنا من هداياه أفضلها وأحلاها فان الوصمة ستلاحقه دائماً • وستلعنه حتى تجف الدموع على المآقي الشقية البائسة •

وفى القصر لم يكن ما يشجع على البهجة • تساءل الجميع عن نوع الهدايا التي قدمها لنا سانت كلوز هذه المرة • ولكن الفتور مكث يطبع كل شيء • وتكررت التساؤلات المريرة وسط كآبة عارمة • وبدت الدهشة على وجوه الاهل • وتساءل والدي بكثير الخيبة تبدت على طلعته وهو يقلب بين يديه الهدايا الجميلة وكأنه يتفحصها •

ـ « ما الذي يحزنكما بعد أن قدم لكما سانت كلوز أروع

مـا فى جعبتـــه .. ؟ ! .. »

فقالت شـقيقتي :

ـ « ان نابليون كاكو لم يحصل على هديـة .. »

ـ « ان المسـكين بكى طويلا .. ولا شـك فى أنـه الآن غارق فى بحـر مـن الحـزن ... »

ـ « ان حزن نابليون كاكو قد أفسـد علي المتعة برمتها .. »

ـ « كان سـانت كلوز هـذه المـرة غاية فى القسـوة .. »

فتسـاءل الاب فى ارتبـاك ظاهـر :

ـ « كيف تعتقدان هـذا ؟ ! .. ان الرجل لم يسيء اليكما . انه ما انفـك يفي بعهده وينفحكما كل عام بأفضل ما لديه . »

فتساءلت بحـيرة وغموض

ـ « أليـس ذلك سـمحاً أن يقـدم سـانت كلوز الهدايا لنـا ويمنعهـا عن المسيحيين من أمثاله ممـن كان يجب أن تكـون لهم الاولويـة ؟ ! .. »

فقـال والدي محـاولا اقنـاعنا برأيـه

ـ « اعترفتما دائمـاً بأن نابليون كاكو طالب كسـول . وسانت كلوز لايحب الكسالى وانما يفضل عليهم المتفوقين من غير المسيحيين» .

وحتـى أنـت يـا بروتـس ؟ ! ... ان والدنـا هـو الآخـر كان بهـذا التعليل يطعن فى كرامـة نابليـون . وكانت تلك الكرامة التي لم يعبـأ بهـا أحد ، قد أخذت تتبلور منذ اكتشفنا ذلك الصبي وأحببناه . وكانت تمـتزج بكراماتنا الصغـيرة فاذا نحـن نطعن فى الصميم . ولاحت المشكلة أكثر ظلاماً . ان نابليون لا يجب أن يتعذب لان الآخرين ينظرون اليه على أنـه صفر على الشـمال . أما الكسل والقذارة فـلم يكن فيهما ما يبرر طرد الانسان من الحظيرة البشرية . وكان هـذا كالجرح الموجـع الذي لا يكف عن الصراخ . ففي مكان

بائس حقير يجلس الآن نابليون كاكو ويندب حظه • ان امه تلتقط له الثياب من أكوام القمامة• وعندما يحصل من الكنيسة على الصور، والرؤوس الجبسية ، فانه يقدمها لغيره على سبيل الاعتراف بالجميل• وهو مع ذلك ما عتم يتهم على أشياء لا اختيار له فيها • وكان هذا يدعو الى البكاء من أجله ، أو على الاقل مشاركته ذلك البكاء• وكان التمرد الصغير يتجسم على شكل التبرم بكل شيء • وأما الهدايا الصغيرة فقد أضحت أول هدف لذلك التمرد • القينا بها جانباً ثم عن لنا أن ننتقم منها فجعلناها حطاما • وفزع الاهل جميعاً • ولاح القلق على محيا الوالد فقال أخيرا بذلك الحنان المعهود :

ـ « اهدءا ولسوف أشفع له لدى سانت كلوز • وأعدكما بأنه فى المرة القادمة لن يعدم هدية جميلة كالتي تحصلان عليها • »

* * * * *

أفلحت شفاعة الوالد لدى الشيخ « الاناني » القديس • فقد كان نابليون كاكو فى العام التالي يعانق هديته ووجهه مفعم بالبشر• وفى هذه المرة ، كانت السعادة مكتملة • اذ لم تحدث مساومات تستهدف مظهر الانسان أو تنال من قيمته • وكنا على يقين من أن سانت كلوز لم يخرج عن طبيعته « العنصرية » اختيارا • فقد كان الفضل كله يرجع الى والدنا بالذات • وكان والدنا رجلا رقيقاً وشديد الطيبة ، ومع ذلك فقد كان يمتلك شخصية مرموقة بين الناس • وكان يتمتع بنفوذ عظيم رغم أنه لم يشغل منصباً سياسياً فى حياته أبدا • فقد كان مصدر رزقنا الوحيد يقتصر على ايرادات شركة

لادوات السيارات ، كان أبي يمتلك جزءها الاكبر فى حين كان يشاركه الجزء الآخرمنها رجلا يدعى صالحعبد• ومن هذه الايرادات، تسنى لنا أن نحقق الحلم الاكبر فى حياتنا • فمنذ سنوات قليلة فقط تم وضع حجر الاساس للقصر الكبير • واستغرق البناء ستة شهور كاملة شمخ القصر على أثرها بكل عظمة وخيلاء • ثلاث شرف • وثلاثة مراحيض • واثنتي عشرة حجرة فسيحة لم تخل جميعاً من أجراس كهربية كان الضغط على أزرارها يحدث رنيناً خفيفاً لا يثير الازعاج • وحول ذلك كله حديقة رحبة مؤطرة من جميع جوانبها بهامش من الآس • مع قطعة كبيرة مخصصة للزهور على مختلف أصنافها • أما القطعة المعدة للفاكهة ، فقد كانت وما عتمت تشاكس فى اعطاء النتائج المرضية بسبب ملوحتها • وما زال كاظم البستاني يتفانى فى علاجها بشتى الوسائل العلمية الحديثة • وكان يوم انتقالنا الى القصر الجديد حدثاً هاماً ولا سيما بالنسبة لنا نحن الصغار • واكتظ القصر بالزائرين من جميع الاصناف • بيد أنهم جميعاً اتفقوا على شيء واحد هو الاعجاب • وقال أحدهم وهو يتنقل من حجرة الى اخرى ويضغط على الازرار الكهربية المحدثة لتلك الاصوات الرقيقة :

ـ « ليس هذا مجرد بيت للسكن • فأغلب الظن ، ان المهندس كان وهو يرسم الخارطة يفكر فى صميم مستشفى •• »

من هنا كان مصدر كبريائنا واعتدادنا • وبالاضافة الى هذا ، فقد كان نفوذ والدنا يغمرنا هو الآخر بالزهو • وكانت الامثلة على هذا النفوذ كثيرة ومتعددة • فما زلت أذكر كيف أن والدي تمكن من ابعاد مدرس الرياضة الجديد عن المدرسة قبل أن يقضي فى كنفها أسبوعاً واحدا • وكان طرد ذلك المعلم مدعاة لارتياح كافة الطلبة• كان فظاً غليظ الطبع • ولم يكن ثمة وازع يحمله على الكف عن كيل

اللكمات الى الوجوه الصغيرة وكأنما يمارس معها مباراة للملاكمة فيخيل اليه أن كلا منهم بطلا من أبطالها • وفى درسه الافتتاحي ـ الذي لم يسعفه الطالع بغيره بسبب نفوذ الوالد ذاته ـ أكال لي من هذه اللكمات ما أحالني الى الفراش فلازمته أياما • وكان سبب ذلك يرجع الى رفضي الدخول فى جولة مصارعة مع طالب « هرم » لا يقل جسامة عن الثور الكبير ، ذلك لعلمي مقدماً بأن الجولة غير متكافئة وانني سأخرج منها محطم الضلوع لا محالة •

كنا نتقبل نتائج هذا النفوذ من غير أسئلة ولا أجوبة • تماماً كما يتقبل الأميون الحياة على سطح الكرة الارضية ، فلا يسألون عن سر تعاقب الليل والنهار والفصول الاربعة ، وعن سبب تساقط الامطار وهبوب العواصف والكسوف والخسوف • بيد أن أستجابة سانت كلوز لشفاعة الوالد كانت تصيبنا بالذهول وترفعنا الى ذروة خيلائنا واعتدادنا بنفوسنا • فاستجابة الشيخ ، هذا الذي لم يكن يقف فى طريقه زمان أو مكان ، والذي كانت تحف به الروحانية والميتافيزيقية فى آن واحد ، كانت تبدو لنا من قبيل المعجزات والخوارق • وكان هذا يجعل خنوع الناس العاديين لذلك النفوذ المرموق أمرا يهبط الى حد التفاهة ويفقد قيمته • واذن فسانت كلوز هو الآخر قد أصبح من أتباعنا • نستطيع أن نخرجه من فظاظته ، ونكرهه على ممارسة الانسانية العادلة • وحينما تقبل نابليون كاكو هديته القيمة بدا لنا أن كل شيء قد استقام من جديد • وأن مكانة هذا المخلوق « القذر » قد رسخت داخل جدران عالمنا العجيب ناشبة جذورها فى تربته • فلم تعد زوابع العدوان التي تثيرها المظاهر بقادرة على اقتلاعه وقذفه بعيدا الى المزبلة التي تدر عليه بالثياب وربما بالطعام كذلك • وكانت الحياة تصبح بذاتها شيئاً أشبه ما يكون بالدمية • ننقلها من مكان الى مكان • نحتضنها •

نطعمها من فضلات ما نأكل • ونلبسها كل يوم ثوباً جديداً ، ثم نركلها بأقدامنا كالكرة التافهة ، حينما يساورنا الملل باحثين من ورائها عن لعبة جديدة •••

* * * * *

الحفلة •••

واثقين من أنفسنا أشد الوثوق ونحن نشير الى الحصان الهزاز والعروس التي تمتطيه • اننا لا يمكن أن نخطيء الحدس • ولكن الخشية كانت تدس أنفها من خلال الصخب العارم • ان العقارب فى كلتا الساعتين تشير الى هذه الخشية • وتكرر الهتاف للمرة التسعين •

ـ« مية هلا بسانت كلوز •• ! •• الف هلا بسانت كلوز • »

وتوجع الهواء بينما كانت عصا الشيخ تنهال عليه بقوة وتشطره • ولكن هذا الهواء مكث شبه صامت • كانت تأوهاته المكتومة تفنى فى زحمة الصخب فلا يتناهى الحفيف الى الاسماع وانما يضيع كما يضيع كل شيء آخر • وكان سانت كلوز غارقاً فى حركاته السمجة المضحكة وكأنما فى شطحة صوفية • وغرقت معه الاشياء بأسرها فى هذه الشطحة الهستيرية ، حتى الجدران والمصاطب •

ـ « ولكنني مع ذلك لا أرى هديته ••• »

وتلكأت شقيقتي

ـ « أخشى ••• »

ووجدت الحل فقلت باصرار :

ـ « سأهبه الحصان الهزاز • »

ووجدته بدورها فقالت :

ـ « سأمنحه العروس الكبيرة ... »

ونظرنا اليه ، فأوقعتنا الآمال المشنوقة على وجهه كالمسيح ذاته ، فى الشرك ، وكان هذا الشرك يبتلعنا مع الحلول بأسرها .

ـ « كلا .. ليس المهم حصاني أو عروسك .. ان المهم أن تكون الهدية حقيقية وصادقة . تحمل اسمه ويقدمها له العم سانت كلوز ذاته ، بيديه الرؤمتين .. »

واستفقت الآن من الغيبوبة . كان نابليون كاكو يقبع الى جواري مذهولا ، مشدود الوجه كالوتر على كمان البير منصور . وكانت شقيقتي تبدو هي الاخرى ذاهلة القسمات متوترة كالصمت الذي ساد فجأة . وكان هذا الصمت فاغر الفم . يطحن بين أشداقه التمساحية ضجيج الجلبة ويلتهم الصدى . مر وقت طويل اذن . وخلال هذا الوقت كان العبء فى جعبة سانت كلوز يخف ويتضاءل . وتفسخ الكدس الهائل من الهدايا وانتقلت أشلاؤه الى الاحضان الصغيرة تباعاً . وتوالت قراءة الاسماء ، وامتداد الايدي ، وصرخات الحبور . ومضت أكداس الهدايا فى تضاؤلها كأعمار البشر .. قطعة بعد قطعة .. وكانت هذه القطع الصغيرة تحمل صفة السحر . وكانت كالبلسم .. كالعقار الذي يسمونه بعقار السعادة. وفى بعض النفوس الصغيرة سرى هذا العقار بسرعة متناهية كالقدر . وفى بعضها الآخر امتنع عن السريان فمكث هذا البعض ينتظر نصيبه بفارغ من الصبر . وكنا ما نزال فى عداد هذا البعض الآخر. وكل من الجواد والعروس ثابتاً فى موضعه مثيرا فى نفوسنا شهوة جبارة أقوى من الرغبة. وكانت صفة جديدة غريبة وبشعة تتلبس بسانت كلوز هذه المرة . لقد أضحى سانت كلوز ساديا فضلا عن أنه أناني وعنصري . تساءلنا وقد فرغت قطرة الصبر الاخيرة، عن ذلك

النفوذ الذي يصنع المعجزات • أين أمسى الآن مكانه فى قرارة العم القديس ؟ ! •• ولماذا يتمرد هذا الشيخ المأفون فجأة فيقلب لنا ظهر المجن ؟ ! •• وبين هذه التساؤلات الحائرة مضى كل شيء فى طريقه حتى النهاية • اختفت أشلاء الهدايا حتى الفتاتات الصغيرة • ولم يعد ثمة حصان هزاز ولا عروس تمتطيه • كان كل شيء قد تحول الى جرعة من السعادة توارت داخل أجواف كثيرة • أما أجوافنا فمكثت محرومة • وكان الجوع العظيم يراودنا للمرة الاولى • فى قسوة غير معهودة تلغب الافواه •• تجرعها المرارة •• وتصيب النفوس بالغثيان •

ـ « مستحيل •• لا شك أن سانت كلوز قد أخطأ • »

ـ « كلا •• ان سانت كلوز لا يخطيء أبدا • »

ـ « لا يمكن أن يكون ثمة خطأ أفظع من هذا • »

ـ « الا اذا كان ذلك انتقاما •• »

ـ « هراء •• لماذا ينتقم منا سانت كلوز نحن بالذات ؟! •»

ـ « ربما كان السبب يرجع الى نابليون كاكو ! •• مسكين نابليون كاكو ! •• »

ـ « ان نابليون كاكو نفسه كان قد حصل فى العام الماضي على هدية جميلة •• »

ـ « ان لكل شيء أسبابه •• »

ـ « أجل • وكان السبب يعود الى نفوذ والدنا العظيم •• فأين أضحى هذا النفوذ يا ترى ؟ ! •• »

ـ « دائماً كان يخيل الي أن شخصية مثل سانت كلوز لا تتأثر بالنفوذ مهما كان عظيماً • وأغلب الظن أنه فعل ما فعله فى العام المنصرم ، كي تكون ضربته الان أشد عنفاً وأدق مقتلا •• »

ـ « ما أفظع غدر سانت كلوز ، اذن ؟ ! •• »

وكان هـذا الغدر ينتشر فجـأة على أرضية عالمنا ويصبح شاملا. لقد كان ككل شيء مجرد لا تحـده الصفات المعينة . ومن هنـا كان يمكن أن تنهـار الوحـدة التي جمعت فى سـاعة عابرة بين كل من سانت كلوز وكراسيا فرهود . ولهـذا السبب فقـد كانت كراسـيا فرهود بميزاتها البعيـدة عن القدسـية تتحمل هي الاخرى نصيباً من هذا الغـدر . وكاد أن ينفصم الوهم .. وكان الغـدر يتقمص عالمنـا الصغير برمتـه . بيـد أن قبضة ذلك العالم الفولاذية ظلت قوية وغير متخاذلة . وكان من المستحيل أن نشـير الى المصدر الحقيقي للغدر، بأصابع واثقـة من نفسها . كل شيء كان قد اصطبغ بلون ذلك الغدر القاتم . سـانت كلوز ، وكراسـيا فرهود ، وادارة المدرسة ، وأخيرا عالمنا المحكم الجدران الخلي من المنافذ . وضاع نابليون كاكو فى خضم الحيرة المبرحة . وفقـد وجوده بعـد أن أوشـك وجودنا ذاتـه على الضيـاع . وقـال :

ـ « لن أبكي بسـبب هذا . ان هنالك أشـياء اخرى ينبغي أن نوفر دموعنا لها . وعندما بكيت فى المرة الاولى فقد كنت مخطئاً دون ريب . فمثـل هذه الامور يمكن أن يعتادها المرء بيد أن امورا اخرى أشـد خطورة مـا عتمت تضع بينها وبـين التعود عليهـا جدارا غاية فى الكثـافـة .. »

ولكننا لم نحفـل بأقواله ، لاننا لم نفهم مـا كان يقصـده بالامور الاخرى ، ولانه كان قد ضاع فلم يعد لاي شيء يقوله أهمية . كانت الاهمية الحقيقية فى تلك اللحظة تكمن فى ذلك الغدر الشامل الكبير . وكان هـذا شـيئاً غاية فى الغرابـة . ثالوثاً من الدهشـة والانقباض والالم . وفجـأة ، بحثنا عن الملاذ .. الملاذ الذي كان قد تلاشى مـع صرخات الترحيب الاولى بسانت كلوز .. وعن العـالم الذي اختفى ، والقصر والزهور وزرافات الزوار التي تلحـق بالمتعـة فى جنبات ذلك

القصر وبين زهوره المتعددة الاصناف • وكان حافز ملحاح يحثنا على الاسراع الى هناك ، احتماء من الغدر الشامل والخوف العظيم • فى أحضان الحنان والنفوذ • وكانت فكرة ساذجة الحقد ولجوجة تتردد فى أذهاننا ونحن نقطع الاميال الثلاثة الى حيث الملاذ •• « لا بد أن نشكوه الى الوالد • واذاك ستعود الامور الى نصابها • ان والدنا سيعرف كيف ينتقم من هذا الغدر •• وسانت كلوز سيطرد بعيدا كما طرد معلم الرياضة الذي لم يراع حرمة عالمنا ، ذات يوم •• »

وعلى أعتاب القصر انفجر الالم • وكانت هذه ، المرة الاولى التي نحمل فيها الدموع بدل الهدايا الثمينة • بيد أن الوجوم مكث يطبع الاشياء كلها • وثمة صمت مفتعل يختم على الالسنة ويشلها داخل الافواه • وفى الغرفة الكبيرة كان الوالد منطو على نفسه ، ما عتم فى ثياب النوم ، وعلى وجهه شعيرات شائكة لم تمسها شفرة الحلاقة منذ أيام• « لا بد من أن تبادره بالقصة••» وكان الالم يطفح من خلال العبرات • ارتميت عليه وتقيأت فى أحضانه حكاية الغدر السمج الذي أصابنا بالغثيان • « انه سينهض لا محالة فيحلق ذقنه ، ويرتدي ملابسه ، ويمضي كي يستقيم كل شيء من جديد •• » على أن الصمت ظل يعاند • وكان يخنق الرغبة الصغيرة الملحاحة داخل الصدر • وتململ الاب فى ضيق ولم يفعل شيئاً • وصرخت فى لوعة وعتاب :

ـ « أبي تكلم • لماذا يحدث ذلك ؟ ! •• لماذا يحدث ؟ ! •• »

وعندما استبد الصمت، نظرت الى وجهه فركبني الذعر• بحثت عن الحنان وعن الامان • وكان الملجأ يبدو قريباً وفى متناول اليده وتسلقت أطرافه واحتضنته بقوة • وكان الوجه الناعم الصغير يحتك فى وجهه • لسعتني الشعور الشائكة فى ذقنه ، ولكن هذا بدا لذيذا

ومخففاً عن المتاعب • ثم ، على حين غرة سقطت على الوجه قطرة ندية وشديدة البرودة • واقشعر البدن فجأة فارتددت على الاعقاب وحملقت فى وجهه •• وكان الذعر يستبد ويصبح هو الآخر شاملا كغدر سانت كلوز •

ـ « أبي •• أنت تبكي ؟ ! •• أنت تبكي ؟ ! •• »

وتلكأ طويلا • ثم أخيرا جاء صوته ، وكان مخنوقاً •• متعباً •• متحاملا على نفسه •

ـ « كلا • لماذا يخيل اليك ذلك ؟ ! •• انني سأفعل كل شيء •• من أجل أن ينال الشيخ « اللعين » ما يستحقه • »

امتدت أناملي الى حيث القطرة الندية الباردة وحاولت أن تشربها• وكانت الحقيقة واضحة رغم انكاره • وصرخت منتحباً :

ـ « لماذا تخدعني ؟ ! •• انك تبكي •• ان ثمة اموراً تحدث• وأنتم تخفون عنا هذه الامور • اننا نريد أن نعرف الحقيقة •• لم نعد صغاراً كما تعتقد •• لم نعد صغاراً كما تعتقد ! • »

وكان الامل فى استجابتهم الى هذه الرغبة معدوماً • تلمست الطريق الى غرفتي ضمن أعراض العالم كله • وكان الالم طاغياً والفضول يستحيل الى حيوان من القوارض • وأحسست بوخز أسنان هذا الحيوان وهي تعمل بهمة فى الداخل • وكنت الان فى الحجرة •• وكان الباب ورائي موصدا •• وكنت اريد أشياء كثيرة ، وهذه الاشياء كانت تريد بدورها أشياء اخرى • « اننا لم نعد صغارا •» حاولت أن اومن بهذا • وكان هذا يعني أننا سنتحرر من قبضة العالم الصغير الذي يعصف بداخله العبث والاحاسيس العميقة ، ونصبح رجالا • ولم يعد يهم أن نطرد من ذلك العالم الزاهر الذي تفعمه السعادة أكثر مما يداخله الشقاء • وكانت لحظة من تلك اللحظات التعسة الطارئة •• كبيرة الشبه بما مر على آدم حين خطت

أقدامه الخطوة الاولى الى خارج الجنة التي طرد منها . وفكرت .. « أن يعرف الانسان الحقيقة فى هذه الدنيا التي لعنها الله ، خير الف مرة من أن يظل داخل الجنة سادرا فى الغفلة مكتنفاً من جميع جوانبه بالغموض . » ومضى الفضول يقرض النفس بأسنانه الحديدية دون هوادة . ومض الالم حتى تصككت الاسنان . وكنت أتلمس فى العتمة ، الطريق الى الحقيقة التي أصروا على أن تبقى وراء الجدار . « لم تعد صغيرا ولم تعد بحاجة الى استفسارات . ان عليك أن تحل بنفسك الرموز وتجيب على تساؤلاتك الكثيرة . » سانت كلوز .. الغدر الشامل .. الالم .. الوجوم الذي سيطر فجأة على القصر الكبير .. وأخيرا تلك الدمعة التي سقطت من عيون الوالد .. أجل الوالد الذي يستجيب له الناس بلا جدال .

كان العقل الصغير ينقب وراء ذلك كله . بيد أن الوصول الى القمر ، كان يجب أن يتم خطوة بعد خطوة . وكانت رغم ذلك بعض الحقائق المرئية مما يقف فى الطريق على شكل اشارات هادية وموجهة. فكرت فى أسباب عكوف الوالد على البيت منذ شهر من الزمان .. فى اهماله لمظهره .. فى تركه الشعور على ذقنه تمضي فى نموها وتصبح شائكة . قيل أنه كان يشعر بالتعب فاقتطع لنفسه فترة من الاستجمام كان يجب أن يمضيها بعيدا عن الشركة التي تغص بأدوات السيارات . وكانت هذه الذريعة تبدو مقنعة وغير باعثة على القلق . الآن جاءت اللحظة التي تدس أنفها وتنفذ الى الاعماق . وظلت الذريعة مقنعة لولا أن حدثاً غامضاً وقع قبل أيام . ساعتها وقفت سيارة شحن كبيرة أمام سور القصر وانزلت منها أدوات غيار شبيهة بتلك التي تغص بها الشركة الكبيرة . ونقلت تلك الادوات الى الجراج فطغت علينا نحن الصغار الفرحة . لقد كان البيت يضم اليه ممتلكات جديدة وكان هذا مدعاة للبهجة . ولكن

الكبـار مكثوا واجمـين • فكرت وأنا داخـل الحجرة انقب عـن الحقائق •• « لماذا يدس الوجوم أنفه حـين يجب أن يفعـل البشـر ذلك ؟ ! •• » وكان سر مبهم ورهيب ينفتل كالجبـل الغليظ ويحيط بعنقي الصغير بينما تنعقد الشكوك فتضحى انشوطة تتحكم ثم تضيق عـلي الخنـاق •

منـذ ذلك الحـين أخـذت أحداث غريبـة تتلاحـق بسـرعة متناهية • فقـد طالت فترة اسـتجمام الوالد وعكوفـه على البيت• وتصدأت أكوام الغبـار المركومة فى الجراج ثم بيعت قطعة اثر قطعة وبأثمان بخسـة • أما الشركـة الكبيرة فقد الغي ذكرها من سـياق الاحاديث ولم نعـد نسـمع عنهـا شـيئاً • وانضم الى زرافـات العائدين من الاصدقـاء والاقارب فئـة غريبـة من النـاس ، كانت تتجول بين الغرف ثم يدور بينها وبـين الكبار حديثـاً مقتصرا على الارقام • وجاء يوم رهيب جـعل الغدر الذي لحق بنـا منـذ فترة أكثر شـمولا • ففجأة كان أنف الوالد ينفجر بالدم • وظـل النزف مسـتمرا حتى تمكن الاطبـاء من ايقافه بعـد سـاعات طويـلة • وبعـد أيام عـاد الانف ينزف • وتكررت عيادة الاطبـاء • وطغت زياراتهم وزيارات الفئـة الغريبـة التي تطوف بين الحجر والمرافق، على زيارات الاصدقاء • وأخيرا ، وبعد سـنوات قليلة قضى والدي متأثرا بالمرض • وكان سـانت كلـوز قد مات قبـله بحقبة طويلة، بيـد أن مصرع الوالد مسـح كل الآثار المتخلفـة عن ذلك العـالم الغريب الذي احتـوانا فى أحضانه ردحـاً من الطفولة • لقـد كان العبث الصبياني قد انتهى تمامـاً • ومنـذ أن انتهى ، بدأ عبث ، من نوع آخر ، حقيقي وصميم ، يمتـد الى أبعـاد شـاسـعة ليشـغل الفراغ ويمـلأه حتى الحـيز الاخـير ••••••

الإيمـــان

أيفعـل .... ؟ !

هـذا الاصرار المتعنت الرابض فى عقـله ، المخيم على قلبـه ، ما انفك كحجر الرحى لا يتزحزح .. ومن يريـد له أن يتزحزح ؟ ! .. ان تزحزح فالويل له .. الويل لايمانه ، فهل يعني ذلك الا أن ايمانـه بذات الله سـيتزحزح ؟ ! ...

ولكن ، ماذا لو رفع من رأسه المطأطيء ، قدر شعرة ونظر اليها ؟!.

أحس اثر طرح هـذا السؤال على نفسه كأنمـا يغطس فى أغوار بحر من الرعب .. كلا .. فهـذا الرأس المدلى بين ذراعيـه ، وهذه اللحية الكثـة الناشـرة على صدره كالشـراع ، لو انتصبا ، فخـير لـه أن يقطعهمـا معـاً ! ..

ان الصوت ، هـذا اللعـين ، هـذا الشـيطان ، مـا انفك يهزه هزاً ويحاول اسقاطه فى الشـرك . وهي تلقيه عليه فتصب فى أحشائه نارا تحرقه ، ولكنـه لا يريد أن يحترق .. لا يريد !

ـ « أحبـك ! .. أحبـك يا سـيدي ! ، وجبـار لـن يعـود قبـل سـاعـة ! .. »

« مـاذا تقصـد هـذه المـرأة التي حـرم على عينيـه حتى أن تـرى وجههـا ؟ ! .. »

ـ « فاطمـة ! ... اتقي الله يـا امرأة ! .. »

ارتعـش صوته الزاجر وأخذته رجفـة ، وأراد أن يقول شـيئاً آخـر ، ألا ان لسـانه شـل عن الكـلام فجـأة . وابتـلع ريقـه بصعوبة بالغـة وكأنما القم حجـرا ...

هـو .. أجل ، من كان يتصور أنه هو رجل الدين المعصوم يبتلى فى أحـد الايام بمثل هـذا الصراع الظالم مع الشيطان ؟

وصم عنهـا أذنيـه ، ولكن لا فائدة .. هـذه المرأة مـا عتمت تثرثر لتودي بـه الى أكثر من حضيضه . ولتفتح فى عقـله الثغـرة التي أجهـد طاقاته كلهـا من أجل أن يختم عليها بختم من حديد .

ـ « جبـار ! .. هـذا الظـالم .. ألا تحـس يا سـيدي أن مدينتـه تصيب السـاعة شـيئاً فى قرارتك ؟ .. هـل من التقـوى فى شيء أن يهان المرء ولا ينتقم لكبريائه ؟ .. وهل تصدق أن جبارا قد تركنـا الساعة ليشـتري لنـا طعـاماً ؟ ! .. ألا يمضي جبـار الا لامر جسـيم ؟ ! .. »

وكلامها هذه المرة لا يهزه ، بل ينتزع قلبه من بين جنبيـه ويضعه بـين يديـه مشوياً تفوح منـه رائحـة الصلاء .

وأغمض عينيه وزفر ، فمن مثـله يدرك من نذالة جبار ما يدركه، ومن غيره يعـلم بأن هـذا الرجـل الذي أودعه فى بيتـه أمانة لدى زوجتـه قد مضى الساعة ليلتهم عرضه ثم يعود متخماً يتجشـأ دون أن تأخـذه فى ضحيته رحمـة ، فأنا له أن يفعل بالناس مـا يفعلون بـه ؟ وكيف يتسـاوى الخروف بجزاره ؟ أليـس جبـار هو الجزار الذي يذبح الناس والخراف معـاً ؟ أو لم يصبح هو منـذ أن عرف ذلك (الجبـار) وتعامل معـه ، نعجـة مستضعفة يسـوقها الوغد ضمن ما يسـوق من الاغنام التي يجهزه بها كل يوم ؟ ! .

زفر مرة أخرى فخيل لفاطمـة أن روحـه تكاد تزهق مع زفيره، وتصور بدوره ، وعينـاه مصلوبتان فى حجره ، كأنمـا المرأة ابنـة العشرين الجالسـة أمامه ترمقه بنظرات احتقار واسـتهانة ، فأحس بالاستحياء من نفسـه وهبـط بهـا فى تقديره الى موضع النسـوة وربمـا الى موضـع أدنى منهن قليـلا ... أولم يأتمنك المجرم على حليلته ليقصـد من هي فى عرف الناس حليلتك ، ألا لانـك فى نظره أقل من امرأة ! ؟ وهؤلاء هن النسـوة .. زوجتـه وزوجتك . ألا

ترى كيف يمرغن لحيتك هـذه فى الوحـل ، يصممن على حرقك فى موضعك وعلى أن يتزعزع ايمانك بالله ؟ !

ويالله ! .. كيف أن الاحداث ترغمـه على أن يسـوق قدميـه الى سـبيل الهاوية ، فيتأمل الحكمة العليا التي أوقعته فى التجربة ؟.

ها هو جبار يهوى الآن على زوجتـك كالوحش المتضور وزوجة جبـار ما انفكت تجاهد فى اسـتدراجك الى درب لا مخرج منها ، وأنت تأبى وتقـاوم بكل ما اوتيت من ايمـان وقوة ...

ولكن .. أليس هـذا كله اسـتمرارا للتجربة ؟ ! .. ألم يقذف بك النذل الى الخطيئة ولم يرعوي ؟ ! ..

ولماذا تلج فاطمـة وتصر على فتح هـذه الثغرة فى رأسـك وأنت تحكم سـدها من أجـل التقوى وحدها ؟ ...

التقـوى ....

أراد أن يضحك من نفسـه ومن هـذه الكلمة ، ولكن زاجرا فى أعماقه حول ضحكه الى مرارة ...

وتناهى الى رأسـه سـؤال محير فتأمـله بأسى عميق وهو يئن.

هـل أن ايمانه الذي يصر عليـه لا يداخله شيء من افتراء ؟ ..

وهـل استطاع ـ رغم كل ما حدث ويحدث ـ أن يصون نفسه وتقـواه من أن يتخدشـا ؟ ! ....

وهـل ما فتـأت ذات الله فى أعمـاقه كمـا كانت دائمـاً ومن قبـل أن يلتقي بجبـار ؟ ! ...

آه .....

يا للذين ابتلوه بجبار وبخراف جبـار حتى جعلوه يتشبه بها ! . ويومـاً كان رجلا يعتد بنفسـه وبدينـه وبتقـواه حتى أنـه كان يتمكن من أفكاره ومما يخطر له اليوم من أسـئلة ! ..

وعندما عينته الطائفـة الموسـوية ـ فى هـذه المدينة ـ مشرفاً

دينياً على ذبح الاغنام والبت فى أمر صلاحها شرعاً ، لم يعن له أنه سيواجه يوماً هذه التجربة المروعة التي تتحدى عقله وتضع فى رأسه كل هذه الاسئلة المفزعة ... فيومها أرغمه عمله على التعامل مع جبار ، وجبار الجزار كان يموله بالخراف التي تستهلكها الطائفة فيذبحها ثم يفحصها كمقتضيات الشرع ثم يعيد لجبار ما ثبت تحريمه بعد ذبحه ، فكان هذا يتقبلها على عاتقه حسب اتفاق بينهما ، وبدا أن الامور بينهما تسير سيرا حسناً لولا أن جبار قلب له ظهر المجن فجأة .. وتمرد .

وقال له ذات يوم على سبيل التحذير واعلاناً عن تمرده

ـ « انك تلقي بالذبائح لي وكأن كل بهيمة خلقها الله محرمة !. ولا يهمني ان كان شعبك (المختار) لا يأكل غير الخراف (المختارة) ، فأنا لا افرق بين الخراف جميعاً ! وكثرة ما تقذفني به من اللحوم (غير المختارة) يصيبني بأفحش الغبن ، لان انساناً مثلي يعجز عن تصريف كل هذه اللحوم فى السوق فتظل عبئاً فوق قلبي يبهظني ، ولولا أنك يا معلم يعقوب رجل ورع ودين لرفعت فى وجهك صوتي ، بيد أنني اجلالا للحيتك هذه ـ وأمسك بها برفق ـ فانني ما زلت أتذرع بالصبر الجميل عسى أن ترفق بي يوماً من الايام » .

ولكن هذا التحذير لم يجد فى نفسه وازعاً ، ورغم أنه أوجس شيئاً من خيفة ، فانه رأى أن ابتغاء وجه الله أقوى من كل ما على وجه الارض من جبابرة ، ولهذا السبب ظل يقذف جباراً بكل ما أنس منه ريبة الى أن كان يوم ، فجاءه الاخير وعيناه تقدحان شررا ويده تشهر مدية تقدح هي الاخرى شررا ، وأشار الى الطرف المشحوذ من مديته وهو يتوعد :

ـ « اشهدوا أيها الناس انني قد صبرت على « شيبة الكلب »

هـذا حتى نفـذ صبر العالم كله .. ومن كانت الحسـنى لا تنفعـه فهـذا دواؤه ، واني لاقسم بالله العظيم لاجعلنك ذبيحـة تعافها حتى الكلاب لو عن لك بعد اليوم أن تحرم خروفاً وتلقيه فى عنقي ! »

منذ ذلك اليوم بدأت التجربة تشده الى أعماقها رغماً عنـه ...

ومنـذ ذلك اليـوم أخذ الصراع بـين ايمانه والخطر المطبق على حياتـه يقض مضجعه ...

ومنذ ذلك اليوم تجاذبت اسـتقامته فى دينـه رعدة الموت الكامن له فى مدية جبـار ، وانتصرت عليهـا ..

واذا شرع فى فحص الخراف الذبيحـة تسلل طرفه ناحية جبـار رغمـاً عنه ، فيجد فى طلعته اصرارا على وعيده ، وتصطفق أحشاؤه، ويرتبك عقـله ، ويقر بصلاحية الاغنـام جميعاً بلا اسـتثناء ، حتى اذا عاد الى بيتـه وثاب عقـله اليـه أحـس بألم فى ضميره وبأن ايمانه يحز فى قرارته حزا مبرحاً فيلوذ الى ربه مستغفرا كسير الخاطر.

هكذا بدأ جبـار ينتصر ليدخل هو التجربـة التي تحارب ايمانه وتجاذب دينـه وتحـاول القضاء على تقـواه بعـد أن تحيـله الى مجـرد خـروف .

وكان بعدئذ يرى فى ود جبار ما يراه المرء من مظاهر الاحتفاء بالنصر او عبث الاقوياء بالاشـياء التي لا يحسـبون لتفاهتها حسـابا ، أو محاباة تحمل الف معنى ، فلا يفوتـه ، ان وراء كل هـذا تكمن لـه دائمـاً مدية مسـلولة قد تصيب فيـه مقتلا فى أية لحظـة وربمـا بشـهرها جبار بوجهـه لسـبب تافه أو حتى لغير سـبب .

بيـد أن جبـاراً لم يزل يتقرب اليـه : وكان يبكر قبـل طلوع الشمس فيطرق عليه بابه لينبهه ، ولكي يسـيرا الى المسـلخ معـاً، تستـقبله فى الباب زوجته وهي امرأة فى الثالثة والثلاثين لا تخـلو من مسـحة جمـال ، ويتبادلان كلمـات قليـلة ثم يفرغ هـو من

صلاتـه ، فيرتدي جلبـابه وجبتـه ويخرجان .

وتكرر هـذا حتى قال له جبار ذات صبـاح

ـ « ان لـك يا معـلم يعقـوب امـرأة لا كالنسـاء ، جميـلة وطيبـة القلب ومسـتورة مثـلك . »

فوخزه قلبـه ، وخطرت له خواطر مزعجـة ، وألقى الى السماء بنظرة مسـتنجدة ، ولما عاد الى منزله أفضى بمخاوفه لزوجتـه وحظر عليهـا أن تسـتقبل جبارا بعد اليـوم .

ومرت بضعة أيـام وكان خلالها لا ينفك يسـترق النظر من يـد جبـار خوفاً من أن تباغته فتغرز فى ظهره سـكيناً ، وسـأله الرجل عن سر اختفاء زوجتـه ، فاضطر الى الكذب ، وقال : انهـا مريضة ، فهز جبـار رأسـه وند عنه صوت كالعـواء .

وقـال لـه فى اليـوم التـالي :

ـ « يا معـلم يعقوب .. لقـد مضى على تعارفنـا زمن طويـل وأود لـو (تمالحنـا) هـذا المسـاء فى بيتي فتصنع لي معروفـاً لـن أنسـاه لك ما عشـت ! »

واعتـذر بحيـاء ، ولكن الآخر أرعد وصرخ مغضبا

ـ « أوترفض لي طلبـاً كهـذا وأنت تعـلم بأنني لم أشرف على أهـلي ومنزلي مخـلوقاً غـيرك ؟ . »

وقرأ فى ملامحه أطيـاف الموت وكأنها تحذره ، فاستسلم ، وحلت بداخـله النعجة الوضيعة فى محل الرجل ، وسـار الى بيت الجزار وهو ضائع فى أفكاره وبين ما يضمره له هـذا الظالم من شرور .

ولاول مرة سـمع صوت فاطمـة من دون أن يرفـع عينيـه الى وجهها ـ ولعلها كانت محجبة ـ واضطر أن يبادلها وطرفه فى الارض حديثـاً قصيرا لم يخرج عن نطـاق الدين .. واسـتوضحته أمورا تتعلق بالذبح على الطريقـة اليهودية وامتدحتها ، فود لو لم تقل لـه

شيئاً على الاطلاق ! .....

وخرج جبار الى السوق ليشترى له طعاماً ، فتساءل « ألا توجد فى هذا البيت بيضتان وقد قال له جبار انه لولا اقلاعه عن طعامهم لوضع أمامه خروفاً محشوا بالرز ؟ ! »

وظل جالسا حذو فاطمة وهو صامت مغض ....

وظل قلبه يردد ما يحفظه من مزامير ...

وطال غياب جبار فاستولت عليه وساوس قاسية سيما وأن بيت جبار لا يبعد عن السوق كثيرا ! ... وركبته الشكوك فلم يدر ما يفعله .. وأحس ضياعاً لم يحسه من قبل ، فطار قلبه الى الله وخفف عنه قليلا ، بيد أن شعور الضياع الذي لم يذقه من قبل شغله رويدا فتأمله وهو جازع ، ثم أيقن أن الله قد امتحنه بموقف عسير ليكفر به عن سيئة ارتكبها فى يوم ما سهوا ... ولم يخطر له أنه فى كل يوم يحلل ما كان يجب أن يحرمه، خوفاً من مدية جبار .

ولم يكن يعلم أن بيته هو الذي أمسى منذ الآن جحيما ...

ففي تلك الليلة عن له الاختلاء بزوجته ، فوجد منها صدودا عجيباً . ورمقها بنظرة دهش مستفسرة ، فاذا هي تطرق فى حياء، ورأى فى طلعتها شحوباً لم يعهده ، وفى عينيها شيئاً أشبه ما يكون بالجريمة . ولم يدر لماذا انتصب جبار أمام مخيلته كالبعبع وراح فى تلك اللحظة يشحذ سكينه فى همة والحاح ! .. وأحس بالاختناق ، وحاول أن يبتلع ريقه فغص فى صدره شيء كالحجارة ، وسأل زوجته بصوت مبحوح :

ـ « جبار ؟ ! .... »

فحدجته بنظرة فيها تهكم وغمغمت

ـ « ان جبارا رجل ، وأنت دجاجة ! »

فدار رأسه ورأى جدار الغرفة وكأنه ينحرف عن موضعه ويشرف على السقوط

ـ « وهل طاوعته ؟ ! .... »

فقامت من مكانها ووقفت أمامه فى استعلاء وقالت :

ـ « الذي لا يطاوع جبارا يقتل ... وكلانا معرض للموت على يديه ، وقد أنقذت نفسي وأنقذتك ! »

وتداعى فى مكانه ... وتقلص وجهه فى ألم ... وشدت يداه على لحيته وتنفتها بقوة ... وذرفت عيناه دموعاً صامتة ... وارتفع رأسه الى أعلى ، الى السماء ، وتاه فى مناجاة الله ، وكيانه يقطر عذابا .

وعندما ثاب الى واقعه وجد كل ما حوله فى سواد الليل ...

ولقد حرمت عليه زوجته ، بل لم يعد له شيئاً اسمه زوجة . ولو طلقها فسيموت لا محالة .. فكيف يترك له جبار أن يعلم بالامر ولا يقتله ؟ ! ... والناس ... أجل الناس .... ماذا سيقولون عنه لو طلقها ؟ وهل يطلق ورع مثله زوجة له الا لفضيحة جسيمة ؟ ...

تمتم وهو يمسح بلل الدموع عن وجهه وعينيه

ـ « فليبق الذي حدث اليوم طي الكتمان ، فلا يعلم جبار شيئاً ، ولا يكتشف الناس أن بيتي قد تهدم . »

* * * * *

وفاطمة الآن ما انفكت تستدرجه ...

والثغرة التي فى رأسه ، التي حاول أن يبني عليها سدا كي لا يضعف ايمانه ولكي لا ينحدر الى أكثر مما انحدر اليه ، هذه

الثغرة قد فتحت ولم يقو عليها ، ومنها تنبعث هذه الريح الكريهة الصادرة عن قاذورات رأسه الذي ما عتم يتدلى بين ذراعيه وهو ينذره بالقطع لو انتصب ...

هذا رغم المرة العشرين التي يجلس بها حذو فاطمة ...

ورغم المرة العشرين التي يمضي بها جبار الى بيته ويلتهم عرضه..

وفاطمة لا تتركه وتقول له انتقم ! ....

ونتن الريح المترامي من ثغرة رأسه المحشو بالقذارة تخنقه وتقول له انتقم ! ....

وما يخيل له من رسوخ الايمان يسخر منه ويقول له انتقم !...

وأين أنت من هذا الايمان ، وذلك القصاب أقوى من ايمانك ؟!

وأنت تطعم أبناء جلدتك اللحوم المحرمة ، لان جبار أقوى من ايمانك !

وفاطمة تستدرجك ، فيخيل لك أن صوتها شيطان يريد أن يحرقك وكأنك بعد لم تحترق !

وما أنت الا أقل من امرأة لو لم تنظر الآن الى فاطمة ، وجبار فى بيتك يفعل به ما يشاء ...

وتراكمت عليه أفكار مسمومة انتزعت منه مشاعر الضياع التي جابهها للمرة الاولى ، هنا فى منزل جبار وحذو فاطمة التي ما عتمت تراوده كلما جلس على هذا الكرسي ، وأراد أن يعلم ان كانت ذاته لم تنتزع منه مع تلك المشاعر المرعبة، فلم يعلم شيئاً سوى أن رأسه انتصب من دون أن يصيبه ضرر ، وأن عينيه قد تسمرتا فى شيء أذهله ، فمكث على كرسيه مأخوذا مشدوه الانفاس ...

ولم يحترق ...

وانما أصابه ما يصيب المحروق عندما يغطس فى ماء بارد !..

ورأى أمامه من أوصاف الجنة التي قرأ عنها كثيرا ...

انها فاطمة ! ...

بهره جمالها ، فقد كان أقوى من ايمانه ومن جبار معاً ...

ونسى بعض نفسه ، فلم يفطن الى أن فاطمة تجلس أمامه عارية كما خلقها الله ...

ونسي نفسه كلها فقام من مكانه ، ونزع عنه جبته ... ثم رداءه ... ثم سرواله ... ثم ...

وطرق الباب طرقاً عنيفاً ، فند من تحته صرخة فزع أجفلته

ـ « سيدي ! .. ما العمل يا سيدي ؟ ! .. لا ريب أن جبارا قد عاد وسوف يقتلنا معاً ! »

ولم يدر ماذا يصنع ... ولكنه عاد الى نفسه فرأى سكين الجزار مسلطة على عنقه من وراء الباب المغلق ...

أيقن أنه لن ينجو هذه المرة ، فاجتاحت بدنه العاري قشعريرة باردة ، ونبش فى حطام عقله المهدوم عن شيء يتشبث به بلا جدوى .

وفجأة .... تذكر الله ....

اعتصر خلاصة كيانه محاولا أن يقذف بها الى السماء، مستغيثاً ، ولكن ايمانه كان ضعيفاً .. ضعيفاً ... وما لبث أن تلاشى مع وعيه ... رويدا ... رويدا .

امرأة في الطريق

بدا الطريق المكتظ أمامه بالخلق ، وكأنه حلقة مفرغة لا تؤدي الى نتيجة • وتراقصت وجوه الناس فى عينيه ، فلاحت كأشباح من لهب تنفثها شمعة محتضرة الانفاس ، شاحبة ، ما أن تنطبع صورتها المتماوجة ، فى المخيلة ، حتى تذوي •

كان ماضياً فى سبيله ، ولكن الى أين ؟ ! ••• تساءل ، بيد أن السؤال الحائر ، ظل قابضاً على أنفاسه دونما رد • لقد كان ما عتم يجهل وجهته جهلا مطلقاً • على أنه أدرك أن سوءاً يتربص به ويكاد يفغر فاه كي يقتنصه ثم يواريه فى هوته العميقة • وكانت الاشياء بأسرها تدفعه الى ذلك السبيل • فالحياة فى نظره أمست كالحة ، ولم يعد فى الوجود ما يستحق البقاء من أجله • وفكر •• « أجل •• لقد فات القطار ، فات •• وثمة شيء أقرب من اللحاق به •• الموت •• الانتحار ! •• »

فجأة ، تحركت داخل رأسه صورة ما ، فخفق قلبه عالياً • وقدح فى داخله زناد فأضاء نفسه ثم خبا من جديد • وكانت الصورة صورتها • وكانت كالجنة التي يحلم بها المرء بلا فائدة • أحس على حين غرة بأنه ينقب فى الظلام عن خيط من نور • وثمة امنية ملحاحة تجسدت فى رأسه واستحالت الى مطارق ومضت تضرب جبينه بعنف ووحشية •• « آه لو تعود •• آه لو تظهر •• لو تعود •• لو تظهر •• لو تعود •• لو تعود •• »

وأحس بالدوار ، فأمسك عن السير ، وأغمض عينيه فينة قصيرة • وعندما فتحها من جديد ، اكتشف أن نظراته تستحيل الى فراشة ، فتفر من محجريه ، وتنطلق بعيداً الى وجوه المارة ، فتحوم حول تلك الوجوه تباعاً • تدور حولها فى لهفة مجنونة مرتبكة ، ثم تغادرها ذاوية الجناحين ، ملهوفة ، كأن تلك الوجوه هي النار الغاوية التي تذرف عندها أنفاسها الاخيرة ولا تتركها ، الا وهي جثة

هامدة • وعاد فانكمش على ذاته • ومن خلال الدوار واليأس والتعب ، أفلتت من بين جنبيه أنة كاوية ، وفكر •• « لا فائدة • لقد انتهى كل شيء ، وانتهيت معه • » غير أن جانباً قصياً من نفسه أبى الا أن يئوب به الى البداية قبل أن تلتهمه هذه النهاية القاتمة التي تصر على بقائها وتنتشر حول وجوده كالليل الاسود، ولا تريد أن تنزاح عنه لحظة واحدة • أجل •• وكان يفكر بتلك البداية وهو شبه ضائع فى تيار الحياة ، مغمور بين اللجج •• « لقد كانت تلك ، بداية جميلة • فقد كان ثمة حب وأحلام •• كما كانت هي ذاتها •• زوجتي الحبيبة • » وساءل نفسه بينما كان أحد السابلة يصطدم بكتفه ويخلفه وراءه مشدوهاً •• « تقول زوجتك الحبيبة ؟ ! •• » ولكنه ما لبث أن عدل عن سخريته من نفسه وهو يرد عليها •• « ولم لا ؟ ! ••• ألم تكن فى أحد الايام زوجتك بالفعل ؟ ! ••• »

امتدت يده الى وجهه وتحسست عينيه • كان واثقاً من أن الدموع تخونه وتجري على وجنتيه كالنبع المتدفق • وخشي من أن تلفت هذه الدموع ، الناس اليه ، غير أن يديه لم تعثرا على شيء من الدموع • لم يكن ثمة قطرة واحدة فى مآقيه • أدرك أن بكاءه كان من النوع الخفي الذي يسيل داخل النفس من دون أن يبلل المآقي • واكتشف أن قرارته قد أخذت تنتحب ثم تعول ، فركبه الذعر ، ومضى يعدو من جديد على غير هدى •• ولا هدف •

الى أين ؟ ! ••• لاحقه السؤال فى عدوه وتلبس به كبذلته • ولم يكن يرى شيئاً • مسلوخاً تماماً عن زحام الطريق وعن كل ما يضع للحاضر ملامحه • وكان منكمشاً داخل ذاته • منطوياً على شيء لا يعلمه • واعتورته دهشة غامضة وهو يجابه الرد على سؤاله اللاصق بظله • انه لم يكن يمضي الى الامام •• لم يكن

يقطع طريقاً • كانت الحقيقة مغايرة للبديهة التي أدركها فيما مضى • فقد كان الآن يسير عبر الزمن فى اتجاه مضاد •• الى الوراء • وفى زحمة الشارع المكتظ أمامه بالخلق ، كان يعود على أعقابه حتى يقف على حافة معينة من الزمن • وعلى تلك الحافة القائمة عبر خمسة أعوام غابرة من حياته ، كان الآن يجنح كالسفينة البائسة وينغرز فى الوحل •

ووجد أنه لا يستطيع فكاكاً من ذلك الشرك الذي احكم من اطباق الحبل على عنقه • لقد عاد الى هناك رغم أنفه • كان يدرك أن الايغال فى استعادة ذكرياتها لن يسدي اليه بخدمة ، وانما يعاضده على اسدال الستار على نفسه ، ويقربه من نهايته المحتومة الكالحة بخطى حثيثة وعملاقة • وانتزع بدنه من بين الكتل الآدمية المتلاحمة وفكر وهو يلهث •• « ان أفكاري الآثمة تفعل بي هذه المقالب دائماً ولا تنفك تلقي بي الى أشداق الورطة ! •• » ولكنه ما لبث أن استدرك •• « ان ذلك لم يعد شيئاً يحفل به • فكل ما تبقى ، هو اما أن تقول ، أو أن أموت • »

وكان كل شيء قد بدأ عند تلك الحافة من الزمن المنصرم التي جنح عليها كالسفينة السيئة الطالع • تماماً قبل خمسة أعوام • وكان كلما شاهدها ، يرفع عن كاهله طبقة كثيفة من قمامة الحياة المتراكمة مع اندفاع العمر الى غايته المسكينة • وكان يحس بخلجة رقيقة تداعب كيانه وتجعله ينتعش • « وكان يخيل الي كلما رأيتها، أنها كالحمامة البيضاء التي تبحث لها عن برج أمين فى بيتي •» كما شبهها بالهرة الصغيرة التي يختلف مواؤها عن مواء باقي الهرر • فقد كان فى نبراتها شيء مجهول ، ظل يشجيه ويلهب مشاعره ، ويهز فى نفسه وتراً لم يدرك كنهه ، حتى تزوجها ••

وكانت قبل أن يتزوجها ، تعمل ممرضة في مستشفي « بلنسون »

الذي كانت جدرانه مـا عتمت تفوح برائحـة البناء الطريـة • وكان هو يشـكو من أعراض مرض غريب • وكان يرقـد فى الجناح الذي تعمل فيه ، والاطبـاء يبحثون فى أرجاء جسده ، محاولين اكتشـاف مرض جديد لم يعثروا عليـه فى النهاية • وفى غمرة هـذه الذكريات الكاسـحة ، وجد الفرصة لان يعاتب جسده الذي خيب ظن الاطباء فى تلك الايام الغابرة •• « أما أنا فقد ارتحت الى النتيجة فى حينـه، لان الحيـاة منذ أن شـاهدتها أصبحت كالشيء الذي ينبغي الحفاظ عليـه •• » وانتفضت أنفاسـه وأحـس بارتعاشـة تهـدم بدنـه كـله •• « لقد كان يجب أن تكون النهاية يومئذ • فهـذه السنوات الخمـس لم تغير من النتيجة شـيئاً • أما المقدمات فتبدو فى هـذه الساعة فظيعـة كالجحيم • » وتسـاءل وهو منسـاق مع سـاقيـه فى عدوهمـا الجنوني بلا هدف •• « وما فائدة الحيـاة ، اذا كانت دائماً تنتهي هـذه النهاية المزرية ؟ ! •• » على أنه يومئذ كان شخصاً آخر • ولا يستطيع الآن أن يجزم ما اذا كان كذلك بحكم طبيعته ، أم « أنهـا » هي التي صبغت يومهـا الاشـياء بلون وردي ، كي يرى بدوره الحيـاة ، كالكنز الثمين ، فيتشبث بهـا بملء طاقته ، ويتعلق بأهدابها الى ما لا نهاية • على أن مرضه الموهوم حينئذ ، ذلك الذي حدا بـه الى دخـول المسـتشفى ، كان قـد قدم لـه من الخدمات أجلهـا • ففضلا عن أنـه كان أول سـبب فى لقائهما ، فقد كفاه فى الوقت ذاتـه ، تجشـم العنـاء فى الركون الى الخاطبات • « كنت بحاجة الى زوجـة • وكانت هي مثال تلك الزوجـة • لقـد قامت الصدف مقـام الخاطبـة • فمـا أن أشـار الاطبـاء علي بوجوب مغادرة المستشفى ، حتى كانت علاقتي بهـا تتوطد الى حـد انتهـى بنـا الـى الـزواج •• »

وشـهق وهو بعـد مزروعاً على ذلك السـاحل الطيني اللزج من

ماضيه • لقد كان كل شيء هنالك فوضوياً ومرتبكاً ومذكراً بهذه الساعة من الضياع المطلق • كانت يومها الصرائف ما انفكت تقوم فى مقام البيوت • واذاك ، وعندما كان رجل وامرأة من القادمين الجدد يبنيان حياة زوجية ، فان مطامحهما لم تكن تغرر بهما الى حد يحلمان معه بعش مبني من الجص والحجر • لقد كانت هذه المطامح متواضعة كالحقيقة • وكانت الاحلام تتوقف عند صريفة جديدة تقوم بين الصرائف المتآكلة ، لينصهر العريسان تحت سقيفتها وينجبا أطفالا • وبمرارة قاتلة تذكر •• « أما أنا : فلم أكن أملك حتى صريفة متآكلة • كنت متشرداً • ومنذ أن وصلت الى هناك ، كنت أفني العمر متجولا بين المعابر •• بلا بيت•• ولا مأوى • » بيد أن طالعه كان قد عدل عن تجهمه منذ أن التقى بها• لقد كانت تعيش بصحبة امها فى « المعبرة » وكانتا تمتلكان صريفة • وعندما زارهما فى المرة الاولى ، أحس بتشتت الضياع والاستقرار • وخلبته تلك « التخشيبة » على ما بها من حقارة، فخيل اليه أن الجدران التي تضمه ، ليست من الخشب الذي أنهكت العواصف والامطار قواه ، على سنين متعاقبة ، وانما هي جدران ثابتة ، راسخة ، كبيرة الشبه بجدران القصور الشامخة، التي ما أن يتوارى المرء فى أحشائها ، حتى يهجس بالامان والطمأنينة• وبالطبع كان شعوره فى محله • فبعد أن تزوجا ، بدت على محيا طالعه الذي كف عن التجهم ، بسمة عريضة • كانت الحمامة تهدل الآن فى برجها الامين ••• « أما أنا فقد أصبحت المالك لكل شيء • حتى للصريفة الصغيرة المتداعية • »

عندئذ بدأت مرحلة الحب والسعادة • ولمعت فى خاطره المحروق كل السمات الرائعة التي اكتنفت تلك المرحلة • وكان الان يعيشها بكل طاقته • لقد كانت طاغية كهذا البحر الزاخر من

البشر المتدفق من حوله • وفى غمرة ذلك الطغيان ، أوشك الشخص الثالث الذي يحيا بينهما أن يتوارى ويضحى نسياً منسياً • وتناهت أمامه فجأة ، بطلعتها الدميمة البشعة •• امها ! • ولعنها الف لعنة وهو يتمتم لنفسه •• « لقد كانت هي السبب فى نزول الكارثة •» ورغم ذلك ، ففي تلك المرحلة من السعادة لم تكن شيئاً مهما أبداء وكانت كالرداء الخلق المنبوذ فى زاوية ، الذي لا يثير مرآه فى النفس انطباعاً ذا بال • بيد أنها فى الوقت ذاته كانت تداهمه فى بعض الاحيان • وكانت مداهمتها له تكمن فى أنها كثيراً ما كانت تحشر أنفها فى قلب أحلامه المعسولة •• « فكنت أمتعض كمن يستفيق من نوم عميق بعد أن لدغته فى وجهه بعوضة لعينة • »

برحه رأسه وهو يشق الزحام ويخطو خطوته التالية فى الشارع الطويل • وضغطت راحته على جبينه ولكن دون جدوى• انه ما برح مبتلعاً فى جوف ذلك الغور العميق المسمى بماضيه • على أن خطوته الحائرة تلك ، زحزحته عن موقعه من الاحداث ، ودفعت به عاماً كاملا فى اتجاه لحظته • « وأنجبنا طفلا ، ولم تعد الصريفة البائسة تتسع لأربعة أشخاص • » توقفت خواطره عند هذه الفكرة متمهلة قليلا • أراد فجأة أن يدرك لماذا ساوره الاحساس يومئذ ، وعلى حين فجأة ، بأن أركان الكوخ الصغير تكاد تطبق على أنفاسه وتخنقه ؟ ! •• كلا •• « لم يكن ذلك يرجع الى صراخ طفلنا الحبيب •• فكم كنت أتمنى لو تفعم تلك الصريفة الضيقة عشر من هذه الفلذات المعبودة ، فتقلب العالم بالضجيج والصخب • أما السبب الحقيقي فقد كان يتقمص تلك العجوز الحيزبون •• امها • » عاد فانقض على شبحها اللعين المترامي فى رحاب مخيلته • حاول أن يقضي على ذلك الشبح ، ولكن هذه المحاولة باءت بالفشل • « انك تحطم رأسك وتزيد من متاعبه•

أما اللعينة فلا ريب فى أنها ما زالت على قيد الحياة تعاضدها على صنع الملابسات واقتناص الضحايا .. من أمثالك . » أجل . كان مبعث اختناقه يومذاك يتقمص هذه المرأة ويمتزج فى كيانها. انه الان لا يكتشف شيئاً جديداً . فحينئذ أيضاً ، كان يعلم أن هذه المرأة هي التي تخنق الصريفة بمن فيها .. وانها تعادل ثلاثة أرباع هذا الزحام الذي يغمره الان ويغطيه .

لماذا ؟ ! .. لماذا تعيش معنا هذه المرأة الغريبة ؟ ! ..

قبل أربعة أعوام ، ومنذ اكتشف الحقيقة الظالمة ، أخذ هذا السؤال يتناهى اليه من عقله ويضايقه . لقد كان يستحيل رويداً رويدا الى شخص ثقيل الظل ، مثلها تماماً . وكان هو يحاول الحاقه بصورة ذلك الثوب الرث الذي كان فى يوم ما لا يملك القدرة على اثارة الاعصاب . بيد أن الاحداث تلاحقت بسرعة مدوخة وفى عمدية خبيثة حتى أخرجته عن صوابه . وردد فى أعماقه وهو يقضم ذاته كفأر متضور .. « أجل .. تلك الليلة المشئومة، والكابوس ، والمرأة اللعينة .. مرادفات ثلاث كانت تعني شيئاً واحداً .. كارثتك .. نهايتك المحتومة . »

فى تلك الليلة استيقظ مذعوراً اثر كابوس مروع . وكان الظلام دامساً . وكان العالم فى حالة هجوع شاملة . وأرهف السمع وهو يرتجف، فترامى اليه شخيرحاد مصدره الجيران. طغى ذلك الشخير على حفيف الانفاس الحبيبة القريبة من مهجعه . ولكنه دهش حين لم يسمع شيئاً قادماً من جهتها بالذات . لقد كانت فى العادة تغط غطيطاً أشبه ما يكون بزئير الاسود ، مزعجاً ومثيراً للرهبة . وفجأة ، قطع على دهشته دوي فرقعة صدرت عن تلك الناحية . وازداد جفولا وغرز عينيه فى قلب الدجنة . وعلى حين غرة تسمر فى مكانه فاقد الصواب . كانت العجوز جالسة على سريرها ، وكانت

عينـاها مبحلقتين ، تبرقـان كعيني وحـش مفترس فى الظلمـة ..
« وبكـل لؤم وصفاقة كانت تحـدجنا بنظراتها الثاقبـة .. وجـن جنوني .. » . اصطكت أسـنانه كمـا اصطكت فى تلـك الليـلة المشئومة . لقـد كان على وشـك أن يقفز من سريره فينـدفع اليها ويخمـد نظراتها السـمجة ، غير أنه سرعان مـا تداعى على فراشـه خائر القوى . وبعدها لم يفلح فى اغتصاب النوم مرة اخرى . وعندما بزغت شمس الصباح ، كان قد عزم على أمر . وطحنـه الحوار الذي دار بينـه وبـين زوجتـه ، وغار فى قلبـه كالمسـامير الصدئة ...
« لقد كان ذلك الحوار منطلق الدرب الى هـذه اللحظة ، وما أتفـه الانسـان حين يتسـاوى فى عناده بالحمـار ؟ ! .. »

وبادرها بلا مقـدمات وصوتـه يلتهب غيظا

ـ « امك .. ان عليهـا أن تغادر الصريفة فى الحـال . »

فحدقتـه باسـتغراب وتسـاءلت

ـ « هـل جننت ؟ ! .. »

فأفلت مـا تبقى مـن زمامـه وصرخ

ـ « بل أكون مجنوناً لـو أتحت لهـا بعـد الان أن تشرف على دقائق حياتنـا الزوجيـة .. »

ـ « مـاذا تقـول ! .. »

ـ « لقـد صنعنا هـذا الطفـل تحت رقابتهـا . وأنا انسـان يهمـه الشـرف .. »

ـ « وهـل فعلت مـا يتنافى وهـذا الشـرف ؟ ! .. »

ـ « كلما تصورت أنهـا تراقب سـكناتنا فى الليـالي ، جف دمي وفقـدت رشـدي .. »

ـ « انها امرأة عجوز ولا تحمل تصرفاتها أي ضغينة لنا . »

ـ « أنت واهمـة .. ان نظراتهـا تفترسـنا ، وهـذا لا يعني

أنهـا طاهـرة النيـة أبـداً ... »

ـ « قلت لك .. انهـا عجـوز .. ومخرفـة . »

ـ « دفاعك عنها لا يغير من حقيقة كونها شـيئا لم يعد يحتمل . »

فسـألته بحـيرة تنضح غضبا

ـ « والى أين تمضي ؟ ! .. »

فقـال باصرار

ـ « لا أدري ... عليك أن تجـدي حـلا .. »

ـ « واذا لم أجـد هـذا الحـل ؟ ! ... »

ـ « اطلقـك .. أجـل اطلقـك ! . »

ـ « مـاذا تقـول ؟ ! .... »

ـ « أقول ، اذا لم تترك المرأة هـذه الصريفة فسوف اطلقك . »

فتهفت بـه فى حنـق قضى على كل احتمـال للتفاهم

ـ « اسـمع . ان تطلقني أهون علي من القاء امي فى الشارع . »

ـ « وولـدي ؟ »

ـ « خـذه اذا كنت قادراً على ارضاعـه . »

ـ « لا تداوري . انه سـيظل الى جانبـك لانني لم أعـد أطيق رؤيتـه .. انني أكرهكم .. أكرهكم جميعـاً . »

وعاد فضغط على جبينـه الذي تدق خلفـه المطارق .. « أجل . ما أتفـه الانسان عندما يتسـاوى فى عناده بالحمار ؟ ! . » من ذلك الحـوار الاحمـق ، انطلقت حشرة الخلاف ومضت تحوم حولهمـا حتى تحطم كل شيء . « وطلقتها .. أعطيتها الطفل والصريفة ، وخرجت من عنـدها بلا بيت ولا مأوى .. » وصعقته حقيقـة لم يجرؤ على نكرانها . لقـد طلقهـا دون أن تراوده خلجة من ندم . وكان حقـاً قد أخذ يشـعر نحوها بالمقت والازدراء . لم تكن بعد ، تلك القطـة التي يسحره مواؤها ، ولا الحمامة البيضاء المنعشـة . ان المرأة التي

تمارس حقوقها الزوجية تحت رقابة الغرباء ، ولا تشعر بالحرج ، لأحق من الحب ، بالكراهية والاحتقار • أجل •• « لقد كرهتها وكرهت كل شيء معها » • وعادت الاحداث فدفعته عاماً آخر نحو حاضره • وكان هذا العام فارغاً وتتناً كسائر الاشياء الاخرى• « لقد سئمت خلاله كل شيء حتى نفسي ، ولقد دفعني هذا السأم الى الفرار بعيداً ، فقفلت راجعاً الى الموضع الذي أتيت منه ، الى هذه المدينة • » •

وتنهد • انه الآن ينجرف الى حيث لحظته ضمن لجة من الاحداث خاطفة السرعة ، متناهية فى قدرتها على طي الزمن• وحاول أن يخدع رهبة طارئة اكتسحت كيانه ومضت تفطرعلى جسده، ولكنها كانت أشد ذكاء منه ، فلم يفلح فى نبذها عن نفسه • ومع ذلك فقد تذكر كيف أن الايام توالت عليه بحلوها ومرها • ولقد كانت تفصله عن تلك « الحبيبة » الآف الفراسخ وقلب يعرف النسيان ويجيد الجفاء • لقد كان على وشك أن ينساها تماماً •• « بل لقد نسيتها بالفعل ، ونسيت معها ذلك الطفل الذي شاركت معها فى صنعه • » وعانقه دهش فظيع حط على مهجته المرهقة وسحقها تحت أقدامه•• « يا لله • كيف أن قلباً يستطيع الجفاء والنسيان، يخون صاحبه بمثل هذه الفظاظة ؟ ! •• » لقد كانت الايام تترى عليه وهو سادر فى غفلة الحياة •• « بيد أن الحياة ذاتها تتقن الخيانة ، فما بالك بالقلوب التي تعد من أرهف الاعضاء وأبلغها ضعفاً » ويوماً ، وبدون أي مبرر ، أعلنت عليه هذه الحياة حرباً شعواء • كشر الحظ فجأة بعد أن تعبت شفتاه ــ على ما يبدو ــ من الابتسام • وأظلمت المسالك بأسرها وأمست ليلا تكنفه سحا ب داكن • ونفد الشهد ولم يبق فى الفم غير العلقم •

واتجهت الأمور بأسرها الى عكس التيار ، فاذا به شريداً يتسكع فى الدروب ، بلا عمل ولا قوت • ولأول مرة فى حياته كان يصغي الى حفيف الجوع المنبعث من أحشائه فى جزع مميت • « فجأة قرصني مع الجوع حنين • وأمعنت النظر فى مخيلتي ، فاذا بها منتصبة وراء الجبين مع الرغيف الذي كنت انقب عنه فى كل مكان • » حاول أن يزجرها عن دماغه كما تزجر الكلاب المتطفلة ، بيد أن طيفها مكث لاصقاً فى رأسه وهو يبتسم ثم يضحك فى حنان مسيل للعاب • رأى فى ذلك الطيف ملاكا للرحمة هبط عليه بغتة من السماء ليقف الى جانبه ويحميه من الجوع والتشرد • واستبد به الحنين وطغى • ومن خلاله كان يحس بالندم للمرة الاولى • وعض على شفاهه أسفاً على ضالته المفقودة ، حتى أدماها • « ومنذ تلك اللحظة ، فقدت الاشياء الظالمة طابعها القاتل وتنحت الى الهامش• فلقد وجدت ضالتي فى البحث عن زوجتي الحبيبة •• حمامتي الرقيقة البيضاء • » وخفق قلبه تلك الخفقة المريبة المشهرة بوجهه ذلك السيف الباتر الواقف قبالته فى شموخ • غير أن للاحداث ما عتمت بقية • وتشابكت أحداث هذه البقية فى رأسه وتحولت الى عليقة • ووجد ذاته فى جوف تلك العليقة وأشواكها ناشبة فى وجهه وأطرافه وبدنه • وتألم ألماً فظيعاً ، حيث أن تلك الاحداث كانت تمسك بخناقه • وتقوده حتى تشرف به على هذه اللحظة الفاصلة• « لقد كان ينبغي أن تعود • ولكن آلافاً من الاميال وقلباً يحسن الجفاء ، كانا يفصلان بيننا • » ولم يكن بالطبع ، قلبه الذي يحسن الجفاء هذه المرة • لقد كان قلبها هي • وبلغته أنباء عن زواجها ، بيد أن ذلك لم يزده الا حنيناً اليها ورغبة فى أن تعود اليه •• « وغررت بي هذه الرغبة ، فعولت على أن تكون وسائلي اليها

أقوى من جفائها » ولهذا الغرض فقد توسل الى صديق له يجيد الكتابة ، أن يسطر لها رسالة تضمنت كل مشاعره المتيمة نحوها، فى اسلوب يشق نياط القلوب • « ولقد بكيت وأنا أقرأ هذه الرسالة ، ولم يخامرني الشك وأنا القي بها الى صندوق البريد ، بأن حبيبتي هي الاخرى ستبكي حين تطالعها • » •• وتخيل أيضاً ، أنها وهي تقرأ ذلك الخطاب ، ستستعيد كل الذكريات الجميلة الغابرة ، فيخفق قلبها شوقاً وحنيناً اليه ، وتترك زوجها الآخر وتلحق به • ومضت الشهور وهو يقلب حلمه الكبير بين جنبيه وينتظر ، ولكن شيئاً من ذلك الحلم لم يتحقق •• لقد مكث هذا الحلم كالشبع ذاته • مجرد سراب •• مجرد وهم ! •

ثاب الآن الى لحظته الجحيمية • انه يمضي فى سبيله دونما هدف ولا مصير • الجوع ينهش فى أحشائه ، وطيفها الظالم الحبيب يلتهم قلبه ، ووجوه الناس من حوله ، تلوح له فى شحوب الموت الذي يسعى اليه •

كان يعدو بلا هوادة • والعربات فى الشارع الطويل تتناحر كأنما فى سباق ، كأنها جند الموت الملقية بالرعب فى نفوس المارة، فلا يملك هؤلاء الا أن يتحاشونها ويفتحون لها الف عين وعين • وفكر من جديد •• « لحظة واحدة يكون بعدها الختام » • أجل • لو يلقي بنفسه فى حركة خاطفة الى عرض الطريق •• « انها نهاية حزينة ، ولكنها ستضع حداً لكل المتاعب • » وتخيل الاحداث التي ستلي تلك اللحظة القصيرة • انه سيكون فى قرارة الابدية• أنفاسه خامدة ، وجثته الممرغة بالدم ملقاة على الارض ، لا تقضها صرخات الناس ، ولا يحرك الذعر البادي على قسمات الوجوه ، فى أطرافها ساكنا • ووقف على قارعة الرصيف • وقبل أن يشرع فى

الأنتحار تذكرها للمرة الأخيرة • ثم بدأت أجفانه تطبق على عينيه قليلا قليلا • وفجأة ، ومن قبل أن يلفه الظلام التام ، عاد فبحلق عينيه فى ذهول أشبه بالعباء • ثمة وجه فى الطريق شده اليه بقوة خارقة • وتمعن فى ذلك الوجه ، فتحول جنانه الى عصفور وحاول أن يحلق مخترقاً ضلوعه • لقد كان الوجه وجهها • وهتف وكله رجة عنيفة كانت تخلقه من جديد •• « انها هي • معبودتي •• قطتي الجميلة •• » واكتنفت عقله طاقة جبارة جعلته يفكر فى أقل من لحظة ما لم يكن يقوى على التفكير فيه فى غضون ساعة كاملة• وقال لنفسه وهو يخترق الزحام منطلقاً نحوها كالصاروخ • « لقد جاءت الى هنا فى الوقت المناسب ، كي تنقذني من موت مقيت محتوم •• » وطوقها بعنف ، ومضى يلثمها بلا هوادة وهو يصيح :

ـ « حبيبتي •• حبيبتي ! • »

وكان الناس يتقاطرون من حوله وهو لا يعي • كما صوبته نظرات مستاءة من كل ناحية وكأنها نبال تقطر أسنتها زعافاً • وبغتة ، غاص كل ما فيه وهو يتراجع • لقد كانت تنفر من بين ذراعيه كغزال مرعوب• وتفحص وجهها بامعان فصدمه تيار كهربائي شل أعضاءه برمتها • وارتد عنها وقد انهار كل ما فيه •• « يا الهي •• كيف يمكن لهذا أن يحدث ؟ ! •• » وكان واثقاً من أن كل شيء فيه قد اصيب مع عقله بالخلل •• « ان الشبه بينهما يكاد أن يكون معدوماً •• فكيف حدث هذا ؟ ! » ولم يستطع أن يعيد الوقت لحظة قصيرة ، كي يجد ذاته طريحاً تحت عجلة سيارة • كان الناس يضربون من حولهما نطاقاً كالسور • وكان هذا السور متيناً ومتراصاً ، ولا توجد فيه ثغرة واحدة تمكنه من الافلات • وانكمش • خفض رأسه وأغمض أجفانه ومضى يترقب وقع الاحذية المنهالة على رأسه وأطرافه • على

أن يداً ناعمة سبقت تلك الأحذية فأمسكت بمعصمه • وتبعها صوت رقيق غمر آذانه وتركه مشدوهاً •

ـ « أخي ؟ ! •• يا للصدفة السعيدة •• » وانعقد لسانه فلم يقل شيئاً ، أما هي فعادت تقول :

ـ « اعلم أن وقع المفاجأة شديد ، ومع ذلك فلا بد أن تتكلم • اننا لم نكن نتوقع أن تعود من رحلتك دون أن تبلغنا عن أوبتك •• »

ولكنه ظل واجماً • وكان اهتمامه ما انفك منصباً على ذلك السور من البشر الذي يطوقه • اكتشف الآن أن الوجوه التي كانت جهمة، قد أخذت تبتسم ، وأن الزحام من حوله قد شرع بالذوبان • وتريث حتى ابتعد آخر المتجمهرين من السابلة ، وعندئذ قال :

ـ « لا أدري كيف أشكرك بعد أن أنقذتني من موقف غاية فى الاحراج • »

فغمغمت وبسمة عريضة تتوج ثغرها

ـ « لا داعي للشكر مطلقاً • »

فعاد يطرح السؤال وكأنما على نفسه هو ،

ـ « ولكن كيف حدث هذا ؟ ! •• كيف حدث ؟ ! •• »

فأطلقت ضحكة خفيفة عذبة وقالت :

ـ « فى البدء أخرسني الذعر وأنا أظنك مجنوناً • ولكنك عندما تراجعت مرتبكاً وممتقع اللون ، أدركت أن التباساً قد وقع • »

فأن بصوت محتضر

ـ « لقد كنت فى محنة شديدة • كنت عازماً على الانتحار ، ولما رأيتك ، بدا لي أنك امرأة أعرفها • »

وعادت تضحك

ـ « أستطيع التخمين بأنك فى محنة ، أما الانتحار فلا يليق

بالرجال مهما كانت الأسباب . »

فتحسر وهو يهمس

ـ « ان كل شيء قد تخلى عني .. حتى الطعام . »

فقبضت على راحته وأخذت تقوده معها كما يقاد الاطفال ، فسألها بحياء وارتباك

ـ « الى أين ؟ ! .. »

قالت وهي ماضية فى سيرها :

ـ « ينبغي أن تقابله .. أجل . لا بد وأن تقابل زوجي . »

وخامره احساس مرتاب فعاد يتساءل ـ « ولكن لماذا !؟ . »

ـ « ستعلم ذلك فيما بعد . والمهم أن تقابله الآن وبدون تأخير » .

* * * * *

فى اليوم التالي ، كان قد استلم عملا محترماً . فلقد قابل زوجها وقص عليه حكايته بحذافيرها . ولم يكن الآخر بحاجة الى تفكير عميق ومتواصل من أجل أن ينقذه من الورطة . لقد كان من رجال الاعمال الذين قلما تخلو شركاتهم من وظيفة شاغرة .

ولهذا السبب فقد قدر لمأزقه أن يتلاشى بعد ذلك اللقاء مباشرة . وكان هذا اللقاء مصيرياً بحتاً . فبعده ، عاد قلبه فأصبح يحسن النسيان . لقد نسي شظف العيش والجوع والتسكع . كما نسي من جديد ، تلك الزوجة الحبيبة « سابقاً » ، التي كان يخيل اليه أن حياته بدونها لا تساوي قرشاً ، مما جعله يزمع يوماً على الانتحار . لقد ابتلع النسيان الاشياء التي كانت تبرحه بأسرها . بيد أن سؤالا واحداً ما زال يطارده ويفرض ذاته عليه

فى كل مناسبة ... « ترى ، ماذا كان سيحدث لو أن تلك المرأة الفاضلة ، التي انهال عليها ضماً وتقبيلا فى وسط الشارع، كانت قد استعملت حقها المشروع ، وصفعته على وجهه ؟ ! .. » .

استا بهودا

فجأة ، خيل له ، أن ذلك العالم الصغير الذي يهيمن هو عليه هيمنة كاملة ، والذي لم يشك يوماً واحداً بسلطته المطلقة عليه ، وكأنه يحاول أن يتململ أو يتمرد .

لماذا تعاف هذه الطفيليات المهزولة درس التوراة وتعرض عنه ؟ ! .. هذه الحشرات البشرية ، التي صيرها بترويضه المستمر لها ، شيئاً أشبه ما يكون بالفئران المذعورة .. التي استطاع أن يلقي فى أجنتها هيبته ، حتى استشف وقع خطاه فى أعماقها ، وأيقن أنها تكاد تلعلع فى صدورها مثلما تلعلع عصاه الغليظة ، وهي تنهال على الاكف الصغيرة حتى تدميها .

كيف يخفق هو « الاستا يهودا » ـ كما يسمونه ـ فى أن يوقظ فى أرواح هؤلاء الصبية الملاعين حبهم لهذه التوراة التي يلقنها اياهم ، وكأن بينهم وبينها عداء مستحكما ؟ ! .. ان الارهاب، والتعذيب ، وتبريح الاكف حتى انبثاق الدم ، والف خيزرانة محطمة مركومة فى زاوية ، كلها امور قد فقدت نجاعتها وأضحت غير مجدية. أين تراهم قد تعلموا الالحاد ؟ ! .. هل تعلموه وهم بعد فى أرحام امهاتهم ؟ ! .. تباً للبطون التي تنجب أطفالا مثل هؤلاء . كيف يجادلونه ؟ ! .. كيف يقولون له بكل صفاقة ، ان الدين خرافة ؟! كيف يحلو لهم أن يرفلوا فى أحضان ذله وهوانه ؟ ! .. كيف يتجرعون العذاب الذي ينزله بهم عن طيب خاطر ، ولا يقرون بأن ما يلقنهم اياه .. حق ، وان كل ما عدا ذلك باطل ؟ ! ..

الساعة ، يثور عنفوانه وتبلغ غلظته حد الغليان ، فتزبد عن طريق فمه وترغي . وترقص عصاه فوق أجساد تلاميذه الواحد

تـلو الآخر ، فينقلب الصف الى مأتم ، وتتعـالى الصرخات ، ويعزف الصف برمتـه سـنفونيـة البكاء المشنفة للاسـماع ، ولكن غليـله لا يروى • فكيف يتطاول عليه وغد من الاوغاد ويسميه كلبـاً ؟ ! •••

وعندما يتحـدث « اسـتا » يهودا فى تلاميـذه ، فلا بـد من أن تتجمـد الاجسـاد فى مواضعهـا ، وتحتبـس الانفاس ، فلا تسمع حركـة • وعندما ينقـل لهم مـا قاله حكماؤنا طيبو الذكر ، فلا أقل من أن تطأطيء الرؤوس خشـوعاً ، وتتبحلق العيون انبهاراً وترتعش الابدان تعظيماً واجلالا • وكانت هـذه رغبتـه التي يجب أن تقـوم بحكم قدسـية الجو المتخلفة عن ذكر الحكماء ومواعظهم • بيـد أن نصيبها كان دائماً الخيبـة والفشـل • فكان يغضب ، ولكن غضبه قلمـا كان يخـلو من راحة مكبوتة ولذة دفينة فى أعماقه • فاستهانة تلاميذه بأقوال الحكماء عاطري الذكر ، كانت بمثابة فرصـة ذهبيـة تفتح أمامـه سـبل اسـتعراض قوته عن آخرها ، ويفرض جبروته• ويقضي على التمرد فى مهـده ، ويحيـل الفوضى الى نظام مرتعـد• نظـام رغم أنفه •• غير متكافىء ، يرفع بأنفه الى السـماء ، فى خيلاء ويلقن الطلبـة التعسـاء معنى الفظاظـة • أجـل •• كانت حصـة « اسـتا » يهودا مخصصة للفظاظة وحدها • أما مـا عدا هـذا، فقد أصبح على مرور الزمن محض وسـيلة لم يدرك حقيقتها • وهكـذا انقلبت المقاييـس واحتلت الوسـيلة مكان الغاية ، والغايـة مكان الوسـيلة • واقترن اسـم « الاسـتا » يهودا بالقسـوة والوحشية، بين طلابـه ، وعرف بهـذا الاسـم • ولكن ذلك لم يكن يزعجه وانما كان يهش له ويفغر جحراً ضائعاً بـين لحيته وشـاربه ، فينفرج عـن أسـنان مكسرة صفراء ، احتفاءاً بنفسـه واحتفالا بهـا •

أما الآن فان الامر يختـلف •••

الآن ، كان « استا » يهودا يتحدث عن حكمائنا القدامى ..

وهؤلاء ، قسموا حياة الانسان الى مراحل ..

وفى كل مرحلة يجتازها الانسان فى حياته ، يمكن أن يتشبه بحيوان ما ...

وعندما يبلغ المرء الستين من عمره ، وتكون له زوجة ويكون له أولاد ، فما أشبه ذله بذل الكلاب ؟ ! .. ان الانسان فى هذه السن يكون قد بلغ مرحلة التكلب . فيتسكع فى الطرقات ، ويحوم حول دكاكين الجزارة كي يغافل أصحابها ويسرق عظماً يفر به الى منزله ، فيضعه أمام زوجه ووجهه فى الرغام .

وهنا ، انطلقت الشرارة التي اخترقت روحه وغابت فى جوف كبريائه . فمن مؤخرة الصف ، لدغه لسان طويل ، لدغة أفعى مسمومة خبيثة بدأت بالحكماء فى مثواهم وانتهت الى قلب كرامته .

نعم ...

ـ « استا يهودا ؟ .. أليس فى هذه الاوصاف ما ينطبق عليك بالذات ؟ ! ... »

وأصابه فجأة ، عقم فى رأسه . وساوره ارتباك فظيع . وأراد أن يقضي على هذا الدهاء وفق طريقته ، بيد أن المسألة كانت أخطر شأناً . نعم . هو فى الستين . وفى عهدته زوجة . والعلماء قالوا، ان من تنطبق عليه هذه الاوصاف فهو فى مرحلة التكلب . وهو ذاته يردد هذا ويلقنه للملاعين . فلا شك فى أنه يؤمن بكل ما تختزن حافظته الذهنية من أقوال أسلافه . وهذا ايمان من قبيل التسليم . ولم يحاول يوماً أن يجادله . ولا عن له أن يغربله فى غربال النقد كي يبان له دره من حصاه . اذ ان رجلا مثله لا يعترف بالجدل فى الامور المقررة . ولكن الساعة تجابهه بمنطق مستعص . بشيء

خطير يوقع عقله فى مأزق • فأما أن يستعيد أقواله ، فهذا محال• فالاقوال الخالدة لا يمكن أن تحرف • ولو فعل فتلك نهاية العلماء ومآثرهم ، وقضاء مبرم على الحصة برمتها ••• واما أن يسلم ؟ ! •• يا لله •••

كيف ؟ ! ••• هل هو كلب اذن ؟ ! ••• كلب وبلا جدال ؟ ! •••

تعب من الضرب • والهثته التهمة المحقيــة بكرامته ، كالسلسلة من الاغلال ، النهاشة فى كبريائه كالانياب ، فتوقف برهة • ونزع طربوشه القديم الذي استحال لونه الاحمر على مر الايام الى مزيج من الالوان تشكل لوحة تجريدية ، غير منسجمة ، فلاح رأس حليق ، وعلى ذلك الرأس شعور متحدية شرعت تنمو منذ لحظة تركها الموسى بعد أن أعمل فيها الحرث الدقيق عشية عيد مر قبل ثلاثة أسابيع• وحك « استا » يهودا رأسه بحركة عنيفة ، فاندست وراء أظافره قملتان انحشرتا فى الحاشية السوداء من الوسخ المرسوم كالهلال العريض فى مقدمة تلك الاظافر ، فلم يشعر بهما ، بل مد يده فى فرجة جلبابه فغطست فى جيب عميق لا نهاية له ثم ارتدت وهي تقبض على منديل مغسول بسائل لزج ملوث ببقايا ما ترفضه خياشيمه من نشوق مع نفحات من رائحته الممتزجة بعفونة السوائل المفروزة من بدنه• ورفع استا يهودا منديله الى أنفه وتمخط ، ثم هبط به الى شاربه ماسحاً أطراف فمه ، فتلاشى الزبد الابيض الا رذاذات منه ظلت عالقة ببعض الشعور المحيطة بثغره • وعاد الرجل فدفن منديله فى البئر الممتد بيت ترقوته وساقه ، ولم يلبث أن عاوده مس الجنون الذي أرجأه لحظة قضاء حاجته •

ـ « أنا كلب ؟ ! ••• أنا كلب ؟ ! ••• »

رددها بلا هوادة • « لو أن الله لم يحظر القتل فى وصاياه العشر،

لقتلت الساعة ثلاثين جرواً يتسمرون اللحظة على مقاعدهم كالاصنام.»
أجـل .. ارتعدوا . ذوقوا عذاب جهنم قبـل أن تدخلوها بعـد عمر قصير باذن الله .. ألم تعرفوا بعد من هو اسـتا يهودا ؟ ! ..

كان « اسـتا » يهودا يعلم حق العلم بأنهم يعرفونه . وكان يدرك تمـام الادراك ، أنه اسـتطاع أن يعركهم جميعاً بين أنامـله مثلمـا يعرك البعوض المتوثب على فراشـه ساعة يرقد فى محاذاة زوجتـه فى ليالي الصيف الحارة ، على كثب من محجر السطح المطل على الزقاق. على أنـه رغم هـذا الادراك ، لم يسـتطع التحرر من الشبح المتنمر الذي ركبـه . الكلب .. رجل فى الستين وله زوجـة .. هو نفسه. فريسة المهانة التي لبسوها بهيبتـه .. الذل الذي لم تعرف له سـطوته صنوا . وهو لا يذكر أن عقـله أفلح يوماً فى الرد على تلقي الاساءات البادرة عمن هم أضعف منه شأناً ، بمنطق غير منطق التنكيل والبطش. ولقـد نطق بهما معـاً ، ولكن الثـلم فى شـخصيته ما زال مترامي الاطراف ، عميقـاً . وقطع واجهة الصفح بسـيقان متداعية . ولعظم رزيتـه ، حاول هـذه المرة أن يستغيث بغيره لمعاضدته ، كي يستكمل قصاصه ، ولكي يعود الى مهجته رواقها . فاسـتقر بـه الرأي أخيراً على اسـتدعاء الاسـتاذ « كرجي » مدير المدرسـة .

وكان الاسـتاذ كرجي ، رجلا ضئيل القامة قليـل الشـعر . وكان يرتدي بذلة رمادية نصف عتيقة ، ويضع على عينيه نظارة باطار ذهبي. وجاء ، فوقف أمـام التـلاميذ من غير أن يلوح عليـه أنـه يكترث بالامر كثيراً . وأنصت الى الرواية كمـا صاغها خيـال اسـتا يهودا، فلاح كمن ينصت الى دعابة . وتأرجحت ملامحـه فى معرض الحديث بين الرصانة والبسمة ، ولكنه تحاشى ولأكثر من مرة ، ضحكة كادت تخونه ، خشـية أن يحذو التلاميـذ حذوه فيتعذر ضبط النظام الذي

فرضه « الاستا » بقوته عنوة • كما أنه تجهم حيناً مجاملة لمحدثه، على أن جهامته لم تلبث الا ما تلبثه البارقة ، فهربت عن وجهه قبل أن يتملى الآخر منها قدراً يشبع له كبرياءه المتضورة الجريحة • وأخيرا قال « استا » يهودا وهو يكشر عن أسنانه المنخورة الصفراء ، ويلوح براحتيه فى فضاء الغرفة •

ـ « لكي لا تفقد المدرسة آخر قطرة من هيبتها ، فيقال عنا اننا نعد الكفرة والملحدين وكل صعلوك لا يعرف للادب سبيلا • ولكي لا يبقى شيخ مثلي كسير الخاطر وقتاً لا يعلم غير الله مداه ، ولكي تتعظ الجرذان الحقيرة ، فلا يقع بعد الآن ما وقع ، فينبغي للاساءة أن تجتث من جذورها وأن يطرد الخبيث الذي لا أب له من هذه المدرسة•»

ورمقه المدير بنظرة ملق ، ثم توزعت تلك النظرة بين التلامذة الثلاثين فرأى ذعراً بادياً على الوجوه ، ولحظ استغاثة محطمة كأنما تتوجه اليه متضرعة عائذة به من « الاستا » الوحش ، فساوره وجوم ، ورفع وجهه الى السقف باحثاً فى أطرافه عن حل للموقف، ثم قال لمحدثه فى لهجة فيها رجاء :

ـ « هلا غفرت له هذه المرة هفوته ، على أن آخذ لك عهداً بأن ما حدث لن يتكرر بعد الآن أبداً » •

بيد أن « استا » يهودا كان متمسكاً برغبته ، فأحدث كلام المدير فى نبرته ثورة وهو يصرخ منذراً ومتوعدا

ـ « لا بد ••• لا بد من أن يغادر أحدنا المدرسة ••• أنا •• أو هذا اللقيط • »

أفحم الاستاذ كرجي معانياً من سقوط ما فى اليد ، فأستا يهودا رجل صعب فى كل ما يتعلق بصبيته • ومرجع هذه الصعوبة ، انه جاهل وضيق الافق • واذا كان الصبيان لا يعرفون

عنه غير خشونته ، فهو يعرف عنه غير هذا ، الكثير • لقد نشأ « استا » يهودا على التوراة وحدها فى بيت مدقع ، نشأة لا تمت الى الثقافة بصلة • وهذه النشأة ، كانت قد غرزت آثارها فى طريقة تفكيره وصبغتها بمظهره وفى تصرفاته كلها • لم يكن اذن ما يمنع أن يؤدي تعنته الساعة ، الى أزمة تقذف به الى الشارع • بيد أن هذه مدرسة خاصة •• وقد أسست أصلا من أجل اغاثة المساكين لا قذفهم الى رحمة الطريق • وفى اصرار الرجل مشكلة • فهذا أو ذاك ، كلاهما لا ينبغي له أن يغادر هذا الملجأ الى غير رجعة • وأخيراً ، استعان المدير بحل وسط أسداه له تفكيره ، فعزم على ارضاء « استا » يهودا مؤقتاً ، حتى اذا هدأت الخواطر وزالت هذه النوبة من تعنت الرجل ، استوهب للطالب المطرود عفواً ، فتعود المياه الى مجاريها • وكتم الاستاذ كرجي نصف ما عزم عليه واطلع « استا » يهودا على النصف الآخر، فانتفخ الشيخ كالديك الرومي ، وحملق فى وجوه تلاميذه فى تشف، ثم قال للمدير :

ـ « ان المسألة لم تنته عند هذا الحد • فثمة بقية يجب أن تلحق بالعقاب ليحظى كل ذي حق حقه • ولقد قضيت بأن يبكر الطالب المطرود صباحاً ، فيطوف فى الزقاق حاملا على كتفه قصبة طويلة كالتي يستعملها النزاحون • وينادي بمثل ما تنادي به هذه الفئة القذرة من الناس • »

ولم يقدر الاستاذ كرجي أن يكتم ضحكته هذه المرة ، ففرقعت فى أجواء الصف محدثة دوياً • وهمس فى اذن محدثه قائلا:

ـ « يا استا يهودا • لقد تعديت بهذا كل الصلاحيات التي تملكها المدرسة • اذ أن أبعد ما نملكه من عقوبات هو الطرد وقد عملنا به ارضاء لك يا عزيزي • »

وتنحنح أستا يهودا وتبجح فى غرور ، ونفض عن أنامله ذرات من نشوق كانت قد علقت بها بعد أن حشر فى خياشيمه حفنة من هذا النشوق ، وقال باصرار :

ـ « لا بد من هذا ولو دكت أركان الارض • أن اللئيم الذي صيرني كلباً لا يستحق الا أن يمارس مهنة النزاحين ولمدة ساعة كاملة ••• »

وانتهز فرصة سكوت المدير فاستطرد كالحاكم بأمره :

ـ « كما أقضي بأن يسير فراش المدرسة وراءه متعقباً خطواته، لكي لا يستغفلني أحد فلا ينفذ الحكم الذي اتخذته بنداً بندا • »•

* * * * *

فى أعماق ذاته ، لم يشأ « استا » يهودا أن يعترف بأن الشيء الذي اجتاز به حدود فظاظته الى الجنون ، لم يكن مجرد لفظة الكلب التي صادفت فى نفسه مرتعاً للوصمة المذلة المثيرة • بيد أن الاستاذ كرجي فطن الى أن السبب كان أبعد من هذا وأجل شأناً • فصفة ذلك الحيوان كانت تشبيهاً محضاً يطابق ظروف رجل قد تقدمت به السن ، بينما زوجة فى ذمته تشعره بالمذلة وتأخذ به قهراً الى التسكع واخفاض الهامة • وقبل عشرة أعوام فقط تزوج « استا » يهودا • وفى ذلك الوقت عقد قرانه على ابنة عم له برا بعهد قطعه حين كان عمره يدور فى الثلاثين • يومئذ ، رزق عمه بطفلة ، وشاهدها وهي بعد لم تتم عامها الاول فتوسم فيها جمالا سينمو معها• وعاهد نفسه على انتظارها عشرين سنة كاملة ، حتى تشب عن الطوق فيتخذها شريكة لحياته • وأصدق وعده فصبر على الايام مكابدا بها

شظف الوحدة والعزوبية • كما صدقت نبوءته ، فترعرعت الطفلة والزمن يخط على طلعتها حروفاً بديعة ، ما أن انقضت المدة التي حددها ، حتى بلغت أوجها وارتسمت على وجه الفتاة آية فذة تجرد الرؤوس من عقولها وتحدو بها الى ارتكاب الحماقات •فلا عجب اذن فى أن يتنفس « استا » يهودا الصعداء وأن يهرع الى عمه الذي كان يرقد على فراش الموت آنذاك ، يطالبه بالتعجيل فى عقد قرانه على الصبية • وتمت الزيجة فى تواضع • وتساوى ما بينهما من اشتداد الفاقة ، فلم تقع معضلة ولا خلاف • بيد أن المعضلة الحقيقية كانت قائمة بالفعل ، متوارية عن العيان • تعيش داخل أعماق « استا » يهودا وتشتد عتوا مع مرور الزمن • فرغم أنه لم يعتد على ارهاق عقله فى مجابهة حقائق الحياة ، فقد كان ثمة امور بديهية كشفت له عن ذاتها رويداً رويدا فأدرك بالتدريج ، أن بينهما بوناً لا يستطيع أن يختاره • والجمال والشباب وطور الجيل الجديد على عواهنه ، كيف يقلص المسافة الفاصلة بين كل هذا وبينه ؟ ! •• وجهل الجيل الحديث لا يمكن أن يقارن بجهله • فالناس يولدون فى هذه الايام وكأنهم قد تعلموا فى الارحام• فطنتهم ثاقبة ، وادراكهم للامور عجيب مع مشاكسة ورغبة فى النقض ما فتأ يراها فى تلاميذه كل يوم • أفليس فى هذا ما يحيله اذن الى الفرق المزمن ، والفزع من شيء مجهول قد يداهمه ذات يوم على شكل أي صورة مزعجة فى بيته ؟ ! •• هذا الاحساس الغامض المسنود بالبديهة ، دفعه الى محاولات للتوفيق نفسياً بينه وبين الحياة التي يحياها مع زوجته الشابة الجميلة • فوهبها كل تفانيه وروحه وكيانه • ورغم هذا فقد ظل ينحدر الى هاوية الذل حتى وجد حياته أخيرا ، تقوم على استعلاء زوجته عليه

واستضعافه هو أمامها • وأوشك أن يصدق أن هذا هو ثمن ما يميز زوجته من أوصاف نادرة لا يمتلكها ، وان عجينة حياته الزوجية قد استقرت فى النهاية حيث كان يجب أن تستقر ، وأن المستقبل سوف يمضي على هذه الوتيرة دائماً • ولكن الامور لم تقف عند هذا الحد ! •

كان للاستعلاء أن يستفحل لتمرغ المهانة وجهها فى التراب •

واكتشف « استا » يهودا مؤخرا أن الهدوء المتوتر الذي كان يطبع حياته فيما مضى ، قد اضمحل وانقشع • واستحال علو الزوجة مع الزمن الى نفور قاتل • كما انخرط الرباط الروحي الوهمي الذي ربطهما ، فلم تفلح جهوده المتفانية فى ابقاء فتلة واحدة منه •ولم يكن يملك الآن من أمر هذا الرباط الا ما يشده الى الهوان • الهوان الذي ماوسه فى البدء بصدر رحب ، فانتهى به الى عقدة متمكنة لا علاج لها • لقد أمسى « استا » يهودا فى النهاية متسولا يطلب الصدقة ولا يعثر عليها • وكانالباب الذي حطم يده فىطرقه موصدا بوجهه • وشغلت صاحبة الامر عنه باستراق الحب من شاب فى عمرها • الرجل الذي يدفع له هذا المتسول ، أجر الغرفة المتواضعة القائمة فى ركن ضائع من أركان داره الفسيحة •

ولم يفعل شيئاً فمكثت حياته موزعة بين مرارة الضعف فى بيته، ونشوة القوة فى حصته •••

وشكا للاستاذ كرجي ذات يوم ما يعانيه من انقلاب زوجه عليه، ولكن هذا اكتفى بالحوقلة ولم يضف عليها شيئاً •

ثم وقعت الحادثة التي خيل اليه أنها صيرته كلباً ، فجن جنونه من دون أن يفطن الى أن فقدانه لصوابه كان ثمناً للاهانة التي أوغلت بعيداً فى مجاهل نفسه ، حتى التقت بنقطة ضعفه • ولم يعلم

أيضاً بأن هـذه الحادثة ، أخذت تحرك فى باطنه أفكاراً مكبوتة صنعت منـه فريسـة لهم قاتل لم يبارحه كلما خلا الى نفسه ، وانها ضاعفت من وحشـيته وهو بين يدي تلاميـذه ، فاذا بحصته كلها تسـتحيل الى فترة من العقاب لا ينجو منـه مذنب ولا بريء •

وفى رأسـه الضيق كانت فكرة مهزومة تختمر شـيئاً فشيئاً •

ونضجت فى عقـله خـواطر كالمـدايا فطعنت كرامتـه ، ولكنـه احتملهـا صاغرا متجـلدا •

ويوماً قالت له نفسه « طلقهـا واسـترح ! » فأحس بدوار عنيف يدمره ، وبأن شـعوراً غريبـاً على وشـك أن يمزق كيانه ولا يريـد أن يفارقـه الا ميتـاً •

ودمعت عينـاه وهو فى حضرة المدير يتجاذبان معـاً أطراف هذه المعضـلة • فهـل ينهزم فى النهـاية ؟ ! •• هـل لا يحظى حتى بذله القـاتل وهـوانـه المـدمر ؟ ! ••

على أنـه أمسـك بتلابيب خواطره التي اختمرت وفاح ريحهـا• أمسـك بهـا حتى كاد أن يخنقها • فحتى متى يحتمـل ؟ ! •• وقال للاسـتاذ كرجي بصوت كسـير دفـع بأجزائه المهشـمة الى خارج حلقـه عنـوة وقسـرا •

ـ « أجـل •• المرأة لا تلام • ومن كان فى موضعنا لأدرك هذا• ان أي امرأة تخيرها بيني وبينه ، سـوف تفضله علي لا محالة ••

هو شـاب فى الثـلاثين •• وأنا شـيخ فى السـتين ••

وهو صاحب ملك •• وأنا مسـتأجر صغير لديـه ، وأدفـع لـه ثمـن غرفتي بشـق النفـس ••

وهـو يرتدي الملابـس الافرنجيـة •• وأرتـدي أنا الجلبـاب والعبـاءة ••

وهو يجيد من اللغات ، العربية والانجليزية والفرنسية ويتقنها كتابة وقراءة وكلاماً .. بينما أنا لا أعرف غير العبرية أحفظها عن ظهر قلب .

« اعترفت ... فماذا تنتظر اذن ؟ ! .. طلقها واسترح ! ..

وظلت هذه المقارنات تعبث فى رأسه وهو يعود الى بيته . وظلت نفسه تلح عليه بألف حقيقة رهيبة .

« اعترفت .. فماذا تنتظر اذن ؟ ! .. طلقها واسترح ... طلقها واسترح ! » .

وفى تلك الليلة لم يبادل زوجته كلمة واحدة . وعندما آوى الى فراشه لم يواته النوم ، بل ظل يتقلب على سريره مستعرضاً فى عقله كل المناظرات التي جاءته مما استحى أن يواجه بها الاستاذ كرجي ، فاحتفظ بها لنفسه .

أجل .. كيف تريد أن تصمد فى المعركة وأنت لا تملك من كفاءات ذلك الشاب ولا كفاءة واحدة ؟ ! ...

وأنا لا أغتسل الا فى المواسم ، وهو يستحم بالصابون المعطر كل يوم ..

ولي هذه اللحية الكثة التي لا يعلم غير الله كم من أصناف الحشرات ترتع فى حقولها ، وبشرته حريرية ناعمة تخدر أنامل النساء حين تمسح عليها بحنان ورفق ..

وهو مثقف ، وأنا جاهل ..

وهو نظيف ، وأنا قذر ..

وهو حي يرزق .. وما أنا فى الحقيقة الا فى عداد الموتى ...

حاول جهده أن يقتنع .. وبالغ فى ذلك فراح ينبش فى رأسه المنهوك عن مزيد من المناظرات تعزز من الحاح ذاته وتضع أمامه

الواقع فى أمانـة واخلاص •وانتهت بـه المبـالغة الى أن أضاف الى مقارناته • مقارنة عجيبة فقـال ، ان الشـاب الذي تهـواه زوجتـه عازب ، أما هو فرجل متزوج ، والعازب خير من المتزوج على أي حال•

وأخـيراً اقتنـع •• اقتنع بشيء واحد •• مدمر •

الهزيمـة الكامـلة ! ! ••••

وألقى بصره على شـبح زوجه النائمـة فألفى فى طلعتهـا امارات سـاكنة أزعجته • وسـمع ترديد أنفاسـها الهادئة وكأنهـا لا تلقي بالا الى كمده ، فانقبض صدره فوق انقباضه ، وعادت مناظراته الظالمة تعوي داخل كيانه بقـوة وهمجية توازي همجيته • واشـمأز مـن نفسـه وتمنى لو يغتالها • كما نفرت وراء جبينـه رغبـة شـديدة فأراد أن يكون الساعة بين تلاميذه الثلاثين • وود لو لم يفارقهم بقية عمـره لحظـة واحـدة •

وفجـأة ، زحف على فراشـه زحفـاً عصبياً حتى لاصق النائمـة بجواره • وتردد لحظة ثم امتدت راحتـه الى كتف زوجتـه ومضت تهزه هزاً منفعلا مجنوناً • واسـتيقظت الزوجة وهي مذعورة ، ولكنه بذل كل ما فى وسـعه حتى ابتسـم لهـا ، ثم عاجلهـا من قبـل أن تنبـس :

ـ « يـا امرأة • لقـد أيقظتـك السـاعة كي أزف لك خـبراً بالسـعادة • »

فقابلته ببرود وضيـق وارتعشـت أجفانهـا شـبه المغمضة فى احتجـاج ذاهـل ، فقـال :

ـ « لقد قررت أخـيراً أن اخلي سـبيلك يا امرأة •• »

وفتحت عينيهـا وهبت جالسـة ، وحدجتـه بنظرة مرتابـة وهي تتثاءب وتتسـاءل فى الوقت ذاتـه :

ـ « بمـاذا تخرف يا رجـل ؟ ! .. »

وسـاءه أن تفضحـه دموع الهزيمـة ، فحبسها داخل مآقيـه، وقوم ما اسـتطاع من نبرته الباكيـة وقال وهو يرتعـش

ـ « لسـت اخرف ، فهـل يضيرك هـذا ؟ ! .. »

وانتظر أن يتلقى ردها ، فسـقط قلبـه واجتاز لحظـة عسـيرة. ولكنها ظلت سـاهمة . وقرأ فى وجههـا الجميـل ، خفراً ممزوجـاً بخلجات من سـعادة حقيقية ، فسـعل كي يـذود عن حلقـه شـيئاً اعترض سـبيله ، وتمتم فى نصف وعي

ـ « كنت أعـلم أنك سـتوافقين . ولئن يمنعك الحيـاء مـن نطق كلمـة الموافقـة ، فتلك فضيلة . ثقي انهـا مشـيئة الله وليست مشـيئتنا نحـن . »

وهنـا زايلهـا حياؤهـا بعض الشيء فضحـك وجههـا ولثمت يـده كالشـاكرة .

وهو يتحـول الى جانبـه الاخر ليهجع قال لهـا:

ـ « وما دمنا قد اتفقنا على هذا ، فان خير البر عاجله . انتظريني صبـاحاً عند باب المحـكمة الشـرعية وأرجـو أن تنتهي المسـألة عـلى عجـل ... »

ولم يهجـع بالطبـع بل مضى يبحث عن الجـديد من المنـاظرات والمقارنات بين غريمـه وبينـه ، كي يبرر هزيمتـه . وفى تلك الليلة الطويـلة سـامته نفسـه من العـذاب والمذلة مـا لم تسـمه تلك السـنوات العشـر برمتهـا .

وبكر صباحـاً الى بيت الاسـتاذ كـرجي كي يطلعه على قراره، ويطلب منـه اذناً بالتغيب عن المدرسـة . ولاحظ هـذا عليـه ، من سمات الهم والقلق ما لا يخفى على أحـد ، فقـال له

ـ « تشجع يا صاحبي • أيحزنك استغناؤك عنها الى هذا الحد وهي فى الواقع لم تكن لكِ فى أجد الايام ؟ ! •• »

فتظاهر استا يهودا بالجلد وأجاب :

ـ « ليس الامر كما تعتقد يا صديقي • فاليوم سوف أنزع عني ثوباً من الجذام لقيت منه الامرين • ولكن يحز فى نفسي أن لا يجد تلاميذي الملاعين من سيضربهم طوال هذا اليوم • »

وفى طريقه الى المحكمة ، صادف أحد تلاميذه يحمل كتبه ويمضي الى المدرسة متباطئاً • فصرخ به بأعلى صوته :

ـ « انت يا ولد •• تعال هنا • »

واقترب الصبي من استاذه ، فعاجله بشراسة

ـ « ان الناس ينامون فى بيوتهم ، وليس فى الطريق الى المدرسة• ولكنني سأعرف كيف اوقظك من نومك •• افتح يدك • »

وأخرج عصاه من عبه وهوى بها على راحة المسكين ••

واصطكت أسنانه • ومن خلالها مضى يدمدم مع كل ضربة عصا

ـ « حصتك وحصة الملاعين معك •• حصتك وحصة الملاعين معك •• »

وظلت العصا تلعلع على الكف النحيلة حتى استوفى ثلاثين ضربة • وحتى تمزقت العصا اربا واستحالت الراحة الصغيرة الى قطعة من دم •

وألقى « استا » يهودا بعصاه المهشمة الى قارعة الطريق ••

والطفل البائس يكمل مسيرته الى المدرسة ويبكي ••

واستدار الرجل الى الجهة المؤدية الى المحكمة ، حيث المرأة المجدودة تنتظره على أحر من الجمر • وتنفس الصعداء وانتصب فى اعتداد • وتمتم بصوت فيه تشف وفيه عزاء

ـ « الآن يمكنني أن اطلقها وأنا ناعم البـال .. »
ثم سـار فى سـبيله مرفوع القامـة .....

اللعبـــة والدمعـــة

قال الجالس على يمينه

ـ « هذا مكان رائع ! .. انه يصلح أن يكون المأوى الامين للفارين من السجون ! . »

وقهقه الجالس أمامه وأردف

ـ « لو بحثت عني الشياطين وأنا فى هذا المكان ، لما وقعت لي على أثر . »

وألقى الجالس عن يساره بعود الثقاب ونفث نفساً طويلا من الدخان واستطرد

ـ « دعوا الشياطين والفارين من السجون فى أماكنهم ، وابدأوا اللعب . ان الوقت من ذهب فلا تحولوه بهذه الاحاديث الفارغة الى وقت من طين . »

أما هو فقد مكث صامتاً ، ومد يده الى الجيب الصغير فى بنطلونه ، فأخرج منه حفنة من النقود المعدنية الصغيرة . وعدها على مهل ثم ألقاها أمامه فوق الطاولة .

كان مرتبكاً ... لم يكن متحمساً الى شيء أبداً ... كان حماسه يشكو من الغثيان ، والزحام فى المقهى شديد ، ويكاد أن يصيبه بالدوار . وأنفاس الدخان تتهادى أمامه من كل ناحية فتضرب وجهه وتخترق أنفه ، وتعتصر رئتيه .. وانتظر مليا ثم تنهد ولم يلبث أن انتبه الى صوت الجالس على يساره يقول له :

ـ « وقعت القرعة عليك . فابدأ التوزيع . »

وقلب الورق ، وقبل أن يوزع ، ألقى بعشرة قروش الى قلب المائدة، ثم بدأت أصابعه تنقل الورق على اللاعبين . وبعد أن دارت راحته

حول الطاولة خمس دورات ، اكتفى • ودق قلبه وهو يرفع أوراقه ببطء شديد الى وجهه ، وحرك الورقة تلو الاخرى ببطء أشد ، ثم أغمض عينيه •

لم تكن هذه المرة الاولى •

فى هذا الركن القصي من المقهى ، هذا الركن المنعزل عن العالم كله ، تعود أن يقضي امسياته الاخيرة • وفى كل مرة يعاوده نفس الغثيان وتضرب وجهه ذات الانفاس الكريهة من الدخان، وتكاد أن تخنقه •

ورفع رأسه قليلا ، فاصطدم بحزام متين من الرؤوس الممتدة الى الشارع ، وأخفق فى رؤية ذلك المنفذ المؤدي الى شعاب الحياة الواسعة ، فتساءل فى سره « لماذا فى هذا الركن بالذات ؟ ولماذا فى هذا النوع من الغثيان والاختناق ؟ ولماذا يعتقد أحد الزملاء أن هذا المكان يصلح للفارين من السجون ، وأنا لم أدخل فى حياتي سجناً أبداً ؟ ! •• »

ودخل زملاؤه الثلاثة اللعبة تباعاً • وعاد فتفحص أوراقه ثم ألقى بها جانباً ولم يدخل •

وقال الجالس عن يمينه :

ـ « اثنين ورق • »

وقال الذي بعده :

ـ « ثلاثة ورق • »

وغمغم اللاعب الثالث

ـ « ورقة واحدة • »

وانتهى من التوزيع ومكث ينتظر :

عشرة قروش أولى ضاعت من جيبه .. انها البداية ! ... وساعة معصمه يكاد يسمع دقاتها ، ولكنه لا يجرؤ على أن يلقي اليها بنظرة ... ما أرخص الوقت فى هذه الايام ؟ ! .. بل ما أغلاه ؟ ! .. لقد كنت تأخذ مقابل هذا الوقت الليرات الكثيرة ، أما الان فأنت تدفع ثمنه من جيبك ! . هذا الوقت .. انه يقصر ويطول ، ويخف ويثقل ، ولكنه دائماً لا يخلو من ثمن ، وما أعجب هذا الثمن ؟ ! ..

وانتبه الى أن الذي طلب ثلاثة ورق ، ربح الجولة وجرف النقود المجتمعة فى قلب الطاولة الى جانبه ، فخطرت له فكرة أن الاعتماد على المجهول أحياناً قد لا يخيب الظن ، وأن هذا المجهول ربما ينقذ المواقف التي تبدو بها الاحتمالات ضئيلة . ولكن هذه الفكرة لم تسعف شعوره الملحاح بالغثيان ، فتمنى لو يتاح له أن يدخل اصبعه فى جوف حلقه ليتقيأ ويستريح .

وبدأ الذي على يمينه يوزع . وبدأ قلبه يدق على صدره من جديد . واكملت له الورقة الخامسة « دوبير بنات » فقرر أن يدخل هذه المرة . وقال اللاعبان اللذان قبله :

ـ « باص . »

فأسرع هو يقول :

ـ « افتح . »

وانتظر كلمة اللاعب الاخير ، فاذا به يقول بعد تردد

ـ « باص . »

واستعاد قروشه العشرة وهو يحس بفرحة صغيرة . هذه المرة عوض خسارته . أما الوقت فانه لم يعد الى الوراء . لقد انقضت برهة أخرى .. وبين الخسارة وتعويضها، غادرته برهتان

بلا ثمن • الاولى أخذت ، والثانيـة أعادت ••• مجرد هباء ولكن ••

وعاد يتسـاءل « ماذا بعد لعبة الزمن الحقيرة هذه ؟ •• وفى نظر البعض ان الوقت من ذهب ، وفى نظره انـه من طين سـواء تبـدد فى اللعب أو فى الاحاديث التافهة أو هنالك فى بيتـه •••• »

وتذكر أن زوجته مريضة ، وأن مرضهـا قد أزمن ، وان الادوية التي تشربها ، لا تختلف عن المـاء الذي يشـربونه من غير مـا ظمـأ عوض الحليب الذي تخثر ولم يعـد صالحاً للشـرب • وقال لنفسه: ان الاطباء لا يحرجون عن التقليد ، فلا يصفون للمريض الا نوعا معينا من العقاقير ، يجلب من الصيدلية مقابـل « روشـيتة » • ولو كانوا يريدون ان تشفـى حقـاً ، لكتبـوا لها شيـكاً على احـد البنوك ، يصرف لهـا بقيمته الغـذاء اللازم لعـلاج فقر الدم • وهجم عليـه شـعوره بالغثيان فتجشـأ وهو يحـس بالاشـمئزاز • وتململ على مقعده بضيـق ثم مد يـده الى علبـة السـجائر الرخيصة الملقـاة على الطاولة ، وقال للذي على يساره بأدب :

ـ « أتسـمح ؟ • »

وطالعـه الجميع بنظرة رجحت بهـا السـخرية على الدهشـة•• وقهقهوا جميعـاً الا صاحب العلبة • وقال أحدهم :

ـ « أنت عدو الدخان اللدود ، تطلب سـيجارة ؟ ! •• »

وقـال الآخـر :

ـ « ماذا جرى ؟ ! •• انك لم تخسـر شـيئاً بعـد • »

وكان صاحب العلبة أشـدهم حماسـاً للعب ، فصاح محتجاً وهو يشـعل لـه سـيجارتـه

ـ « كفى• فأما أن نلعب، أو أننضيع الوقت بتعليقاتكم السخيفة•»

وشهق بأول نفس مجه وظل يسعل • وقال بصوت مسموع، وكأنما يخاطب نفسه ويرد عليهم فى نفس الوقت :

ـ « ما ضر لو اجرب الاختناق المباشر مرة ، بعد أن جربت الاختناق غير المباشر مرات عديدة ؟ ! • »

وفى نفس اللحظة ، تخيل زوجته وهي فى حالة اغماء • وهو يرش على وجهها الماء البارد ويفرك أطرافها بجنون ، وابنهما الوحيد الصغير يبكي بذعر ويصرخ فى امه بهلع •• و ••

وسحب نفساً عميقاً آخر ، وقد صمم على أن يختنق بالفعل • ولكن أنظاره وقعت على الجالس أمامه وهو يوزع الورق من جديد ، فعاوده نفوره من غثيانه ومن اختناقه ومن طعم السيجارة الغريب الذي يذوقه لأول مرة • وألقى بها تحت الطاولة وسحقها بحذائه فى حقد ، وفى غضب ، وفى عنف •

وفى هذه الجولة لم يكشر له الحظ • وخيل اليه ، أنه يبتسم من خلال العشرات الثلاث المخنوقة بين أصابعه • وأراد أن لا يقيم وزناً لهذا الإقبال المفاجيء من جانب طالعه ، ولكنه رغماً عنه هتف بشيء من الحرارة

ـ « بوط • نصف ليرة • »

بيد أن الذي يليه حك رأسه وقال معلقاً :

ـ « لا يليق هذا الحماس كله ، بنصف ليرة فقط • اجعلها ليرة كاملة • »

ونظر الى القطع المعدنية الصغيرة الملقاة أمامه ، ثم الى العشرات الثلاث المخنوقة بين أنامله ، ولسبب ما لم تواته الجرأة على مضاعفة المبلغ ، فلام اندفاعه وألقى أوراقه ولاذ بالفرار •

وعاودته أفكاره من جديد ••••

ان الزمن يطالبه بالثمن مرة اخرى ... وشعوره بابتسام طالعه لم يكن في محله .. فلشد ما يضلل هذا الحظ ؟ !.. وانتابته فجأة نوبة سخرية ، فألقاها صامتاً على هذا العدو الخطير ، طالعه. وقال لنفسه فى يأس «ليت هذا الطالع يمسك بخناقي فى اللعب، ويتركني اعالج اموري فى الحياة . فما أهون خسارة اللعب وما أفدح خسارة الحياة » .

وتخيل هذه المرة ابنه الوحيد الصغير . واحتضنه فى مخيلته بكل ما اوتي من قوة . ان حبه له ربما يفوق حب الاباء جميعاً .. ولكن ابنه لا يصدقه .. انه أحياناً ينفر منه .. وأحياناً اخرى يتهمه بالكذب .. وكثيراً ما تلوح له القبلات الحارة التي يطبعها على جبينه ، قبلات خادعة .. وطالما قال له « لا تنتظر أن تعوض عن كذبك بهذه القبلات . فلو كنت حقاً تحبني لجلبت لي ما كنت تجلبه لي فى الماضي من هدايا جميلة ومأكولات لذيذة . »

وأحس أن الايام تدأب على توسيع الشقة بين ابنه وبينه، فلعنها مع طالعه . وتمنى لو يستطيع ذلك الابن الصغير أن يدرك الحقيقة. ولكنه ما لبث أن ندم على امنيته. واقتنع، بأن من الضروري أن يبقى وحيده جاهلا كل شيء ، بعيداً عن المنغصات . ولا بأس فى أن يتهمه بالكذب .. ولا بأس فى أن ينفر منه .. ولا بأس حتى فى أن يكرهه ، فهو حقاً يستحق هذه الكراهية .

وقطع أحدهم عليه تأملاته ، فهتف به وهو يقرقر

ـ « قلنا لك انك مدخن فاشل . ولقد ألقيت السيجارة منذ ساعة ، ولكن عينيك ما زالتا تدمعان . »

واكتشف ، أنه كان يبكي . فمد بنصره الى عينيه ومسح دموعه. وأيقن ، أن السيجارة التي سحقتها أقدامه بقسوة كانت سبباً

فى ابعـاده عن الفضيحة • وانهـا هي التي منعت سـقوطه فى موقف غايـة فى الاحـراج •

وواصل اللعب فى شـرود • ووزع الورق الجالـس على يساره، فأدرك أن دوره فى التوزيع قـد اقترب • وأحـس بتضاعف اختناقه، فهو يكره دوره فى التوزيع ، لان ذلك يلزمه بالمجازفة بعشرة قروش• ودراهمه ضئيـلة • وكل ما يتمناه أن تحسـن اليـه هـذه النقود، فتظل الى جانبـه وتعاونه على قتـل هـذا الوقت المجـرم • ومـع ذلك فقد فتح هـذه المرة • ودخل معـه اللاعبون كلهم • وقال وهو يكشـف عـن أوراقـه :

ـ « دوبيرآس » •

فألقى الذي على يمينه أوراقه جانباً • وحذا الجالس أمامـه حذو الذي على يمينـه ، ولكن الذي على يسـاره داهمـه وهو يكشـف عـن أوراقـه

ـ « فـول عشـرات • »

وطمـس قلبـه فى معدتـه ثم عاد منهـا مغموراً بقذراتهـا ••• نقوده تتضاءل من جديد •• ان الوقت يكابر عليه ويبهظ له الثمن •• تـرى هـل يرحمـه مـرة ؟ ! •••

وأمسـك الورق بيديه • وقبل أن يوزع ، قال له أحدهم :

ـ « مشـط الورق • »

وأراد أن يمشـطه فلم يعرف • وتناثر من بين يديه على الطاولة• وسـخر منه الذي على يمينـه والذي أمامه ، أمـا الذي على يساره فانه تطوع بالتقاط الورق وتمشـيطه بمهارة فائقـة •

وعاد الورق الى يده وعاد يوزع • ولم يغازل أوراقه هـذه المرة بل أنضاها بوجهه فى جرأة عجيبـة . ورغم ذلك بدا لـه أن الدورة

الثانيـة وثيقة الشـبه بالدورة الاولى • وأن طالعه النحس قد أصر على مشـاركته اللعب ، فأعرض عن دخول الجولة • وقال له أحدهم

ـ « أنت لاعب غير مجتهـد • وتلقي أوراقك بسـرعة • ومـن الجائز جـداً أن يفاجئـك الحظ لـو حاولت أن تغـير عـددا من هـذه الاوراق • »

ولم يعره اهتماماً •• فقد كانت كلمة المجتهد كافيـة لاثارة أفكاره والهـاب عقـله مرة اخـرى •

الاجتهاد فى نظره ، لا يعني سـوى الفشل الذريع • وهـذا رأي لا يخرف بـه عقـله ولا يسـتطيع أحـد أن يتهمـه عليه بالجنون• انه ما انفك يعيش فى لعنة هذا الاجتهاد ويتمرغ فى رغام ذلتـه • وهو يريد أن يعرف لمـاذا يفسـر الناس الكلمـات بألسـنتهم تفسـيراً يناقض تفسـيرهـا فى تصرفـاتهـم ؟ ! ••••

أجـل • لقد كان فى أحـد الايام موظفاً مجتهـداً • وكان يعمـل بقدر أنفاسـه ودقات قلبـه • كان يعتقد بالاخلاص ، لان الاخلاص فضيـلة ، والاجتهـاد فى العمل نوع من الاخلاص • أمـا زملاءه فى الدائرة ، فكانوا يعتقـدون ، أن اجتهـاده نوع خطير من المنافسـة والتحـدي • ويومـاً قـال لـه أحـد الزمـلاء وغيظـه يفيـض مـن أطـراف صـوتـه :

ـ « اسـترح قليلا واقرأ جريدة الصباح •• ان أحـداً لن يهبك جائزة على اقبالك المزمن على العمـل • »

وكان رئيسـه المباشـر كسولا وتافهـاً ولا يصلح لمهمتـه ، قدر ما يصلح أن يكون بائع « سـمسمية » متجولا على رياض الاطفال• وقال لـه هـذا الرئيـس مرة يحـذره :

ـ « اسمح لي أن أقول لك بأنك رجل فاشل فى الحياة وانك لا تقدر أن تتخلص من هذا الفشل ، ما لم تغير من أساليبك وتحسب للآخرين حسابهم . »

ولم يشأ أن يأخذ برأي من اختار له أن يكون بائعاً متجولا ، وكان يصر على أن الفضيلة لا تقع على الارض ، وان الاجتهاد لا بد وأن يقف فى صف صاحبه يوماً من الايام .

وذات يوم، أعلنت الحكومة عن سياسة التقشف ، فلعلعت الالسنة فى كل مكان . وقال رئيسه المباشر :

ـ « هذه سياسة الساعة ... انها تجتاح العالم بأسره . »

فأجاب :

ـ « انها موضة العصر الحديث » وقال فى نفسه : « أجل. انها موضة العصر ، تقشف فى الخير واسراف فى الشر . »

وقال رئيسه :

ـ « ان التنسيقات ستشمل الدوائر الحكومية والخاصة معاً .»

فتساءل

ـ « ولماذا ، أليس كل يقوم بمهمته ؟ ! .. »

فتضاحك رئيسه وهتف

ـ « هنالك ما يسمى بالبطالة المقنعة .. الاف من الموظفين يمكن الاستغناء عنهم لان مهماتهم مقتصرة على قبض المرتبات . »

أما هو فعاد يقول بسخرية :

ـ « هذه السياسة شبيهة بحكاية ـ أين اذنك ؟ فيضع يده اليمنى خلف رأسه ويشد بها على اذنه اليسرى ويقول هذه ـ .»

ـ « أنت لا تفهم فى السياسة . »

ـ « ولكنني أفهم فى الاقتصاد . »

وفكر طويلا فى هـذه السـياسة ، وفى التنسيقات المتوقعة، فوجد كارثة على الابواب ، واكتشـف أن الدمقراطية كلمة جوفاء ولكنـه كان واثقاً من أن اليوم الذي سيقف فيه اجتهاده الى جانبه سـيأتي مع هـذه الكارثـة المسـماة بالتنسيقات ، فغمغم وهـو يلقي فى ظهـر رئيسـة نظـرة سـاخـرة

ـ « اذهب بع السمسمية ولا تتفلسف فى امور الفشل والنجاح ٠»

وفى الاسـبوع التـالي اسـتدعاه مدير فرع المؤسـسـة وناوله مظروفـاً مغلقـاً وقـال :

ـ « يؤسـفني جداً أن ابلغك كتاب اقالتك ٠ »

وسـقط قلبـه الى الارض ، وسـقط معـه اخلاصه واجتهـاده ومثـله العليا كلهـا ولم يبق فى يده غير المظروف المغلق ٠ وتمتم

ـ « لمـاذا ؟ ! ٠٠ هـل قصرت ؟ ! ٠٠ »

ـ « بالعكس ٠ أنت موظف يسـتحق التقدير ، ولكنهـا أوامر صـادرة عـن مراجـع عليـا ٠ »

ان المراجع العليا عميـاء والمراجـع السـفلى مشـلولة ٠ ولـم يصدق الا رئيسـه المباشـر حين قال ، ان اجتهاده هو سـر فشـله في هـذه الحيـاة ٠

وأراد أن يلعن المراجع العليـا والسـفلى والسـاسـة والاقتصاد وان يسـب الفشـل والنجـاح والحيـاة كـذلك ، ولكـن صوت الجالـس على يساره سـبق رغبته هـذه وصاح بـه :

ـ « تكلم ٠٠ نحن ننتظرك منـذ سـاعة ، فهل جئت تلعب ، أو تحـلم بالصعـود الى القمر ؟ ! ٠٠ »

وبدون أن يرى أوراقـه ، قذف بهـا بعيـداً عنـه الى وسـط الطاولة وغمغم بصـوت خائر مرتعـش

ـ « لـن اشـاركم اللعب فى هـذه الـدورة • انني أشـعر بالدوار وافضـل الاسـتراحة قليـلا • »

* * * * *

ولـم يسـترح •

وظلت أفكاره تصب على بدنه بترولا وتشـعل فيـه النار • ومضى وقتـه بطيئاً وهو ينتزع منه ثمناً أغلى من النقود وقرر أخيراً أن يلعب من جديد ، وعزم على أن لا يفكر بشيء ، وأن يضع عقـله وتفانيـه وروحه كلهـا على الطاولة التي أمامـه • وعادت لعبة الزمن الحقيرة تأخذ منـه ثم تعود فتعطيـه • وذاب الوقت رويداً رويداً • وتقلص حزام الرؤوس المتين الفاصل بينـه وبين فوهة الحيـاة الواسعة حتى تلاشى • وترك الحلقـة الجالـس على يسـاره ثم تركهـا الجالـس على يمينـه ، وبقي الجالـس أمامـه يلاعبـه بـلا هوادة • وقـال لـه مداعبـاً وهـو يلحظ حماسـه المفاجيء •

ـ « أنت مقامر خطـير • بدأت بالفتور وانتهيت الى الحمـاس وهذه ميزة المقامرين • أما المتحمسون منذ البداية فقد ولوا جميعاً • »

واكتفـى بـأن قـال بضيـق :

ـ « العـب • »

ولكن صاحبـه بدا ثرثاراً بالفطرة فلم يكتف وأردف قائلا :

ـ « لعلك مثـلي لا تكترث بسـلاطة لسـان زوجتـك وتعرف كيف تقطعه قبـل أن تبـدأ بحسابك على هـذه السـهرات الممتعة»

وعاوده الغثيان والاشـمئزاز وأحـس أن هـذا الرجل يشـنق أمامـه كرامتـه المطعونـة فصاح بـه منتهـراً :

ـ « العب ولا تتكلم فوق طاقتك . »

وظل يلعب . وظل الوقت يأخذ منه ويعطيه . وأوشكت الساعة على الحادية عشرة ، فانتابه احساس ملأه رهبة ... أخيراً عليه أن يعود الى بيته .

وتذكر زوجته المريضة . وتذكر ولده الحبيب الذي يتهمه بالكذب . وتذكر أحداث اليوم السخيفة وتجواله بين مكاتب العمل دون جدوى ثم اعتكافه على هذا النوع من الغثيان والاختناق حتى هذه اللحظة ، فأدرك أن مشكلة الوقت لا تفارقه وتمنى لو ينهي هذه المشكلة وينتحر . وجاء تعبيره عن هذه الامنية بأن هتف بقوة

ـ « ريستي . »

ونظر فى أوراقه فلم يجد بينها غير آس واحد . وضحك فى سره بتشف . فهذا أيضاً ضرب من الانتحار على ما به من رذالة . وندت عن غريمه كلمة موافقة ، فعد دراهمه ووجد أنها ليرتان وبضعة قروش . ثم قذف بها الى قلب المائدة . ولما فعل صاحبه مثله ، طلب ثلاثة ورق . ولم يفكر فى اعتصارها كما يفعل اللاعبون طلباً للمفاجأة، بل ألقاها أمام عينيه مرة واحدة . وكان حقاً ينوي على الانتحار ولكن دهشته سرعان ما استبدت به . وغيظه من طالعه بلغ ذروته. ان هذا الطالع يشاكس رغبته على طول الخط ، وهذه ثلاثة آسات قد التقت بآسه الوحيد وصنعت له « كاريه آس » .

وألقى بها على المائدة وقال بهدوء :

ـ « كاريه آس . »

وزاغت عينا غريمه ورمى بـ « الفول روآ » الذي بحوزته بعصبية، فتبعثر الورق على الطاولة وسقط بعضه على الارض ، ثم لم يلبث أن فر هاربا .

وبقي وحده • التفت ، فلم يجد غير صاحب المقهى يحدقه بنظرات قد فرغ منهـا الصبر • ثم نظر الى المائـدة فألفى الدراهم المبعـثرة ملقـاة أمامه وحـده • لقد ضاعفهـا بضربة طائشـة ، ورغم كل ما به ، عاودته فرحة صغيرة • ووضع الدراهم فى جيب سـترته من دون أن يعـدها وخـرج •

ولازمتـه فرحته الصغيرة حتى اكتشـف أن جميـع الحوانيت فى الشـارع قد اغلقت ولم يعـد بمقدوره أن يشـتري بالنقود التـي ربحها هدية متواضعة لابنـة الحبيب • ورأى الطرقات مقفرة • وعرف أن الباصات قد توقفت منـذ بضع سـاعة وان عليه أن يقطع الطريق الى بيتـه مشـياً على الاقـدام •

وسـار فى الظلام بخطى سـريعة • ولم يعترضـه فى الطريق غير سكير يبول فى زاوية ، وكناس يثير بمكنسـته غبار الشارع ، وكلب يقفز مذعوراً من صفيحـة قمامـة •

وعندما لاح له بيته من بعيد ، تعثرت خطواته •• ولهث صدره •• وقال فى نفسـه « غدا اشـترى له هدية بالنقود التي ربحتها » • ثم لمح وهو يقترب ، نوراً خافتاً ينبعث من خلف النافذة فخيل اليـه أنـه يرى وجهـاً شـاحباً لاصقاً بزجاجة النافذة وعيناه تغوران فى ظلمـة الطريق • وأدرك أن الوجه ، وجه زوجته ، فانتابته رعشرة هزت بدنه ولم يدر ما الذي جعله يهلع هلعاً جنونياً كما لو كان يقـذف بـه الى جـوف أتـون ملتهـب •

وعندما شـارف عتبـة داره ، تردد طويلا ثم أخرج مفتـاحه الصغير من جيبـه وفتـح البـاب •

وانسـل الى الداخـل وهو مضطرب ، ودخـل الغرفة فاصطدم بطلعة زوجته الكالحة ، وقبـل أن يسـتعيد أنفاسـه هتفت به :

ـ « أين كنت حتى الآن ؟ ! .. »

ـ « بحثت عن عمـل .. ثم .. ثم ذهبت الى المقهى » .

فصاحت ثانيـة

ـ « فى المقهى حتى هـذه السـاعـة ؟ ! .. لقـد حسـبنا أن سـيارة قـد صدمتـك . »

فهمـس فى تعاسـة

ـ « اطمئني .. عمر الشـقي بقي . »

لكنهـا ازدادت صراخـاً

ـ « مـا هـذا ؟ ! .. أول أمـس حتى الثامنـة . وأمس حتى العاشرة . واليوم حتى منتصف الليل . هـل جننت ؟ ! .. هل فقدت شـعورك بغـيرك ؟ ! .. »

وأحـس بكل كلمـة قالتها كأنها صفعة تنهـال على وجهـه .. وأراد أن يبكي ، ولكنـه أصر على أن يتحامل على دموعه ويحبسـها خلف أجفانـه . وخفت صوته وقال كالمتذرع

ـ « اخفضي من صوتك . رحمـة بنفسـك ولكي لا يستيقظ الطفـل من نومـه . »

فضحكت كالسـاخرة وازداد صوتهـا علواً

ـ « أنت تخشى على الطفـل ؟ ! .. انه يكرهك . انـه لا يطيق أن يراك . انك تتدهور .. تتدهور ! . »

وأراد أن يصرخ بهـا « كفى » ولكنـه فكر بولده النائم ، فعدل عن جوابهـا وهرب الى غرفـة اخرى . وظلت سـهامهـا تصطـدم بظهـره الى مـا لا نهـايـة .

وحاول أن يتشاغل عنها ، فأخرج من جيبه نقوده ومضى يعدها ... واكتشـف أن ربحـه من اللعب كان أكـثر ممـا توقعـه .. وأراد

أن يقول لنفسه ثانية « غداً سأشتري له هدية بهذه النقود» بيد أنه عدل عن ذلك فجأة .

أحس أن ذاته تتضاءل وأن روحه تنكمش حتى تغدو فى حجم هذه النقود اليسيرة .. وشعر ، بأنها نقود حقيرة تافهة وأنه لا يقل عنها حقارة ولا تفاهة ..

عاد فألقاها فى جيبه بيأس قاتل ..

وتحشرجت داخل عينيه دمعتان كبيرتان .. قاسيتان .. وراحتا تحزان فى أجفانه حزاً عنيفاً متواصلا .. وفى هذه المرة ، عجز عن مقاومتهما ، فسالتا على خده كما سالت من قبل دموعه التي خيل لاصحابه فى المقهى ، انها مجرد دموع يذرفها الفاشلون من المدخنين .

طفـــين الذباب

« اذا راود الغثيان ذوقك وأنت تقرأ هذه القصة ، فلا تلعنني • الحياة لا تعترف بالأذواق • وهذه أحداث مقتطعة من الحياة• بكل دقة •• وأمانة •• »

فى ربيع عام ١٩٤٧ كانت راحيل تجتاز أدق مراحل حياتها • وكانت فى تلك الآونة بالذات ، قد قطعت من شوط هذه الحياة ستة عشر عاماً تركتها وراءها فى صمت ومن دون أن تخلف أعقابها فوق أرضية الزمن آثاراً عميقة •

الآن كانت تحبو نحو عامها السابع عشر • وكانت ثمة حيرة قلقة وغامضة تجابهها دونما سبب • وكانت هذه الحيرة عميقة، وذات سمات شديدة الشبه بتلك التي واجهتها قبل بضع سنوات عندما بدأت أثداؤها تتكور ومعالم جسدها الطفل تتغير • فى ذلك الوقت ، لاحت لها التطورات التي مرت بها ، ملموسة ورهيبة ومتلاحقة حتى كانت الطامة الكبرى حين داهمها الحدث الذي كاد أن يفقدها الصواب • على أن المجربات من النساء طمأنها وقلن لها ببساطة ، انها لم تعد طفلة ، وان فحوى الامر كله ، يكمن فى انها أصبحت من الآن فصاعداً فى عداد النسوة البالغات • وعاودها الحدث الرهيب بانتظام وفى مواعيد شديدة الدقة . ومع تكراره تعودت على أن لا تفزع ، كما أنها أدركت مع مرور الوقت لماذا كان الكبريات يضحكن من مخاوفها وهن يسمين لها ذلك الحدث الجسيم بالعادة الشهرية •

ولم تكن راحيل وهي تخطو خطواتها المصيرية باتجاه عامها السابع عشر تعلم بأنها قد بلغت هذه السن الحاسمة • فالاغنياء والمتعلمون فى « البتاويين » و « الكرادة الشرقية » هم وحدهم الذين يحصون الايام ويقيمون لأنفسهم فى الذكرى السنوية لولادتهم أعياداً يوقدون فيها الشموع بعدد ما مر من سنيهم كما يأكلون الكعك ويملأون الدنيا بالزغاريد ، وربما يقيمون أيضاً الحفلات الراقصة فيلتقي الفتيان بالفتيات ويجتمعون دون رقيب فيتعانقون ويضع الشاب منهم راحته على كتف فتاة يختارها ثم يقترب صدره من صدرها حتى يتماسان • واذاك يشعر كل منهما بأنفاس الآخر ويقدر أن يعد له خفقات قلبه • وكان هذا قد حدث فى منزل خالتها التي ابتسم لها الطالع حين تزوجها رجل ميسور الحال من البتاويين• وكان داود ابن خالتها قد أقام حفلا رائعاً بمناسبة بلوغه العشرين •• وكان قد دعاها بنفسه الى حضور الحفل ، وبذلك تسنى لها لأول مرة منذ بدأت تتلفع بالعباءة أن تتضيها عنها فى مكان يغص بالغرباء كما التهمت نظراتها النهمة المدهوشة كل ما جرى من حولها من أحداث جديدة امتزج بها الجنسان دون حواجز • وفى كل ذلك ظل وجوم حيي يلازمها فى انفصال مشوب برغبة مبهمة وهي تشرف على ذلك كله من زاوية بعيدة مهملة •

أما فى هذه الاحياء الشعبية ، فان مسألة السن كانت بمثابة السر الباتع الذي لا ينكشف لاحد الا عرضاً أو عن طريق التخمين وحده • فلم يكن أحد يعبأ بالايام التي يعيشها الانسان ، مثلما يعبأون بها هنالك فى البتاويين أو فى الكرادة الشرقية ، بل كانوا يعدونها منة الله لعباده فيتركونها فى بركتها ولا يخوضون بها الا فى مناسبات نادرة • وفى مثل هذه المناسبات لو وجدت ، كانوا يتعقبون آثارها على هدى جهل مطبق ، فلا يرشدهم فى ذلك غير أطياف

شاحبة لواقعة مشهورة حدثت ابان الوضع ، كوباء اجتاح البلد ، أو حرب بدأت أو وضعت أوزارها ، او فيضان ، او اي كارثة من هذا القبيل بقيت آثارها عالقة فى عقولهم البليدة، الشفافة فى معظم الاحيان .

كانت راحيل تستقبل عامها السابع عشر بذلك الجهل المطبق وبقلق متزايد مضطرد . وكانت رغبة مشوشة المعالم ، ملحاحة ومخجلة تنتابها بين فينة واخرى . رغبة وردية تضرج وجهها بالدم ، ومكهربة تغمر بدنها برجة قلما لا تكون لذيذة ولكنها الى جانب ذلك معذبة دائماً ، مربكة ، ومثيرة للتساؤل . وكانت هذه الرغبة على ما بها من غموض مصحوبة بدوافع لم ترتح لها راحيل كثيراً لانها كانت تطالبها بقليل من الخروج على وتيرة حياتها الرتيبة . وفى بعض الاحيان بالارتفاع عن القيود المسلم بها ، تلك التي تصفد تصرفاتها من طرف خفي ولكنه حقيقي وغير قابل للتزحزح . وكان رأسها الخاوي يمتلىء وتفعمه أفكار غريبة وجديدة حتى انزاح ذات يوم وعلى سبيل الصدفة، جانب من الغموض المحيق برغبتها المكنونة اللجوجة، فاذاهي تقول لنفسها همساً وفى منأى عن الاسماع الاخرى ... « طوبى لمن تتزوج ! . طوبى لمن تتزوج ! .. » .

وكانت هذه الهمسة الحذرة تتجاوب فى كيان راحيل تاركة أصداؤها جرساً مطرباً حاولت أن تمسك بتلابيبه فانفلت عن ادراكها كما تفلت اللحظات الخاطفة ممن يتمادى فى ترصدها بغية اقتناصها فلا يمعن فى الحقيقة الا انسلاخاً وانشغالا عنها برغبته المفرطة فى الحماقة .

كان الجرس لذيذاً ولكنه كان ينتشر على أرضية من الغموض المحكم . وكان فى الوقت ذاته كالطنين المنبه الى أن جوانب جديدة من الرغبة الملحاحة سوف تتبلج من تلقائها مورطة راحيل بتصرفات

لم تتدخل فيها يد التصميم ولا الارادة ، وانما هي وليدة تلك التطورات التي تحدث بأسرها فى تلقائية ، وثمرة للدوافع الحديثة المنبرية من أعماق أعماقها مطالبة اياها بأشياء لا تخلو من رهبة ومن احراج ، حتى وان كان ذلك يتم فى سرية تامة وبعيداً عن أعين الناس .

ففي احد الايام ، وبعد ان تأكدت من أن أحدا لا يطاردها باهتمامه ، دخلت غرفتها وأغلقت وراءها الباب كما أسدلت الستائر الباليه ثم اتجهت الى الخزانة فانبرت لها نفسها من وراء مرآة كبيرة كانت متخفية خلف باب الخزانة الذي احترست كثيراً وهي تفتحه كي لا يحدث صريراً يألب من حولها انتباه العقول الشاردة عنها بعيداً خارج الغرفة المغلقة .

مكثت أمام نفسها برهة جامدة . كان الفضاء من حولها معتماً والضجيج المتناهي من الخارج ضجيجاً شاحباً كأنما لا تفصله عنها هذه الجدران الاربعة وحدها وانما عالم كبير مجهول لم تعلم بمكانه ولكنها أحست به احساساً عميقاً ومتمكناً . كانت منفصلة عن كل شيء خلا هذه المواجهة الداهمة لنفسها . وكانت البرهة الجامدة ، تمتص كل ما تخلف فى كيانها من قلق وتنقيها . وكانت تحررها ثم تقذف بها أخيراً الى قلب الصورة الماثلة أمامها . وكانت الصورة أكثر من مجرد صورة لها .. كانت هي .. هي نفسها . وكانت خلجاتها تترى أمامها فى ذات ذلك الجزء البسيط من اللحظة التي تخطر فيه على وجهها . وكان وجهها يحتقن وصدرها يلهث ، والثوب القذر الذي يغلف بدنها يختلج عليها فى ذلة . وكان هذا الثوب متواضعاً . بل حقيراً ومخروقاً فى عدة مواضع . وثمة رائحة مقيتة تنبعث منه فتزكم الانوف وتولد فى أسفل الحلق شعوراً بالغثيان.

ونظرت راحيل الى وجهها ثم الى صدرها المرتفع . وكان ثوبها يبدو لها ولاول مرة منفراً وباعثاً على الاشمئزاز. وظلت ترمقه بأعراض ثم فجأة أحنت رأسها الى صدرها وسحبت نفساً طويلا . كانت الرائحة خانقة . وكان هذا يحدث لها للمرة الاولى كذلك . فلم تكن تعلم من قبل بأنها فى مثل هذه القذارة ، وانها حين تمشي فى الشارع، تبث من حولها النتن الذي يحدو بالناس الى الفرار. وأحست كأنما جسدها يلتهب . وكانت ثمة دوافع غير رائحة الثوب الكريهة تحثها على التخلص منه . فلم تكن حرارة جسدها المرتفعة مجرد حرارة كتلك التي تجتاح الابدان اثر نوبة من الانفعال الطارىء. وانما سياطاً من نار تنهال عليها فى موجات متتابعة ومستمرة. وكان وجهها يحتقن تحت وطأة الدم الثائر وراء وجناتها المتوردة ، وصدرها يزداد ارتفاعاً وهبوطاً وسط ايقاع متعاظم من الخفقان المدمر . وأثداؤها ترتفع وتتضخم ثم تضيق ذرعاً بتلك الخرقة من الثياب التي تواريها عن الانظار . وفجأة كان الجمود يتحطم . واللحظات تتكور وتضحى قبضة رهيبة من فولاذ تكيل لمشاعرها لكمات مجنونة عاتية ومطلقة القسوة . وعاودها قلق فظيع فحاولت كبته وهي تقول لنفسها : « انزعي عنك هذا الثوب اللعين . » .

هنا ، اندلع صمت رهيب انساب من نفسها وصم اذنيها . كان كل شيء فى الداخل قد خمد . أما الخارج ، فقد كانت موقنة من أنه مصدر لخطر مجهول يتهددها . وشعرت بأن هذا الخطر ربما يكون داهماً وصاعقاً فى نفس الوقت . ولهذا السبب فقد أفنت لحظة متوترة أرهفت خلالها السمع الى ذلك الخارج المطنب بالمهالك. بيد أنها سرعان ما اقنعت نفسها بأن هذا الخارج ما انفك يغط فى ضجيج من الغفلة يشغله عنها بالسفاسف الحقيرة التي تنسج حياة هؤلاء الناس .

عاودها بعض هدوئها وعـاد اهتمامها فتكدس فوق بدنها وثوبهـا الذي ينبغي التخلص منـه • ثم وهي تكرس جانباً بسـيطاً وخفياً من هـذا الاهتمام للطوارىء ، نزعت عنها ثوبهـا وألقته الى الارض فى اهمال حاقد• وكانت الآن فى مواجهة ذاتها• عارية الا من قطعتين صغيرتين ما عتمتا تستران بعنـاد وقح على أدق مواضع جسـدها وأشـدها خطورة • وساحت أنظارها بين أجزاء جسدها البض بشيء من المتعة. فتسلقت سـيقانها الى فخذيها ومن هناك صعدت الى سـرتها المدورة فمكثت عندها هنيهـة ثم أدخلت اصبعها داخل تلك الحفرة الصغيرة المتكبدة لبطنها فبقيت بداخلها برهة مشحونة بالحذر المشرب باللذة • بيد أنهـا سرعان ما تركت ذلك كـله وتركزت فى القطعتين الصغيرتين من الثياب الباقيـة عليهـا • وكانت القطعة العليا تلف نهديها بفظاظة فتكتـم انتفاضتيهما وتقضي على تلك الخلجـات المرعوشـة المتمردة المنبعثة منهما كشـحنات من الكهرباء ذات ايقاع منتظم • أمـا القطعة السـفلى فكانت تغطي عورتها فيتبرم فضولها المتأجج وتشـعر لذلك بضيق عات يقبع بداخلها كالعقبة الجبـارة التي تحول دون دوافعهـا وتعوقها عن الانطـلاق • وكانت هـذه الدوافع مجهـولة كما كانت دائماً • ولكن راحيـل أحسـت وهي تمعن النظر فى هاتين القطعتين الصغيرتين من الثياب بشيء من الضيق • انها لم تبلغ بعد تلك الحرية المطلقـة التي تاقت اليهـا من طرف خفي • كانت ما تزال ناقصـة •• ومرقعـة • وبدت القطعتان كالاغلال التي مـا عتمت تصفد أجمـل مواقع تلك الحرية المنشـودة • وفجـأة كانت جرأتها ترتعد • انهـا ترهب نفسـها ودوافعها وأفكارها الغريبـة • فذلك هو ثوبها ملقى على الارض •• الغـلاف النتن القـذر الذي كان كالجدار الفاصـل بينها وبين مواجهة نفسـها بمثل هـذا الجمال والحرية • ورغم أنهـا لم تكن بعد قد تمكنت من الاحسـاس بهـذا الجمال ، فان حريتهـا

كانت قد شرعت فى الانطلاق .. وثمة نفحات من النشوة تعمرها فتفعمها بلذة جديدة .. ولكنها ما فتأت مبتورة .. ناقصة . لقد كان يجب التخلص من باقي قيودها .. من هذه الرقع البيضاء الدابقة ببدنها الوردي اليافع كي تبدو هي نفسها كما كانت تمضي بها تلك الحرية من هناك .. من الداخل . وكان هذا شيئاً غريباً وغير عادي . فقد كان يلح عليها بالتمادي فى هذه التصرفات الحمقاء . كي تقف أخيراً فى مواجهة ذاتها على حين غرة طارئة وبأقصى ما تكون من البعد عن أفكارها المكشوفة ، فى تهور تلقائي كالجنون نفسه . وبدا خوفها لأول وهلة طاغياً . ولكن شوكته سرعان ما تحطمت تحت وطأة الضيق والنفور المستبدين فى داخلها . وفجأة شمخ نهداها فى استعلاء وتنفسا بطلاقة ثم انزاحت القطعة الاخيرة من القيود عن شيء من جسدها تكسوه شعيرات دقيقة سوداء . وكانت الآن كما شاءت أن تكون .. مطلقة .. مجردة .. وفى منتهى الجمال والحرية . وأمرت راحيل راحتها على اعضائها بالتوالي وكانت تتنفس الصعداء . . « ان هذه الاعضاء لي برمتها ! . » وكانت لمسة راحتها تترك على تلك الاعضاء سكينة كما تصيبها برعشة خرساء لذيذة ومنعشة . . « انها يدي ، وهذا بدني » . . وكان هذا يغمرها باحساس عميق بالاستقلال وبأنها وحدة متكاملة قد عثرت على حريتها . ومن هنا كان مصدر اللذة التي غمرتها . وساورتها على حين غرة ، أفكار ناشزة اجتازت بها ذلك النطاق من استقلالها ، فخرجت عن نشوتها هنيهة « انها يدي . . عيني !. أعضائي !. ان كل شيء أمامي هو ملكي !. انه أنا .. وحتى هذا الجنون وهذه المجازفة وهذه النشوة الناجمة عنهما كلها أنا . » بيد أن أفكارها الناشزة كانت تمعن فى اخراجها عن هذا النطاق وكانت تشحنها بشعور جديد عارم من الخوف من الخارج. وفجأة كانت تضع راحتيها فوق عورتها كما انكمشت قليلا وهي

توارى أثداءها الناهدة بزنديها وتتمتم بجزع « كلا .. هذا محال .. لن أحتمل أن يراني أحد على مثل هذا الحال .. ان ذلك قد يقتلني ! . قد يقتلني ! . »

* * * * *

ورغم كل شيء ، أخذت أنظارها فى الايام التالية تنفر من وراء العباءة وتنطلق بعيداً فى الافاق . وكانت تبحث عن شيء اسمه رجل كي تحوم حوله فى لهفة مستبدة . وكانت نماذج الرجال فى الحي كثيرة ومتنوعة ومتضاربة وكانت هذه الكثرة وذلك التنوع والتضارب أموراً لم تقع راحيل عليها من قبل ولذا فقد كان اكتشافها لها يصيبها بالدوار والحيرة . وكان يجب عليها أن تختار من بين هذه العينات المتعددة عينة تكرسها لانظارها اللهفى التي لا تكف عن التحويم ، بيد أنها كانت وبدافع من حيرتها المضنية لا تكف نظراتها عن التصعيد . وكان كل شاب تقذفه الصدفة فى وجهها ، يتمتع ببعض صفات تلك الضالة المكنونة ملامحها عميقاً وراء دوافع ذاتها الغامضة . أما الاختيار فكان صعباً ولكن هذه الصعوبة لم يكن مبعثها كثرة عدد الرجال فى الحي وتنوعهم فحسب ، وانما لان راحيل ذاتها لم تكن تعلم بحقيقة رغبتها ولم تكن جادة فى تفكيرها بالزواج ، بل ولم تحلم بهذا الزواج قط . فكل ما هنالك ، كان مجرد دوافع قهرية تصيب منها بعض اللذة ويغمرها الحرمان من ممارستها بكثير من الضيق والكآبة . لهذا كان الزقاق الضيق يكتسب معنى جديداً ليتربع فى مخيلتها شيئاً نضراً وزاهياً . وكان وجهه المطبوع فى ذهنها منذ القدم يتغير شيئاً فشيئاً ليستحيل فى النهاية

الى وجـه آخر يبعث على الحنين دائماً . وكان تعلقها به يواجه بذلك الاشـمئزاز المتعاظم من ثيابها القذرة الباليـة فحاولت قدر المستطاع أن تبتز من أهلها ثياباً جديدة . وكثر اهتمامها بنفسـها وتبرجها أمام المرآة . كما ازدادت ذرائعهـا للخروج مـن المنزل ، فكانت تتطـوع بالاسراع الى حانوت البقالة والعـدو الى دكان الخضار القريب مـن حانوت البقالة كلما تذكرت امها انها بحاجة الى شي ما . وكان هـذا غالباً ما يحدث مراراً كثيرة فى اليوم الواحد نظراً لانعـدام تنظيم الام ولان ذاكرتها لم تكن تسـعفها باحتياجاتها الا عنـدما تكون الحاجة ملحة الى هـذا الشيء أو نقيضه . على أن أحـداً فى المنزل لم يدرك شـيئاً عن سـر تغيب راحيل المبالغ فيـه كلما خرجت لاقتناء ربـع اوقيـة ملح أو حبتين من الطماطم . وكانت امهـا تتسـاءل عن ذلك وسـط موجة من اللعنات النابحة تبلغ أطراف الحي كـله ولكنهـا تصطدم بجدران صمـاء فتعود أصداؤها اليها دونما جواب . وكانت راحيل رغم ارتباكها مقتنعة بأن الجواب الحقيقي أو أطرافاً من هـذا الجـواب سـتبقى دفينـة فى داخلهـا لانهـا ملكها وحـدها ولان افتضاح أمرها وتصرفاتها الجديدة سـيعرضها الى امور خطيرة بـل وانه ببسـاطة شـديدة سـيحكم عليها بالدمار الاكيـد .

بيد أن ثمة جواباً مروعاً كان الحي يتعاون على نسـجه وصياغته سـيفاً باتراً ليسـلطونه على رقبتها فى خاتمـة المطاف .

وكانت شـائعات رهيبة قد بدأت تزحف فى أنحـاء الزقاق وتنتقل من باب الى باب ومن نافذة الى نافـذة . وكثر اللغط ومضى يحـوم حول راحيـل كلما انبرت فى الحي أو عادت منـه وأحاطها الهمـس وطوقهـا وكأنه هالة من نار ملتهبـة . ثم تعـالت الاصوات ومضت تعوي فى كـل مكان . وقال أحـدهم :

ـ « انها تكشف عن وجهها للرجال وتلتهمهم بنظراتها فى نهم الحيوانات الجائعة ! . »

وقال ثان :

ـ « كثيراً ما تقف أمام الحوانيت ولا تشتري شيئاً . فهي غالباً ما تقف هناك كي تغازل أصحاب الدكاكين بخلاعة مفضوحة وهم فى الغالب فى سن والدها المغفل الذي يتقن تقطيع لحوم البهائم ليل نهار ، فى حين لا يجد ساطوره الى رقبتها سبيلا أبداً . »

وقال ثالث :

ـ « ان كل ما ذكرتم يمكن أن يكون برداً وسلاماً فيما لو قورن بالادهى منه .. »

فتبحلقت العيون وتساءل الجميع بصوت واحد

ـ « وهل يمكن أن يكون ما هو أدهى من هذا ؟ .. »

فعاد الثالث يهمس برهبة

ـ « أجل . فقد قيل انها شوهدت فى خلسة تبادل الفتى « مهدي » كلاماً لا يعلم أحد مضمونه . اذ لقد دار همساً وكان وجهها مكشوفاً وقد صبغته حمرة قانية وهذا ما يدل على أنها كانت تطارحه الغرام او تضرب معه موعداً فى خلوة كي يتسنى للوغد أن يفعل بها ما يخجل اللسان عن ذكره . »

وكان هذا النبأ مثيراً ومحركاً للافكار والعواطف . وأجهد الكل نفسه فى محاولة ازدراده ولكنه ظل ممتنعاً على الهضم كالحجر الصلد . وأظلمت الوجوه وكلحت . وكانوا كلهم يقلبون هذه المصيبة الحقيقية التي حلت على الحي بأسره ويلوكونها فى أذهانهم بحذر شديد حين هتف أحد الاصوات متحدياً

ـ « كلا . ان كل شيء يعقل ما عدا هذا ولا ريب فى أنها فرية دنيئة . »

فتعالت من خلفه الاصوات كالصدى

ـ « أجل • كل شيء يعقل الا هذا • ان مهدي ليس غريباً عنا وحسب ، ولكنه شقي خطير ورهيب ولم تبلغ الجرأة باحدى فتياتنا بعد ، على التورط فى علاقة مع مجرم مثل مهدي • »

واحتدم الجدل حتى تهيأ الرابع الذي تطوع لحسم الخلاف وأقسم

ـ « أيها المغفلون • ان النعام هو الذي يذود عنه الخطر بدفن رأسه فى الرمال ولكن الشر لا يزول بمجرد دفعه عن الخواطر• انني أنا الذي شاهد كل شيء فى الامس بأم هاتين العينين ـ وأدعو الله أن يفقأهما لو كنت كاذباً ـ اذ حدث حوالي الساعة التاسعة مساء وأنا جالس في المقهى أن أوجست بألم شديد في بطني اضطرني الى ترك « الجماعة » والعودة الى البيت • على أن مغصاً فظيعاً هاجمني وأنا بعد أجتاز الخرابة القريبة • فقررت ان أتوارى بداخلها وأقضي حاجتي وكانت خطواتي متعثرة وبطيئة وانا أشد على اعصابي بملء قواي • وعلى حين غرة ، وبين اطلال الخرابة المظلمة تناهى الى سمعي صوت مريب • بحلقت فى الدجنة وقد غمرني رعب أنهك ما تبقى بي من قوى • فكلنا يعلم أن الخرابة مسكونة بالجان • وتعوذت بالله لطرد العفاريت والمردة ولكن الصوت تعاظم واقترب • وفجأة رأيته •• هو بعينه ! • مهدي المريع عارياً كما ولدته امه وتحته كتلة من لحم بض يتململ • كان اذن يضاجع فتاة • وكان يلتهمها بشراسة •• بشراهة من لم ير فى حياته امرأة •• وازدردها بوحشية حتى توارت فى أحشائه وفى تلك اللحظة وجدتني احمحم • ولم أكن أتعمد الحمحمة فقد حدث ذلك عفواً ، ربما من فرط الخوف أو ربما استجلاباً لرباطة الجأش المنهزم • بيد أن حمحمتي الجبانة وقعت على المجرم وقع

الصاعقة فما أن سمعها حتى انتفض واتقدت عيناه على حين غرة وجال بهما خلال العتمة يميناً وشمالا ثم نهض • وكان مبهوتاً ومضطرباً • ولم يلبث أن انطلق كالريح مولياً الادبار • عندها تحركت كتلة اللحم التي كانت تحته فشاهدتها وهي تتلفع بشيء أبيض ثم قبل أن يلفها شيء آخر أسود وقعت على وجهها ••• يا الهي ماذا أرى ؟ •• كانت هي راحيل •• ان أحداً منكم لا يستطيع أن يتصور الذي حدث لي وأنا أكتشفها متلبسة بالعار • ويكفي أن أقول ان الامر التبس علي وغمرني بالذهول • لقد كانت لحظة حرجة • نسيت كل شيء وأنا افكر بالكارثة التي هطلت على الحي فجأة • وفي غمرة ذلك النسيان المطلق تبددت المآرب وتلاشى الحذر فلم أستفق من غيبوبتي الا على شيء حار ولزج يغلي داخل سراويلي ويفعم خياشيمي ببخره النتن وعندها كان الادهى يقتلع كل ما عداه من هلوسات الفكر فعجلت الى بيتي وأنا اوجس بشر عاجل غير أن زوجي غسلت سراويلي عن طيب خاطر بعد أن وعت الرواية بحذافيرها ، فاسألوها لو رغبتم فهي خير شاهد على حقيقة ما أزعمه • »

عند هذه الخاتمة المفجعة من رواية الرجل ، كانت المأساة تبلغ شأوها • وثمة آيات وبراهين توفرت لتقشع الشكوك وتودي بالخواطر الطيبة • جمشت النسوة خدودها • ونتف الملتحون من الرجال ذقونهم • كانت الطامة الكبرى تحدق بأطراف الزقاق ثم تلتهمه بين لحظة • وكان الحي يضج برمته ضمن مرارة بادية وحقد دفين • لقد سودت راحيل الوجوه الناصعة البياض ودنست الاعراض النقية وصبغتها بلوثات العار والشنار• وما العمل اذن ؟ ! • دارت حول هذا السؤال آراء كثيرة وطافت بين جدرانه خواطر متلاحقة وتوالت التعليقات والاستنتاجات

فى سرعة بلغت سرعة الصوت ذاته وكادت أن تتعداه لولا أن ذلك سوف لا يخدم بأي حال من الاحوال أصحاب هذه الاصوات وسيحول دون ابراز شخصياتهم • وقال أحد المولعين بقلب الامور على وجوهها المضحكة •

ـ « كان الرجل نبياً رغم أنفه فانما سلح فى ثيابه ليبشرنا بأن السماء ستكفهر لتقذفنا بوابل من الغائط أغرق الحي بجملته بالقاذورات • »

فرد عليه آخر جاد حريص على سمعة الزقاق الطيبة

ـ « غائط فى فمك • أهذا وقت هذر ومزاح ؟ •• كلا ورب السماء • بل هذا وقت بكاء ونواح • وقت اسودت فيه الوجوه وتبدت العورات •• وقت عصيب ! • وقت رهيب ! • فادع الله أيها الوغد أن يمن علينا بالستر والخروج من المعاضل • »

فهش متعصب للدين وهتف

ـ « هذا حق • صوموا ورتلوا صلوات الغفران • توبوا عن خطاياكم أيها الكافرون فما هذه الا مصيبة حلت من السماء لتقتص من ذنوبنا • وعسى أن يرأف الله فيزيح عنا بيده الرحيمة هذه الغمة المدمرة • »

ـ « لم نرض بالعمش فأتى العمى الينا ساعياً • »

ـ « من كان يصدق أن الرذيلة ستخرج حتماً من هذا الحي المسالم الشريف ؟ ! • »

ـ « العاهرة التي قضت على الزقاق جملة وتفصيلا ! • »

ـ « قلت لكم ان السماء قد أغرقتنا بطوفان من القاذورات •»

ـ « يكفي تهكماً يا ابن القاذورات • علينا أن نجد حلا سريعاً وحاسماً • »

ـ « لا بد من قطع العار ووأد دابره فى مهده • »

ـ « ومن ينقـذنا من نقمـة الشـقي المجـرم ؟ . »

ـ « ان الله أقوى من الجبـابرة والمجرمـين . »

ـ « لهـذا وجب الصوم وتلاوة الصلوات ونبـذ المعاصي . »

ـ « لنفرض أن الله سيستجيب لنـا . أفلا تعلم بأنه يمهـل ، وان المسألة أدق من أن تحتمل الارجاء والمماطـلة ؟ .. »

ـ « والعمـل ؟ . »

ـ « أجـل . ماذا ينبغي علينا أن نفعـله الان ؟ . »

فصـاح متعطـش الى الدماء

ـ « الجريمـة وحدها هي الكفيـلة بمحو الجريمـة . وقد آن لوالدها المأفون أن يسـتخدم سـاطوره فى هـذه الغاية النبيلة !»

ـ « كلكم تضربون فى حديد بارد . فالاب سادر فى الطمع . وحب المال ـ قاذورة الحيـاة الدنيا ـ قد أعماه عن كل شيء .وهو لا يكاد يتواجد فى منزله الا فى سـاعات الليل وان قابلتموه فلن تجـدوه الا متعبـاً حتى المـوت فلا يرضى بمخاطبـة أحـد ولا يـولي أحـداً آذانـاً صاغيـة . »

فهتف الجـاد الحريص على سـمعة الزقاق

ـ « من منـكم لم يضح اليوم فيلسـوفاً لا أمـل فيـه ؟.. ان المنزل على بعـد خطوات فاطرقوا بابه وانقـلوا للام كل ما سـمعتم ووعيتم فهي وحدهـا القادرة على قطع دابر العـار بفضـل درايتها العريقـة وكيـدها النسـائي الاصيـل . »

* * * * *

ضربت الام صدرها وأطلقت صوتاً مجلجلا كعـواء بنات آوى ثم قالت لنفسـها « لقد نعوا الي نفسـي .. حبـذا لو كانت هذه البطن

قد جفت من قبل أن تنتحب هذه الفاجرة . » وكان النبأ ينهش فى أفكارها الواهنة ويبعث فى كيانها الجنون .

كانت راحيل كبرى البنات . وفى حوش المنزل ثمانية أطفال لا يفقهون شيئاً ، قد تناثروا فى أرجائه كقطع القمامة وحول وجوههم القذرة تحوم جيوش جرارة من الذباب . ونعبت وهي تحرك بدنها يميناً وشمالا اسوة بالنادبات « وأنا وحدي ويراد مني أن أفعل شيئاً » . وفجأة تبحلقت عيناها وهي تبحث فى جنبات رأسها عن هذا الشيء المجهول . « ان كل شيء قد انتهى وأهل الحي اكتشفوا الفجيعة قبل أن تطرق أبواب هذا المنزل . ومن حلكة الطالع أن اللعينة قد ارتكبت فعلتها النكراء هنالك فى العراء حيث العيون كلها يقظة ومفتوحة ومتربصة للمعايب . ولو كان الامر بخلاف هذا لامكن دفنه وتلافيه قبل أن تجلجل الفضيحة بألف ناقوس رنان . » ولما كان الحال يختلف عما تمنته فقد كان العمل الذي ينبغي القيام به يختلف هو الاخر كثيراً . وكان يبدو لها شاقاً ومدعاة الى الحيرة وتحطيم العقول . وفجأة فقدت كل ما تبقى من رباطة جأشها . ولم تكن بعد بقادرة على التفكير أو التقرير بما يتحتم عمله . كانت الان مصابة بذلك الجنون الذي يلازم المرء ساعة شعوره بالعجز تجاه الامور الجليلة . وكالثور الهائج اندفعت صوب بالوعة المنزل التي تتكبد الحوش الفسيح . وكانت تقع منه موقع السرة من البدن . وعلى مقربة منها جلست راحيل القرفصاء وأكبت على طست مفعم بثياب قذرة مغمورة بماء دافيء يتصاعد منه البخار من خلال رغوة كثيفة من زبد الصابون . وكانت الام قد جنت تماماً . وكانت تصرفاتها تنتزع من أعماق هذا الجنون الطاريء وفى توال رهيب خاطف . تصرفات حامية ملتهبة تتقيأ شرراً . وكان هذا الشرر يتطاير من فم الام على شكل رذاذ من

لعاب مزبد ينهمر بغزارة ثم لا يلبث أن ينضب . ورفست بقدميها الطست فانكفأ على وجهه وتناثرت الثياب الرطبة على أرض الحوش. وسالت مياه كثيرة الى فوهة البالوعة ما لبثت أن توارت فى جوفها وسط قرقرة مثيرة لم يعبأ بها أحد . وكانت هذه البالوعة تتوارى الان خلف تاج ناصع البياض من فقاعات الصابون المتراصة، بينما كانت يد خشنة ومتحجرة تتشبث بشعر راجيل ثم تسحلها بعنف همجي بعيدا الى داخل الغرفة . وأطبقت الباب وهي تصر على أسنانها ، فكانت الكلمات القليلة المحروقة المنسلة الى خارج فمها من خلال شقوق صغيرة مكثت بين تلك الاسنان تسمع وكأنها زئير عاصفة عاتية .

ـ « لم تفكري بالقبر أيتها الملعونة . لم تفكري به . ولكنه أقرب اليك من ظلك أيتها الفاجرة . »

القبر ؟ ! . وكانت ترتعد فزعاً . كل خلايا بدنها كانت ترتعش . وكانت لفظة الموت تغمرها بظلام مروع مخيف . واختنقت. وفكرت وهي تكابد اختناقها « ان جسدي ما عتم سليماً وليس ثمة خرق واحد يمكن لذلك السر أن ينفذ منه الى الخارج ، ومع ذلك فواضح انها علمت بكل شيء يا الهي . » وكان هذا يزيدها رعباً وارتعاشاً . « ولكن كيف علمت به وهو ملكي الخاص ولم ينكشف لي كاملا الا فى هذه اللحظة المشئومة وحدها ؟ ! . » وتلقت لطمة عنيفة فانكمشت وأخذت تنتحب « انها تقرأ أفكاري وستقضي علي لا محالة . »

وصرخت من خلال اجهاشتها المرتجفة كالمستنجدة

ـ « انني لم أفعل شيئاً ... »

فهوت على رأسها راحة همجية وانتهرها صوت فظيع مجنون

ـ « اخرسي . »

وكانت ضعيفة وعاجزة • ريشة واهيـة فى مهب زوبعة • وانهمرت دموعها بغزارة • وارتجف بدنها بذعر • وأحست بطيف الموت يقترب منها وينتصب فوق رأسـها • وحاولت أن تقتنع بأنها لا تسـتحق أن تمـوت رغم كل ما حـدث ، وهمسـت بفزع

ـ « اقسـم لك يا امـاه •••

بيـد أن صوتاً قادمـاً كأنمـا من الجحيم قاطعها

ـ « تقسـمين ؟ ! • هـل تعتقدين أن الذي يفعل فعلتك يستحم من ذنوبـه بمجرد أن يقسـم ؟ •• ان الذكـاء لا يليـق بك أيتهـا الغبيـة المجنونـة ! • »

أجـل ••• كانت مجنونة • ولكن جنونها داهمها كالقضاء • ولم تكن تملك شـيئاً من أمر تصرفاتها • كل شـيء كان يأتيها بنفسـه فتنجرف معه كالقشة الطافية على وجـه التيار • وحرقت الارم وهي تلوم نفسـها ولكنها سرعان مـا عادت تفكر وهي مندهشـة « كان الجنون دفيناً فى أعماقك •• داخل أحشائك كان حبيسـاً • ان أحداً سـواك لم يكن يشـعر بـه • لقد كان ضائعاً هنالك فى الداخـل • وكان العثور عليـه من قبل الخارج يبدو ضرباً من المحال • » وشهقت وهي تتسـاءل « كيف اكتشـفوه بمثل هـذه البسـاطة ؟ •• وهل أنت غبيـة الى هـذا الحد العقيم فعـلا ؟ ! • » بيـد أن الموت كان ما انفك يطاردها بشـبحه الاسـود • وكانت المشكلة الحقيقية التي تجابهها الان هي « هل يجب أن تموت عقاباً على دوافـع قهرية عملت داخل نفسها دون أن يكون لها رأي فى ذلك ؟ •• »

وفجـأة همسـت بتوسـل

ـ « انني لا أسـتحق أن أموت لانني بريئـة • »

ورغم كل شـيء كانت الام ما زالت حائرة وعاجزة • وكان عاملان متغـايران يتنازعانها ، فتحـاول من طرف خفي أن تعـثر بشيء من

اللين ، على خيط رفيع فى حديث تلك الابنة العاقة يمسح عقوقها ويحيله برا ، من أجل أن تبتعد عن الورطة • وكانت الورطة عميقة وبعيدة الاغوار ، والعمل الذي ينبغي القيام به مستعصياً ورابضاً فوق مستوى تفكيرها • وكانت حيرتها تضايقها وتصيب حواسها بألم فظيع • وقالت لنفسها وهي تقتنص كلمة ابنتها الذليلة العاجزة ••« أليس من الجائز أن تكون بريئة فعلا ؟!•» ولكن الحي بأسره كان يؤكد الفضيحة •• « ومن هم هؤلاء ؟ ! ••• انهم رماد ، والرماد لا يمكن أن يصبح ذهباً••• وهم أقدر على ابتداع فرية قاتلة ، من أن يسدوا احساناً لاحد • » ••• وقدحت عيناها بصيصاً • وعاد فمها ينفث الزبد ويكومه على أطراف شفافها• انه جنون العجز مرة اخرى • وكانت تتساءل : « ما الذي يجعل الحي بأسره يتكاتف ليتفق على مثل هذه الفرية ، ولماذا يختارون ابنتي بالذات ؟ ! • » وكانت شكوكها تتأرجح ضمن مد وجزر عاتيين •• « ربما كان زوجي قد أغضبهم بكلمة قالها اذ ان طول لسانه ثلاثة أميال وهو كالطبل الاجوف فرقعته هائلة ولكن فعاله لا تؤذي أحداً • » وبين هذا كانت تقذف راحيل بنظرات ملتهبة • وكانت راحيل تجهش بحرقة وهي تواري معظم وجهها وراء راحتيها المبسوطتين • وكان منظرها لا يدل أبداً على أنها بريئة • فكل هذه آيات ساطعة على ارتكابها الجريمة وعلى هلعها من العقاب • وكانت الحيرة مطلقة ومضللة وساخرة من الادراك وابتهلت ••• « أهدني السراط القويم يا الهي والهمني الحقيقة لكي لا اصبح مضغة فى أفواه البشر •• »

وفجأة ، صمت الضجيج فى أعماق نفسها • اعتلت طلعتها اشراقة ظفر كانت تعني انتصارها على ذلك العقم الذي يركب الرأس

ويسمى بالحيرة . « ان الله لم يخلق الناس عبثا . لقد وهبهم العقول من أجل أن لا يضيعوا فى ليل الحيرة الدامس . » وبمعونة الله ولطفه الخاطف بها كان رأسها الكليل ينشط بغتة ويضحى عقلا جباراً . وكان اليقين الذي راودها يغمز لها باغراء . ولم يكن بعيداً مثلما كان يخيل لها قبل لحظة ... انها ستقف على الحقيقة بحذافيرها . ولن يستغرق هذا وقتاً طويلا . وكانت خواطرها تندفع بأسرها صوب جارها « حاكولي » . هذا الخبير بالاشياء جميعها . الذي يجبر الكسور ويصف الدواء لانواع العلل ويكتب التماتم للفزع ولدرء العيون النفاذة القاتلة .. انه سينقذها من الورطة .. سيغربل اليقين ويستخرجه من شتى ضروب الشك كي يقدمه لها هدية من أنفس ما تقبلت فى حياتها . ولسوف تنفحه درهماً كاملا .. ذلك الذي غالطت به زوجها منذ أكثر من شهر ثم أودعته فى مكان لا تستطيع أن تكتشفه حتى الحشرات التي تعيث فى البيت فسادا ولا الشياطين المتسللة الى كل الشقوق والثغرات . وتبحلقت عيناها غروراً وعجرفة وجبروتاً وقسوة . وصرخت بابنتها فى نبرة تترجم كل هذه الصفات الى صوت مسموع

ـ « امكثي فى مكانك واياك أن تتزحزحي عن هذا الموضع ، والا فسأفصل هامتك عن بقية جسدك أيتها الملعونة . »

ثم خرجت مسرعة مغلقة وراءها باب الغرفة .

* * * * *

هش « حاكولي » للطلب الغريب الذي تقدمت به المرأة اليه . وفى دهاء محكم أخفى بشاشته وراء شاربيه الكثيفين . وبصق وجهه رصانة مفتعلة وقال :

ـ « ثقي ! • أنـه لولا هـذه التضرعات التي تهرقينها فى حضني دون حسـاب ، ولولا أنـك من الجارات اللواتي يعتـد بهـن لمـا وافقت مطلقاً •• أقول لمـا وافقت مطلقاً على القيـام بهـذه المهمـة وان •• وان عرضت علي كنوز العـالم برمتهـا • »

فلثمت المرأة عارضيـه وأغدقت عليـه من دعواتهـا الصادقة ما أغرقـه بالزهو وجعـله بالاضافـة الى ذلك يعيـد النظر فى نفسـه ويكتشـف ان الطالع قـد واتاه فجـأة ليصنع منـه رجـلا مهمـاً ومحظوظاً بعـد أن توالى عليـه نصف قرن طويـل وممـل وهـو كالخرقة الباليـة مهمـل فى زاوية مظلمـة على هامـش الحيـاة • وتململ بأناة خبيثة مصطنعة ثم غمغم بعد أن تجشـأ بارتياح

ـ « سـيري أمامي وسـأتبعك • »

امتثلت لامره • وبآليـة مطلقة كانا يمضيان صامتين حتى يبلغـا المنزل • وعند مدخل الغرفة التي اودعت راحيل بداخلها تريثا قليـلا حتى تسـنى للام أن تفتح الباب المغلق وهنا أشـارت على حاكولي بالدخول ففعل صاغراً ودخلت فى أعقابـه وهي تمسـك على مصراع الباب . وبحركة حـذرة أعادت اطبـاقه ثم أغلقت عليـه من الداخل بالمفتـاح ومكثت تنتظـر •

كانت راحيـل ممـددة على السـرير • كانت أشـبه مـا تكون بخروف ذبيح مـا عتم يعالج فى صدره بقيـة من رمق • وفى موضع الدماء السـائلة من أعلاه ، كانت ثمـة دموع ما عتمت تنهمر ، وكان وجهها غائراً فى أحضان الوسـادة ، رطبـاً ، معفراً ، ممرغـاً بوحـل الاهانة المميتة • وثمـة بقعـة كبيرة من تلك الدموع وقـد انطبعت على الوسـادة فأضحى موضعهـا دبقـاً • والتصـق الوجـه بذلك الموضع فى اسـتغاثة • كما التصقت بـه خصل من الشـعر شـعثاء ومبللة برطب العبرات وبعرق الانفعـال الغزيرين • وافترس الرجـل

الفتاة بنظرة جشعة مليئة برغبة وحشية • ثم أطال التحديق بجسدها البض • وكان هذا الجسد يبدو وهي ممددة ضئيلا وفاتناً ومحركاً للغرائز • وكانت نظرة « حاكولي » النهمة تزداد شراسة وغلمة • وكان خياله المجنون يستبق الاحداث ، فتنحشر فى داخله مناظر مفقدة للصواب • وكان فمه يمتليء بلعاب غزير فيدفعه الى جوفه بحركة متواصلة خشية من أن يقتحم فمه فيسيل على ذقنه ويفضحه • وقال أخيراً وهو يهمس فى اذن الام

ـ « لتنزع عنها هذه الثياب • »

فقذفتها الام بنظرة محرقة وهتفت بها بصوت آمر خلو من أي استعداد للتراجع

ـ « اخلعي ثيابك أيتها المشئومة • »

وعاودها الهلع حتى الموت فامتزجت الرعدة بالنحيب بينما كانت تجول بوعيها المنصهر بين نظرة الرجل المخيفة وطلب امها الرهيب • وتساءلت بتوجع وارتباك وفزع

ـ « ماذا تريدون أن تفعلوا بي ؟ ! •• »

فصرخت الام

ـ « لا تتدخلي فيما لا يعنيك ولا تسألي شيئاً • عليك بالطاعة والا أخمدت لك هذه الانفاس • »

وفكرت وهي تهبط الى قاع وعيها •• « انهم ينتقمون مني بأبشع وسيلة • وهي تريد أن تنتزعني ملكيتي لجسدي ، لتتصرف به كما يحلو لها • ولكنني لا أحتمل أن يراني الناس عارية •• لا أحتمل أن يراني الناس عارية • » وكان عجزها يرتطم بهذا الاشفاق المرعب من الاحداث القادمة ، فكانت تتضاءل ضمن آلام مبرحة فلا تقوى حتى على الحقد • وتوسلت

ـ « اقتليني فذلك خير لي من أن أتعرى أمام الناس . »

فاقتلعت الام خصلة من شعرها المبلل وهي تطلق ضحكة دميمة ساخرة

ـ « لا تتسرعي . سيأتي أوان القتل كذلك . أما الآن فانزعي ثيابك ودعي الرجل يباشر عمله .. »

وكان شيء داخل ثياب « حاكولي » يوشك على الانفجار. وكان يقينه قد اصيب بالخدر فاذا الواقع يترى عليه من وراء ستار رقيق شفاف ويضحى كالحلم . وكان هذا الحلم يتيماً وفريداً من نوعه . وريث نفسه في قلق وهو أشد ما يكون تبرماً باللحظات التي ما عتمت تفصل بينه وبين المغامرة . وكان على أشد ما يكون من الاعتداد بنفسه .. « لا ضر في أن تموت بعد أن ستشهد الجنة بأم عينيك يا حاكولي » . وقال أيضاً « ان الناس سوف لا تصدقك وأنت تروي هذه الاحداث . فان الحكاية كثيرة الالتباسات وستبدو وكأنها مختلقة . » وأعادته الى واقعه الملهوف جلبة صغيرة كانت تحدث على مقربة منه . واستطاع أن يشاهد الام وهي تهيمن على ابنتها فى جبروت لتنضي عنها ثيابها بالقوة . وكانت تلك الثياب بالية بحيث كانت تتمزق فى يد الام كقطعة من الورق رقيقة وواهية. وكانت راحيل ترضخ فى انهيار . وكانت تتضاءل الى حد العدم. وكان وجهها يغطس فى الوسادة التي امتلأت كلها بقعاً رطيبة. ولم يكن يبدر عنها غير شهقات ضعيفة مولولة . وقالت الام فجأة

ـ « عليك الآن أن تبدأ العمل . »

وطار صوابه .. حاول أن يستجمع بدهائه وحنكته هذا الصواب. وضايقته نظرات الام وهي تتابع خلجاته باهتمام ، ولكنه فضل أن لا يريها موضع المضايقة فتركها تتعقبه ومضى فى سبيله . وكانت راحته تسوح الان فوق فخذي راحيل ثم تتوقف فى أعلاهما ..

هنالك كانت الهضبة الصغيرة التي استهدفها • وتحسست أنامله النفق الضيق الصغير الذي يخترق الهضبة وكانت ترتعد • كان النفق صغيراً حقاً • يكاد أن يتوارى بين الشعور السوداء النابتة من حوله فى وفرة وسخاء • وتخدر عقله تماماً • حاول أن يولج كفه داخل ذلك النفق بيد أن ذلك بدا متعذراً • واكتفى بأن أدخل اصبعين •• الوسطى والسبابة • وكانت الام ما فتأت تراقبه باهتمام • وكانت هذه المراقبة ذات ظل يسرى فى بدنه كالسم الزعاف • وتمنى لو يخمد نظراتها كي يتمتع بالحرية • ولكنها سرعان ما طعنته فى قلب هذه الامنية

ـ « ها ؟ ! •• بشرني يا « حاكولي » • »

وانتفض بغيظ • وكان يريد أن يتلافى الكلام لئلا يخونه صوته المخنوق باللعاب • وزجرها من خلال أسنانه بحنق

ـ « هش •• شه •• شه •• ش »

وتمادت أصابعه عبثاً داخل النفق • ثم فجأة انتفض كل بدنه انتفاضة عنيفة ، فأعاد الى نفسه اصبعيه وابتلع ريقه وبدت على وجهه امارات جادة • ولكنه فى هذه المرة أيضاً تردد عن النطق فلوح بأصبعيه الملوثتين بالقذارة ناحية الباب ثم خرج • ولحقت به المرأة فى لهفة وعادت تهمس بانفعال بعد أن تأكدت من أنها قد أغلقت الباب من جديد •

ـ « ها ؟ ! •• بشرني يا « حاكولي » •• »

وتردد طويلا • وكان وجهه ممتقعاً • وكان هذا يحبط آمالها ويوجسها بيقين الكارثة • وهمس

ـ « للأسف لم أجد شيئاً •• »

وبدا كلامه غامضاً بعض الشيء • وكان يحمل النقيضتين • وكان بوسعها أن تفسره على الوجه الذي يطيب لها ، ولكن تعبيره عن

الاسف كان يعزز من موقفها المنهار ويصيب حواسها باليرقان . وسألت بقلق كاسح

ـ « ماذا تعني ... ؟ ! .. »

ـ « لم يكن هناك عذارة . »

ومن جديد بدأ كل شيء ثانية . وكانت الكارثة تعود فتصبح طرية ومستحدثة . « الفاجرة التي جلبت علينا اللعنة .. ان هذا سينزعني صوابي لا محالة . » وعادت أعصابها وتأججت . واحترق عقلها . وشبت النيران فى كيانها بأسره ، فخبطت صدرها بقبضة مكورة . وترامى عواء بنات آوى من أعماقها وكان مروعاً كالشؤم . أما « حاكولي » فقد التزم الهدوء بقوة عجيبة وكأن الكارثة لم تقع، ثم قال على سبيل النصح :

ـ « ما هكذا تجابه المصائب . انك بهذه الطريقة ستزيدين من بلة الطين ومن الافضل أن تعالجي الامر بهدوء وبأعصاب قوية كالحديد . »

ولم يكن بوسعها أن تستجيب لنصيحته . ولكنها تذكرت الاجر الذي وعدته به فدست يدها فى صدرها وأخرجت من بين أثدائها درهماً صدىء العرق الناز من بدنها على مدى شهر طويل . قذفت الدرهم الى جيب « حاكولي » وهمست فى اذنه بضراعة

ـ « ان الفضيحة أصبحت ذات جلاجل وسرت في الحي كالهشيم ومع ذلك فلا تقل لاحد بأنك « فحصت » الفتاة واطلعت بنفسك على عارها الكبير » .

* * * * *

كانت تفكر وهي تجوب أرجاء الحوش الفسيح كالمجنونة ...

« انني وحدي ويراد مني أن أفعل شيئاً .. » وكانت راحيل شبه خامدة داخل الغرفة المغلقة . وكانت ما تزال كما تركاها عارية ومبللة بالدموع والعرق . ولم يكن يند عنها حركة أو على الاقل لم يكن يسمع فى الخارج شيئاً يدل على أنها تتحرك . وفى القناء ظل الاطفال يلعبون وهم مبعثرين هنا وهناك كقطع القمامة وحول وجوههم القذرة تحوم جيوش الذباب . ولم يكن فى مقدورهم أن يلحظوا أن أمراً غير عادي قد أخذ يتضح منذ الصباح الباكر . فكثيراً ما كانت تنشب الزوابع فى البيت ثم تهدأ . وكثيراً ما كانت هذه الزوابع عاتية ولكنها دائماً كانت تبدأ ثم تصل الى نهايتها دون أن تضيع فى مهبها قشة صغيرة واحدة مما كان ينتشر على أرض المنزل من قش كثير . أما فى هذه المرة فقد كان الاعصار يختلف . وكان اختلافه ينجم عن أنه يثور بعيداً عن الاعين وفى داخل الام وحدها . ومن ثم فلم يكن يدمر أحداً غيرها . الهم تلك الابنة التي استحالت من الان فصاعداً الى محض صدى حبيس مكتوم . وكانت وهي فى مهجعها تندب نفسها التي ينتزعونها من أعماقها ثم يغمسونها فى بحر من القاذورات فى استهانة عجيبة . ولم تكن بعد تفكر . أما الام فقد كان تفكيرها يتقلص وينكمش ثم يطبق على نقطة شفافة ويتقمصها . كان ينبغي أن تفعل شيئاً . وكان هذا الشيء لا ينبغي يبتعد عنها فى صفاقة ومن دون حياء . لقد رفع « حاكولي » عن واجهة عقلها ذلك المشجب الذي حاولت أن تعلق عليه بعض الامال الطيبة ثم ضرب به الارض. ومادت هذه الارض واحترقت تحت أقدامها .. « ان حاكولي لم يأت بجديد .. كل ما فعله أنه عزز من فرية الناس وأحكم من الحيرة المطبقة على عقلها . وقالت .. « الفرية » رغم انه رشح الماء فى مصفاة خبرته السمينة . لقد قدمه لها بيديه ماء زلالا مكرراً وشديد الصفاء ولكنها وهي تشربه الان تحس به تفلا

ومراً كالعلقم • وفجأة كانت تعتريها شكوك جديدة • « ان حاكولي مجرد انسان • وهو معرض للخطأ مثل سائر البشر • » وقوت من افتراضها هذا حادثة يرويها الجميع عن هذا الرجل بكثير من الاستياء والضغينة • فذات يوم وصف « حاكولي » لاحد مرضاه دواء ما أن شربه حتى أرداه قتيلا • وخشيت من أن يكون تشخيصه الاخير قاتلا كذلك الدواء فركبتها المخاوف • وكانت تلعن زوجها الذي لا يتواجد فى داره الا فى الظلام وحده•• « وحين تواجده لا يمكن لاحد مخاطبته • فهو يأتي ويذهب وكله شعلة من نار • » وتذكرت أن اليوم يوم جمعة • وان المصيبة قد شغلتها عن طهي الطعام واعداد (الباچة) وتبييتها للسبت • وكان فى الصباح الباكر قد ترك لها كيلوغراماً من اللحم (الهبر) وعدداً من الكراع والكروش • كما أوصاها بـ « الكبة الحامض » خيرا • وتساءلت وهي تلعن كل شيء •• « وهل هذا وقت طهي الطعام ؟ ! •• وهل ثمة من شهية حتى لشرب جرعة من الماء ؟ ! » بيد أنها كانت تدرك مدى حرص زوجها على معدته فضاعفت هذه الحقيقة من متاعبها وأوجست بشر جديد •• « انه لا يتقن غير ملء كرشه الضخم ، أما أنا فينبغي أن أفعل شيئاً عاجلا وحاسماً • » وتمادى هذا الشيء العاجل والحاسم غموضاً واستعصاء وتحرشاً بادراكها ، فكانت تولول بعجز قاتل وهي تضرب على وجهها وصدرها • وفجأة تناهى الى سمعها صوت يهتف فى الطريق

ـ « چرك ••• چرك ••• چرك • »

ركزت اهتمامها فى هذا الصوت وحاولت أن تفكر •• « هذا هامي بائع الچرك • » وكانت أفكارها توشك أن تتوقف عند هذه البديهة • فلم يكن « هامي » بالغريب عليها • كانت السنين تمر وهي

لا تكاد تنقطع يوماً عن استيقافه كي تشتري منه الجرك والزلابية للأولاد • وكانت راحيل محببة اليه بشكل خاص • فقد كانت منذ طفولتها تقف عند سلعته وتنتقي منها الكثير من الطيبات • وكان ومايزال لطيفاظريفاً رغم أنه جاوز الاربعين• ولسانه ما انفك يقطر الشهد، وينثر النكات والطرائف ، وكأنما يستقيها من معين فى داخله لا ينضب أبداً • واقترب الصوت حتى حادى باب المنزل ثم أخذ يبتعد • وكانت أفكارها تلهث عند هذه الخواطر التي لم تكن تتطلب جهداً معيناً • ثم ترامى اليها صوته وهو يخفت كالصدى • فحبست أنفاس عقلها ثم استعادتها مرة واحدة • وكانت هذه الافكار تعود وتتقد• وكانت ساقاها تعدوان باتجاه الباب وصوتها المتعب يهتف بعناء

ـ « هامي •• هـ •• ـ •• ـام •• ي • »

عاد الرجل على أعقابه مستجيباً لدعوتها • وتوكأ بالجدار ثم أنزل بضاعته وبدأ يطرى عليها كعادته غير ان المرأة بادرته

ـ « اليوم لا حاجة لي بالشراء فثمة أمر ما عتم يشغل بالي وقد عن لي أن أستعين بك يا هامي • »

واستمع هامي الى حكايتها الغريبة باهتمام ثم لمعت عيناه وقال بحرارة :

ـ « بكل سرور • انني لا أرد لك طلباً كهذا وأنت نعم الزبائن • فقط ، ضعي هذا الطبق فى مأمن من الاطفال لئلا يلتهمون رزقي ويخرجوني من بيتك خاوي الوفاض • »

واستقر الطبق فوق عليه بعيداً عن متناول الايدي الصغيرة • وبعدها سارت المرأة وفى أعقابها « هامي » الى حيث ترقد راحيل كالجثة • ومن جديد انفتح الباب المغلق ثم اطبق مرة اخرى • ومن جديد كانت المهزلة تتكرر بحذافيرها • عيون الرجل المتقدة المفعمة بالشهوة ، ودموع الفتاة الواهنة وتوسلاتها المنتزعة من نفس

أمعنت فى التراجع حتى استوقفتها حدود العدم • وترقب الام المشحون بالقلق وسـط آمال تمـد وتجزر من خلال عاصفـة هوجاء مدمرة • وأخيراً توغل الاصابع الخشنة ذات الاظافر القذرة الى أعماق الهوة• ولم يكن « هامي » فى مثل تحشـم « حاكولي » ووهن جرأته • بـل ان الفرصة الذهبية كانت تستفرغ كل اهتمامه وطاقته فلم يعر نظرات الام المحرجة التفاتاً • وصالت أصابعه فى جوف راحيل وجالت كحصان حرون تخلص من زمامه وانطلق يعـدو في الافاق بلا نهايـة • وكانت راحيل تنتفض انتفاضتها الاخيرة بين يديه ثم يعتريها الخمود بعد أن اسـتنفذت كل عبراتها وطاقاتها على الحركة • وصاحت الام أخـيراً وقـد نفـذ صبرهـا

ـ « خبرني يا هامي •• كيف ترى الحـال ؟ ! •• »

فهتف بهـا بصـوت محتقن متغضن دون أن تتوقف أنامـله عـن العمـل الجـاد

ـ « تريثي • فأنا أطـارد الحقيقـة • وهي مـا فتـأت تهـرب مني بصفـاقـة •• »

ـ « لقد مر من الوقت مـا يكفي لبذر عشرة أولاد وأنت ما زلت متخبطاً فى حيرتك أيهـا الغبي • »

وكان يحرص على أن يعتصر خلاصة الفرصة فلا يضيع لحظة واحدة ولكنـه أسـر لنفسـه متضاحـكاً « الغبيـة التي تتهمني بالغبـاء •• لقـد فاتها انني أسـتخدم بدل المـذرة حاصـدة • » ثم شـد عـلى صـوتـه وتمتم

ـ « ليـس الذنب ذنبي • فالحقيقـة فى هـذا الموضـع عويصة ومعقـدة • وكل خطأ فى التشـخيص سـيؤدي الى كارثة • »

بيـد أن هـذه الكارثة مكثت فى موضعهـا عنيـدة وغير قابـلة للتزحزح • وقال « هامي » للام بعد أن فرغ من مهمته الطويـلة وعاد

الباب المغلق يفصل بينهما وبين جسد الفتاة المسجى شبه عار وخامد،

ـ « ان البشرى التي تطلبينها مني ستكون مخيفة . فقد رأيت هنالك آثار فأر كبير كان قد تسلل من أسفل وتوغل بعيداً الى المعدة ، وربما يكون قد خرج من الفم ... »

وللمرة الثالثة هوت قبضة المرأة على صدرها وكادت أن تحطمه. وكان صراخها هي الاخرى يعيى ويعتريه الوهن . « لقد شهد اثنان ولم يبق الا العمل .. » . وكان هذا العمل راسخاً رسوخ الفضيحة معجزاً ومستنزفاً للطاقة . « انها امرأة ضعيفة ، أما غسل العار فيحتاج الى رجال أشداء وقلوب من فولاذ . » وتصورت زوجها الذي يباشر الان عمله بيعداً عن هذه المنطقة فتخيلته هادىء البال مستقر الخاطر وحقدت عليه حقداً كاسحاً ثم لعنته فى سرها الف لعنة . وتوجه اهتمامها الى ابنتها (الفاجرة) فتمنت لو تموت تلك الابنة من تلقائها فتكفيهم شر الفضيحة دون أن تقع مضاعفات رهيبة ومروعة ... « ولقد كانت اللعينة وهي بين يدي « هامي » تبدو وكأنها تلفظ أنفاسها الاخيرة . » ورفعت وجهها صوب السماء وبسطت ذراعيها وابتهلت من أعماقها بذراعة صميمية ... « خذها يا رب سريعاً وأرحني من الفضيحة . » .. بيد أن الفضيحة كانت منذ الصباح تنشر ظلالها على الحي بأسره وأكثر من ذلك فقد كانت منذ أن ترك « هامي » المنزل تتخذ لها شكلا جديداً وعنيفاً. وكانت الان تسري كالهشيم مغطية كل ثغرات الزقاق وأماكنه المنزوية. وعلم « حاكولي » الذي كان قد تعهد بكتمان مغامرته بأن شخصاً ثانياً قد جابه نفس المغامرة العجيبة ، فأحله هذا العلم من تعهده المصطنع وطفق هو الاخر يتحدث في العلن بعد أن كان حديثة مقتصراً على الهمس المكتوم . وسال لعاب بعض الرجال . وتمنى كل منهم بصدق ولهفه لو يدخل هذه المغامرة الشاذة . ووجد «خياطة»

الفتى الابـله ، الجـرأة على أن يطـرق البـاب ويطـالب بصوتـه الخـروفي المتعشـر

ـ « أريد أن أرى ... »

ـ « ماذا ترى يا ابن الزانيـة ؟ ! .. »

ـ « المكان الذي دخل منه الفار يا خالتي . »

ـ « فأر يأكل عيونك . أمضي والا قطمت لك رقبتـك . »

فنعب صوته من وراء الباب الذي كان يطبق فى وجهـه بعنف

ـ « هامي وحاكولي يريان وأنا لا أرى ؟ ! .. ألست (بني آدم) يا خالتي . ؟ ! ... »

* * * * *

جـاء أخـيراً ...

ها هو ذا ينزع فوطتـه الملوثـة بالدم ويلقيها مـع سـائر أعبائه جانباً وها هو أيضاً يشمر عن اردانه ويغسـل سـاعديه ووجهه. انه الان ينطرح كالعبء الثقيل على الارض ليتمتع بقسـط من الراحـة. وكرشـه مندلق امامه ولا يكف عن الرقص ، وكأنما يتحرك على وقع ضربات طبل منتظمة . لا بد أنه جائع وسـتطلب الطعام سرعان مـا يسـتعيد انفاسـه فى متعة وهو يسـترخي متثائباً .

الثور !.. لم يستطع ادراكه الكليل أن يقتنص طنين الذباب المزعج الذي تعزفـه الجوقة كلهـا خارج باب المنزل . ان العقول الذكيـة الفطنـة قادرة على اسـتقبال أشـد الهمسـات خفوتاً . ولكـن فى الخارج جلبة .. نعم جلبـة . ومـع ذلك فان رأسـه البليد يظـل كحجر الرحى الثقيل الاصم . ما ادراك بحالي اليوم يا ابن الحمارة ؟!. أنت لا تقرأ المكشـوف فكيف يمكن للغيب أن ينبلج أمام عينيك ؟!.

أين أنت من الجحيم الذي استحممت بنيرانه المندلعة طوال اليوم !• المصيبة • انك ستبتلعها عما قليل دفعة واحدة بدل الطعام الذي ستفغر فى سبيل طلبه فاك عن آخره • الان أو بعد لحظة ! •• أجل • الان أو بعد لحظة ! •

ومدد ساقيه على الارض الخلاء وتجشأ • وطرد من حوله الصبية والذباب وكأنهما شيء واحد • وأخيراً قال بتكاسل

ـ « أين الطعام ؟ ! •• أعدي الطعام يا امرأة فى الحال • فقلبي ينهشني من الجوع • »

ها قد بلغنا خاتمة المطاف يا ابن الحمارة • وقالت منتهرة

ـ « أي طعام يا ابن الهرمة ؟ ! ••• »

فتح عيناه عن آخرهما وقذفهما فى وجهها مستغرباً • ماذا أسمع ؟!• وهل جنت المرأة ؟ ! • وفى حركة من حنجرته ، عنيفة ومصحوبة بشخير حاد استجمع لعابه ثم بصق به الى الارض وعاد يحدق بزوجته فى استغراب

ـ « ماذا تقولين يا امرأة ؟ ! ••• »

ـ « أقول أي طعام يا ابن الهرمة ؟ ! •• »

ـ « وتكررينه دون أن تعتريك رجفة الخوف من غضبي العظيم ؟ ! ••• »

ـ « انك لا تعرف غير هذا • العصفور يزمط أمام زوجته • ولو كنت رجلا حقاً لتداركت المصيبة • »

ـ « اعتراك مس من جنون •• انني واثق من هذا • انك تخلطين فى الكلام خلطاً مخيفاً • »

ـ « ان أنفك مزكوم ولا قبل له على الشم • »

ـ « النتن والقذارة •• انهما يفوحان على بعد ميل من الزقاق، فأي شيء تريدين أن أشم غير هذا ؟ ! •• »

وكان صبرها ينفد من بلادته • وكان يعرف أن يغضب وأن يفعل لو تطلب الامر ، ولكن اللف والدوران لم يكونا ليسعفا عقله الكثيف • انه كالثور تماماً لا بد من أن تريه الموضع المغيظ من أجل أن يهيج ويثور • وقالت بحدة وتبرم

ـ « المصيبة ! فضيحة ابنتك ! العار الذي ركبنا جميعاً ! • »

واستفزه هذا الكلام الغريب فهب واقفاً • واقترب من زوجته وعيناه تقدحان شرراً • وهز كتفها وصرخ من فم يتطاير منه الرذاذ •

ـ « تكلمي ماذا حدث للابنة ؟ ! •• »

وعاودها البكاء فجأة ولازمها حتى انتهت من سرد الحكاية• وكان الرجل يبذل مجهوداً مستميتاً للابقاء على رباطة جأشه • ثم انهار فجأة ، فهوى على الارض وانكمش على ذاته • كانت الحكاية كالصاعقة • مفقدة للعقل والصواب • مشلة للحركة • مزيجاً من المناقضات المخذلة والموقدة لجذوة الجنون فى آن معاً • وكانت موجة من الافكار المتلاطمة تكتسح عقله الكليل جارفة معها تلك الطبقة السميكة من الطمى المبسوط على ارضيته • اذن كان الذباب يزن من حوله وهو أصم • ولكن ••• استوقفته فكرة عاقلة عند عمل مجنون • وكان ذلك العمل قد شيد فى قلب الاحداث وشمخ فى وسطها كالرمح المغروز فى الحشاشة • أما انتزاعه فكان قد جاوز الاوان وأضحى مستحيلا • وتعذب وهو يذرف دموعاً صامتة • ثم ، على حين غرة انفجر شيء فى أعصابه فصرخ فى زوجته بمزيج من الحزن والغضب •

ـ « أنت •• أنت •• أنت اصل المصيبة يا درقة النعامة •• لا بد ان الذي خلقك كان حماراً • كيف تعرضينها على الرجال ؟ ! •• كيف ؟ ! •• »

وتلكأت • ولأول مرة كانت تكتشف ان الهام الله لها ساعة

المحنة لم يكن الا شركاً يغص بالاخطاء • وكانت فى قرارة نفسها تواجه الخطأ الفظيع الذي ارتكبته وتعترف به • وركبها هلع فلم تقو على المجاهرة بغلطتها • كان الاوان قد فات • وجميع من فى الزقاق يطبل بالفضيحة ويزمر حتى « خباطة » ، ذلك الذي لا يستحق حتى أن يبصق عليه • وكانت تهم الحمق والغباء والجنون تنهال عليها كالوابل مصحوبة بأقذع الشتم والسباب • بينما حيرتها الملازمة لها منذ الصباح تتضخم لتجابهها بمزيد من أشنع العذاب • وفى سبيل الدفاع عن نفسها قالت :

ـ « كنت وحدي • وأنا امرأة • ولم أكن أعلم بما ينبغي فعله •»

فقاطعها صوته الاجش فى قصف كالرعد

ـ « أنت حمقاء •• وابنة حمقاء • لقد ارتكبت نصف الجريمة وسترغمينني على ارتكاب نصفها الآخر ! • »

وهوى من جديد • وكان يفكر بما تفوه به كي يكتشف حكمته •• « الابنة مهما احترزت فهي بلية على أهلها • » وعاوده البكاء الصامت فبسط راحته على وجهه وأجهش •• « كلا•• لن تأخذني رأفة بها • ان الذباب سيمعن فى طنينه حتى يغسل العار ••• » وأغراه جانب نصع بياضه من خلال ظلام داكن • براءتها •• ربما كانت بريئة • ولكن جانباً من القضية لم يكن ليرجح فى ميزان عقله • ولم يكن واثقاً من شيء أبداً • ولكن الصورة العامة للاحداث كانت تلزمه بالعمل • وفكر أخيراً « حتى وان كانت بريئة ، فان كشفها على الرجال وانطلاق الالسن ـ من ثم ـ فى أرجاء الزقاق نابحة بالفضيحة ، يستوجب قتلها • » ولصقت هذه الفكرة فى دماغه وحفرت رأسه • وفجأة همس بصوت منهار

ـ « اشحذي السكين الكبيرة • »

سأقتلها ... وصك أسنانه وبحلق عينيه . وعاد يخاطب نفسه .. « أجل .. سأقتلها ! لقد ذبحت الاف الخراف ولن يكون ذبحها أعسر علي من ذلك » . وكانت تستحيل فى عينيه الى حشرة مقيتة . « يكفي أنها جلبت علينا العار » وتناهى الى سمعه صوت الشحذ من بعيد فامتعض قليلا وهو يفكر بالاحداث القادمة ... « جرعة من الرهبة وجريمة قتل وثلاثة أو ستة شهور فى الحبس من أجل أن يخرس الزقاق وينقى العرض من الشوائب . » وكانت بطنه الفارغة تقرقر داخل جوفه .. انه حفيف الجوع الشره وكلاهما ، هذا الجوع ووقع النبأ المروع يوهنان جسمه الضخم ويدبان فى أعضائه دبيب السم القاتل . كان مصمماً على قتلها . وكان هذا هو الحل الوحيد الذي يدركه كل من فى هذه الاحياء وهو من بينهم . وكان عزمه على قتلها قد استقر حيث لم يكن له بديل أو باعث على التخاذل . وبرقت السكين بين يديه وأصبحت عيناه مخيفتين .. « سأقتلها ثم اقطع جسدها اربا صغيرة .. » وفى هذه اللحظة استلفت انتباهه شيء ما فاستوقفه. وركز عينيه فى الساعة الكبيرة المثبتة على الجدار بجوار الغرفة المقفلة . كانت دقات هذه الساعة ترن في اذنيه . أربع دقات متوالية وفجأة تذكر الزمن والتاريخ . وكان يوم الجمعة يأذن بالرحيل وفى أعقابه يتهادى السبت ويقف على الابواب . وكانت عادته فى مثل هذا الوقت أن يأكل ويستحم ثم يرتدي جلبابه الجديد تأهبا للذهاب الى الكنيس القريب حيث يستقبل السبت بصلوات خاصة . ولعن الطعام بيد أن السبت كان يحث خطاه . وهو لا يذكر يوماً أنه خرج على فريضة اليوم المقدس . وكانت السكين ما عتمت بين يديه تسطع وتفرز لعاباً من نار . وتردد . وخلال تردده كان الزمن يمضي . وكان عليه أن يختار بين فريضة السبت التي لم يخرج عليها

يوماً وبين فريضة غسل العار التي لاحت هي الاخرى له مقدسة ومفروضة • وكانت الفريضتان متغايرتي الملامح محكمتي التناقض • وبينهما شقة هائلة مغمورة بالخطايا • واستعجله دافع كامن فى أعماقه •• الى أين يا ترى ؟ ! •• وكانت سكينه مشهرة فى قبضته وعيناه تبثان الرعب على أن مظهره هذا سرعان ما ارتطم بشيء من الوجل وتلبس به • ووجف داخله على حين غرة ثم خيمت الرهبة على أنفاسه فارتدت نفسه على أعقابها وارتعد • « لا •• لست من المتدينين المنصرفين الى العبادة ، ولكن للسبت حرمة حتى على الكافرين • » وتصور سياط النار المنهالة على بدنه وهو يصلى فى جهنم ، فتخدر وعيه وتسارعت أنفاسه ولهث بصوت مسموع • « اما أن أستقبل اليوم المقدس بيدين ملخطتين بالدم ، فتلك هي الطامة الكبرى • » وكان الدافع فى أعماقه ما انفك يستعجله ، وأدرك رويداً ، ان الوقت يمضي ويستدرجه الى الخطيئة ، فاستدرك ذلك بفكرة حازمة أسعفته بها اللحظة الاخيرة • هب واقفاً وهو يقول لزوجته

ـ « أعيدي السكين الى موضعها وأوثقي ابنتك بالحبال واحكمي من اغلاق الباب وراءها • ان يوم السبت يحرم الخطيئة ، ولا بد من أن يمر بسلام • ولكن فى ليلة الغد وبعد الصلاة مباشرة سأتم كل شيء وسأرتشف من دمها الدنس بدل الشراب المقدس وسأكرمك برشفة من ذلك الدم الاسود • أما الان فأعدي لي الحمام والثياب الجديدة • »

* * * * *

كانت وحدها • وكان الموت يرقص من حولها على ايقاع مخيف

مصدره فى قرارتها • لقد كان يحيي وليمته على جسدها المسكين• سيقتلونها •• انها تدرك هذا جيداً • وهي موثقة الى سريرها بالحبال بشكل لا يمكنها من الحركة • ان أحداً لم يقترب منها ••• لم يفتح الباب ولم يقدم لها طعاماً • وكانت ضوان الوقت تنتحب بعد أن عاد نبع دموعها الذي نضب الى درالعبرات من جديد • ولم تكن تعلم بعد لماذا ينكلون بها جميعهم بمثل هذه الفظاظة • ولكن الموت المرتقب بدا لها فى خاتمة المطاف أشبه بنهاية طيبة للعذاب الذي انقض عليها من الداخل والخارج معاً • لقد بدأ هذا العذاب منذ بدأت مشاعرها بالتغير • صحيح ان لذة عابرة كانت تساورها فى بعض الاحيان ، بيد انها كانت موقنة من أن تلك اللذة كانت في النهاية ستستحيل الى لعنة • الان فقط تأكدت من أن مخاوفها المجهولة الغابرة كانت في محلها • لقد استطاعوا قراءة ما كان يجول في أعماقها فسارعوا اليها ينزلون بها العقاب • عاودها فجأة الحنان الذي كانت تقدمه لاشقائها قبل أن تشوش عليها المشاعر الجديدة الطارئة • « كيف تغيرت فجأة ؟•• وما هذا الذي أدخلني الى الدرب المسدود ؟ ! •• » بيد ان التساؤلات برمتها تجيء الان وبعد أن سبقتها الاحداث • وكان الصغار قد بدأوا يشمون رائحة شواظ عميقة تتصاعد من صوب الغرفة المغلقة • وحاولوا الاقتراب منها فطردوا عنها بقسوة • كما حظر عليهم التفوه باسم الشقيقة الكبرى خشية أن يصيب أفواههم الرجس • وسطعت شمس السبت على أرجاء المنزل فاضحة وجومه وكآبته • ولاحت مصيبته وكأنها مخدرة بفعل دواء مسكن • وكان الصمت الحائر الذي يلف أطرافه ، هو ذلك الدواء الذي لا يملك غير التحذير الموقوت • وكان الاب قد سمع عن حاخام الكنيس فى بعض مواعظه بأن مجرد التفكير أيام السبوت بمشاريع غير مباحة ، مثله مثل

تنفيذ هـذه المشـاريع تنفيذاً كاملا • وهـذا ما يعـد بحد ذاتـه خطيئة جسيمة • ولهذا السبب فقد تحاشى التفكير بمشروعـه الجهنمي ، المعد للابنة سرعان ما تغيب الشمس ويختفي السبت معها وراء الافق • وعندما وصـل داود ابن خالة راحيـل جرياً على عادته فى معظم أيام السـبوت ، حاول أن يبدو أمامـه طبيعياً • وبسط أمام داود خوان مليء بالفاكهة والمشروبات الروحيـة فبدت الوهـلة الاولى شـديدة التكتم على الكارثة المخيمة على الدار • على أن الوجوم ظل يخيم على كل شـيء • وكانت الوجوه واجمـة والجدران واجمـة وأرصفـة الفنـاء الكبير واجمـة هي الاخرى • وكان داود يحاول أن يكتشف شـيئاً غريباً يقع داخل هذا المنزل ويتستر عليه الصمت • فلم يكن يعير أحاديث زوج خالته اهتماماً • وكانت تلك الاحاديث فارغة • وكانت بمثابة محاولة مضادة ترمي الى شغل الشاب وابعاده عن كل شبهة قد ترقى اليه • وكان يخيل للرجل أنه اختار تلك الاحاديث بدراية ودقـة تسـتحقان الاعجاب • وانـه لذلك يستحوذ على مشاعر داود ويبعده عـن الشكوك برمتها • وكان يتحدث عن « طنطل » وقال في سـياق حديثه

ـ « •• وان هذا (الجني) مسـالم ولا يؤذي أحداً • وهو مغرم بالضحك وعلى أساسه يختار مقالبه كلها • وقد وقعت لي معه ، قبـل شـهور قليـلة حادثـة طريفـة وغريبـة • »

وكان داود يواجه بعض الضيق من دون أن يخرج عن صمتـه • فهـذه الاحاديث غير المقنعـة ، تثير مللـه وتبرمـه • وكان مـا عتم مستمراً في محاولته العثور على الجانب الشـاذ الذي يلاحقه للمرة الاولى فى هذا البيت منذ أن اعتاد على ارتياده ، والذي يثير فى نفسه احسـاسـاً غامضاً بالغرابة • فكر وهو مندهـش •• « ترى ما الذي يحملني على زيارة هؤلاء الناس الذين لا يمكن أن تسمع منهم غير هذه

الاحاديث الغثة السخيفة ؟ ! .. وكان رده على نفسه يبدو على قاب قوسين أو أدنى بينما واصل الرجل حديثه باعجاب

ـ « .. ففي أحد الايام بينما كنت فى طريقي الى المسلخ مبكراً عثرت على خروف صغير مدملج يتهادى وحيداً فى الطريق على مقربة من المنزل ، فأيقنت بأنها لقية ثمينة وعزمت على سحبه الى البيت ثم العودة الى المسلخ . ولكني كنت أسحبه خطوة واحدة فيعود بي ثلاث خطوات الى الوراء . ولقد بذلت من الجهد ما أتى على طاقتي كلها حتى أفلحت فى الوصول به قريباً من المنزل . ولكن أمراً فى غاية الغرابة وقع فى تلك الاثناء . فقد افلت الخروف من بين يدي وخرج من هيئة الخروف فاذا به بشر مثلنا . وما لبث أن قهقه بصوت ساخر ثم اختفى مسرعاً . ولا أشك فى أنه كان طنطل بعينه ورأسه..»

وكان يتوقع من داود أن يبدي استغرابه ودهشته . بيد أن الاخر كان مشغولا بالرد على نفسه . لقد كان هذا الرد قد أصبح بين يديه الان . وكانت راحيل هي محوره . فهي التي كانت تحث بخطوه الى القدوم هنا في فترات متقاربة . ومذ كبرت لم يعد يعبأ بشتى ضروب النتن التي تغمر هذه الامكنة . لقد كانت تشده الى رؤيتها بلهفة عارمة . وعاد الى التفكير .. « ان غيابها هو الذي يضفي هذا الشذوذ على المنزل . » وتساءل بفضول

ـ « ولكنني لا أرى لراحيل أثراً ؟ ! .. »

وأصاب السؤال صميم الرجل وكاد أن يفحمه . ولكنه تدارك صدمته فقال مداهناً

ـ « انك لم تقل لي رأيك فى تلك الحادثة الغريبة . »

ـ « ولكنني أسألك عن راحيل .. »

ـ « وأنا أسألك عن رأيك فى القصة . »

فقال بتبرم

ـ « هب انهـا هائـلة .. رائعـة .. ولكن أين راحيل ؟! . »

وكان الاب مرتبكاً فتلعثم

ـ « دعني أقص عليـك حـكاية أغرب .. »

فصـاح داود

ـ « يكفي أحاديث فارغة ولا تتهرب من سـؤالي .. »

ـ « أي سـؤال يا بني ؟ ! .. »

ـ « عجيب أمركم . ألم تفهم حتى الان ؟ ! .. أنني أسـأل عن راحيـل .. راحيـل ؟ ! .. »

ـ « لا تشـغل بالـك بالامـور التـافهـة ، وافرض انهـا قـد ماتـت . »

وفكر .. « كنت واثقـاً من أن شـيئاً مـا يحـدث . ان هـذه الكلمـات الهمجيـة لا بد وأن تخفي فى طياتها أمراً خطيراً .. »

وصـاح بدهشـة

ـ « ما هـذا الكلام ؟ ! .. كيف تريدني أن افكر مثلك وأفرض بكل بسـاطة أن راحيـل قد ماتت ؟ ! .. »

فتأفف الرجـل وقـال بضجـر

ـ « لا داعي للجـدل . فمهما حاولت فلن تجرني الى ارتـكاب الخطيئـة باسـتدراجي الى التحدث عن امور تنقض من حرمة هذا اليـوم الذي قدسـه الله . »

ـ « مـا هـذا الهراء ؟ ! .. انني أسـألك عن راحيـل ابنـة خالتي فأي خطيئـة فى هـذا ؟ ! .. »

فصاح أكبر الصبيـة الذين كانوا يتجمعون عن كثب

ـ « انهـا داخل الغرفة مربوطة بالحبـال ومقفل عليهـا بالمفتاح .. انهـم سـيقتلونها سرعان ما ينتهي اليوم ويحل المسـاء . »

وفار غضبـه مرة واحدة وطغى على صوابه . ولم يكن بعد يملك

أعصاباً • « يا للوحوش • المجانين الذين يتصرفون بالانسان كما لو كان خروفاً • » وكانت هذه الفكرة تغلي فى جوفه وتضاعف من فورة غضبه • وانطلق باتجاه الغرفة وهو يصرخ

ـ « افتحوا الباب •• »

وفى أعقابه كان الجميع ينطلقون كالذئب • وتعلق به الاب محاولا أن يحسم بوجهه الطريق ولكن يديه افلتتا وشرعت راحتاه تهويان على الباب المسدود بقوة

ـ « اذا لم تفتحوا هذا الباب فسأضطر الى تحطيمه •»

وكان نحيب الفتاة يترامى من الداخل محاذياً لكلمة الحطام التي قالها • ولم يكن ذلك النحيب يملك من صفات الانسان المميزة له شيئاً ما عدا الالم الممض • وخيل لداود أنه يسمعها تهمس بضراعة

ـ « انني لم أفعل ما يستوجب القتل •• »

طارت البقية الباقية من صوابه وانقلب الى زوبعة

ـ « افتحوا الباب والا فسأحطمه •• »

وكان الاب يعاني مزيجاً من الغضب والاحراج • عاد ، فأمسك بذراع داود وصاح محذراً

ـ « عد أدراجك والا فسأقتلكما معاً • »

وفجأة تراجع مخترقاً الكتل البشرية التي تحاصره • وكان فى مواجهة المائدة المفعمة بالمشروبات والفاكهة • وفكر ورأسه يلتهب « من وراء هذا الاحتفاء الكاذب كانت الجريمة المدبرة تمضي فى سبيلها الى التنفيذ •• » وبدا كل شيء أمامه كالمظهر البراق الذي تغلفه القذارة • ركل المائدة بحذائه فانكفأت على الارض بما عليها • وفرقعت فى الفضاء أصوات الصحون والاواني المهشمة • وبعد نظرة قصيرة متشفية الى ذلك الحطام الذي

صنعه بيديه ، شرع يحطم كل ما اعترضه فى طريقه من أشياء . وصاح الاب وقد استبد به الجزع على ممتلكاته الحقيرة التي تفنى تباعا

ـ « أوقفوا هذا المجنون عند حده . لقد فقد صوابه وسيأتي على البيت برمته . »

ـ « ان الله نفسه يفقد الصواب تجاه هذه التصرفات المعتوهة ! .. »

وعندما أتى على كل ما يمكن تحطيمه أحس ببعض التفريخ . وكان الان يشعر بأنه يملك ما يقوله فانتصب بين أشلاء ضحاياه من الصحون المهشمة والكراسي المحطمة وقال باصرار

ـ « ان أحداً لا يقدر على انتزاع شعرة واحدة من رأسها . »

فصاح الاب من وراء حنق قاتل

ـ « انها ملكي أنا . وسأفعل بها ما يروق لي . وليس من حق تافه مثلك أن يحاسبني على أشياء تخصني وحدي . ان كل ما عليك أن تفعله هو أن تدفع ثمن الاضرار التي الحقتها ببيتي.»

ـ « ان راحيل ليست ملكاً لاحد . انها ملك نفسها . أما اذا كنتم تصرون على تسمية حماية الانسان بامتلاكه . فانها من الان وصاعداً ستصبح في حمايتي الشخصية ... »

فقاطعه الاب متسائلا بسخرية وتهكم

ـ « بماذا يهذي هذا الاحمق ؟ ! .. »

ـ « لست أحمقاً كما تتصور . فأنا أعني ما أقوله وباستطاعتي أن أحمي راحيل من هذه الهمجية لانني .. سأتزوجها . » وكان قراره هذا يحدث بالامور تغييراً مفاجئاً . وكان هذا التغيير المفاجيء يلقى وقعه فى قرارة الام ذاتها . فرغم ان العمل الحاسم الذي بحثت عنه طوال يوم أمس كان قد وجد أخيراً بعزم الاب على غسل العار ، فان شيئاً فى أعماقها مكث مشنوقاً معانياً من حيرة غامضة.

كان ذلك الشيء ما انفك ينقب في كيانها غير مقتنع اقتناعاً كلياً بالجريمة . وكان أعمى .. وكان يخبط في عتمة دامسة على غير هدى ومن دون أن يكون له هدف معين . وفجأة كان ذلك الشيء يتخلص من العمى ويرى بوضوح . وهزها على حين غرة بشر طاريء فتساءلت وهي غير مصدقة

ـ « تتزوجها ؟ ! .. أحقاً ما تقوله يا بني ؟ ! .. »

ـ « انني جاد كل الجد يا خالتي .. »

ولكن الأب كان لا يزال مصراً على موقفه .. « ان وصمة العار ستبقى ماثلة ما لم يغسلها الدم البشري . » أما الذباب فسيتكاثر من حوله وسيظل يطن في اذنيه . وقال وهو يبذل مجهوداً عنيفاً للابقاء على صموده

ـ « انها ستموت .. وهذا يعني انها ستموت . »

وقاطعته الزوجة بتوسل يحاول أن يكون موسوماً بطابع الاقناع

ـ « لقد كان موتها ضرورياً حين لم يكن ثمة حل آخر . أما الان فهذا شاب يعلن عن استعداده للزواج منها على عيبها . » وفكر .. « الزواج منها على عيبها ؟ ! حقاً انها مسألة ثانية . » وقال:

ـ « دعوني افكر .. »

وفي ذات الموضع الذي اتخذ فيه بالامس قراره الخطير ، عاد فهوى ومدد ساقيه . وكانت أشلاء الصحون المحطمة تتناثر من حوله وتثير في نفسه احساساً غامضاً يرغمه على التراجع . وتصاعد من منخريه ـ وهو يفكر ـ زفير حار ذو صوت كالشخير . وحاول أن يقيس الكرامة المطعونة وطنين الذباب ، بجريمة القتل وستة شهور من الحبس . وكان ذلك يبدو متوازياً لولا انه يمقت أهل الحي برمتهم الى حد الموت . وفكر .. « انها صفقة لا بأس بها . فستربح ستة شهور من الحرية وستبقى يداك نقيتين من الجريمة.

أمـا الذباب فمجرد حشرة وضيعة لا يقدر طنينها أن يحرك فى جوارح الانسـان سـاكناً • » ونظر الى الذباب المتراكم حول أفواه أبنـائه فأحـس بالاشـمئزاز وبصق على الارض • ثم تململ ببطء وأخيراً همـس بصوت خافت أجـش

ـ « موافق • شريطة أن تنقلها اليك منذ الان • وأن يتم الزواج بأسـرع مـا يمكـن • »

وضحك داود وكانت نبرتـه تفعمهـا نشـوة الظفر

ـ « وهـل كنت تتوقع غير هـذا ؟ ! •• هـل كنت تعتقد انني سأبقيها تحت رحمـة من لا يجـد الحلول الا بالقتل وحده ؟ ! •• »

* * * * *

وبعد الزواج مر اسـبوعان تميزا بالصمت المطبق • وكان فضول الابوين الى معرفة الحقيقة يتضخم ويصبح كالبالون المنفوخ المشـرف على الانفجار ، فلا يواجه الا بتكتم شـديد كان يزيده توتراً ويعرضه للمخاطر • وبعد هذين الاسبوعين الصامتين كانت ثمة سعادة متهكمة تغمر طلعـة داود وتعلن عن اختتام الصمت والتكتم • كان قـد عزم أخيراً على اسعاف الفضول المتأجج فى قرارة الابوين وعلى أن يريهمـا المواضع الموجعة التي خلفها طنين الذباب • ذلك الذي كان سـيؤدي الى اقتراف الجريمـة وقـال

ـ « لقـد كان الناس يعتقدون أن زواجنا قـد تم بالفعل منـذ اسبوعين كاملين • بيـد أنـه فى الواقـع لم يتم الا ليـلة البارحة • لقد كان هنالك عقبات حالت دون اتمـامه فى موعده المفروض • كانت راحيـل فى باديء الامر تشـكو من آلام فى أسـفل جوفهـا وقد قالت الطبيبة المختصـة بأمراض النسـاء أن الآلام المذكورة ناجمـة

عن خدوش سطحية فى فوهة المهبل ، وانها على الارجح خدوش أحدثتها أظافر قذرة • وفى هذه الحقيقة لم يكن هناك ما يدهش فما من شك بأن أظافر « حاكولي » و « هامي » هي التي فعلت ذلك كله • ولقد شفيت هذه الجروح السطحية بسرعة وبعد علاج بسيط بيد أن مشكلة اخرى كان يجب أن تجد سبيلها الى الحل • كانت راحيل تهلع من « الزواج » الى حد الرعب • ولم يكن بوسعها أن تتصور أن بالامكان أن تتعرى أمام احد حتى ولو كان ذلك زوجها بالذات • لقد بذلت مجهوداً جسيماً كي اقنعها بالحقيقة وطبيعة الاشياء • وعندما أفلحت فى ذلك اتضح لي أن هلعها من « الزواج » لم يكن ناجماً عن خوف من افتضاح سر قد يكون وخيم العواقب • لقد كانت راحيل طاهرة • أما خوفها فكان مبعثه على ما يبدو النتائج البشعة لكل ما وقع من ملابسات •• »

وطفحت الوجوه بالبشر • بيد أن حقداً دفيناً كان يندس فى أعماق الاب متستراً خلف طلعته السعيدة • وكان هذا الحقد يجابه سكان الزقاق باللعنات وبأقذع السباب • وكان الرجل يتلظى وهو يرقب عن كثب الزغاريد المنطلقة كالسيل من فم زوجته• وفجأة صوب اليها حقده المترامي وفكر •• « الحمقاء التي كانت ستبكي بدل أن تزغرد • لو خطر لي أن أقتل يوماً فلن أقتل أحداً سواها أبدا ! ! •••• »

الخـــطـــأ

اصطادوه وهـو مختبيء فى كهف من تلك الكهـوف الكثيرة التي حفرتها الطبيعة بسـخاء بـين جبـال السامرة • وكان معـه رفيقان قتـلا بعد أن حاولا المقاومة • أمـا هو فقـد ألقى سـلاحه وخرج الى النور زاحفـاً على أربع • ولمـا انتهى الى فوهة المغـارة انتصب على ركبتيه وشرع بيديه عالياً الى السـماء وكأنما فى صـلاة • وكان استسلامه يتم تحت وطأة من الانهيـار التـام البادي على محيـاه• كان خائفـاً حتى الموت ، ولعل خوفه هـذا نجم عن رؤيته لصاحبيه، اللذين صنعا فى مخيلتيهما المعجزات ، وقد اسـتحالا بين لحظة ، الى جزء جامد حقير من هـذه الطبيعة الصامتـة • كان خائفـاً الى حـد الموت •• الى حـد جعـله ينسى أنـه مدين للخوف ذاتـه ، بنجاته من هـذا المـوت •

وبينمـا شـرع بعض الجنود بتفتيـش المغارة ، واخراج الجثث والسـلاح ، كان عليـه أن يرد على بعض الاسـئلة • وكان وعيـه الذي تبعثر بـين أحشائه على شـكل فتات من الجليد يتجمع ويرتد الى رأسـه مجابهاً اياه بكثير من الحيرة والمرارة • لقد نجـا بالفعل ، وخرج الى النـور • ان عينيه ترمشان بالضوء فى عسر وألم بعـد أن كانت احداقهما قد اتسـعتا عن آخرهما في عتمة الكهف • والشمس تسطعه بلا مبالاة مطلقة ، فتمتص من جسده رعشة الرطوبـة ورائحة العفن اللذين اغتسـل بهما الساعة تلو الساعة • ولكن هـذا كـله لم يكن يحمل معنى الحياة الصحيحة كما كان يجسـدها في رأسـه• فثمـة عائق كبير مـا عتم يحول بينـه وبـين التفكير • عائق يؤجج سـخطه وذهولـه في توافق زمني عجيب الدقـة فلا يبقي في وعيه

المستعاد على شيء من الجدوى

وسئل ـ « اسمك ؟ »

فغمغم في آلية تامة وكأنما لم يبق من شخصيته غير هذا الاسم

ـ « محمد أبو زمارة .. »

ـ « وعمرك ؟ .. »

ـ « خمسة وعشرون عاماً . »

ـ « هل أنت فدائي ؟ ! .. »

واهتز رأسه بالايجاب في خيلاء . كانوا بهذا السؤال يعيدون له بعض شخصيته التي نضبت . ولكن السؤال التالي عاد فأفحمه

ـ « لماذا قتل زميلاك وفضلت أنت الاستسلام ؟ ! ... »

حملق بالجبال والوهاد والبقع الخضراء التي تلوث وجه الطبيعة . كل هذا هو الارض ! . أرض لها نكهة معينة ورائحة لم يكن ليعثر على صنوها فى غيرها من أرض الله الواسعة . ان الزيتون هنا حلو المذاق ، ولهذه التضاريس غير المتناسقة، بقعة فى رأسه تشبه الدرن . ومن العجيب أنه يراها ثانية بأم عينيه .. أما صاحباه فلم يعودا الا جزءاً منها . وعما قريب سيمتزجان بها تماماً بفضل عملية كيماوية بشعة تحول الخلايا التي تبدو الآن متماسكة ، الى ذرات تشكل نوعاً من السماد ... مجرد سماد .. !! ..

كان السؤال وقحاً . انه لا يستطيع أن يرتفع على أروع العبقريات البشرية صفاء فيخترق ذلك المجال الفاصل بين الانسان ومجاهل نفسه ليؤتيهم من هناك بالرد . كان هنالك سبب دون ريب . ان لكل شيء سبباً ، بيد ان الاسباب ليست دائماً من الطواعية بحيث تنضي ثيابها وتقف أمام الانسان عارية . ولأن

السؤال كان صعباً ، فقد كان لا بد أن يتصف بالسماجة والوقاحة معاً • وفكر •• « حبذا لو عاد الزمن الى الوراء ساعة واحدة •• ساعة صغيرة تافهة وهزيلة القيمة •• » وكانت الشمس قد شربت من جسده رطوبة الكهف فشرعت تمتص دماءه وكان التعب يزحف الى بدنه بسرعة متناهية • وفضل أن لا يقول « لست أدري »فأحنى رأسه ووقع على الصمت في تلك البقعة من الفراغ المنتشر بين فرجة ساقيه المنتصبتين • وهكذا مكث حتى تحركت من حوله ايماءات وصمها عقله الصامت بالخبث ، فاحترقت أعصابه من جديد وأتى بحركة برمة لم تعن شيئاً ثم واصل الانتظار •

* * * * *

ألقى « يورام » بالعوزي على فخذيه مبقياً فى كفيه وساعديه على شكل من التأهب يتيح له السيطرة على الزناد عند أول بادرة • بيد أنه وبعد بضع دقائق من بدء الرحلة أدرك بدافع من المنطق والسأم، ان وضعه هذا لم يكن له ما يبرره ، فعدلت راحتاه عن التشبث بالحديد البارد وتراجعتا الى الوراء قليلا ثم استقرتا وراء ردفيه ، شبه مكورتين • وكفت أفكاره عن التحويم حول الآلة الرهيبة فغض عنها أبصاره وتركها تغفو على فخذيه ناسية فى أحشائها تلك الجرعات الثقيلة من الموت المهيأ للاخرين •

كانت الطريق طويلة • ولم يكن يرى من القرص الاحمر السابح فى كبد السماء غير تلك الانعكاسات التي تعرئي المشاهد وتترك فى الفضاء بياضاً شفافاً تخترقه فى أوضاع معينة أعمدة من الشعاع يكشف فى مجاله عن الغبار الكثيف الكامن فى الهواء • وكان يورام مولياً بوجهه شطر المشرق • أما أبو زمارة فقد جلس فى محاذاته تماماً

من دون أن يستطيع رؤية الشمس المزروعة حذو عينيه عالياً شأنها في مثل هذه الساعة من كل يوم • كان ثمة حاجزان يحولان بينه وبين الشمس • خيمة السيارة القاتمة ، وغلالة عصبت بها عيناه في احكام • وثمة أشياء ثقيلة ورطبة مكثت حول معصمينه وفي أسفل ساقيه تبدد عن شعوره الاحساس بأثر ذلك الجرم الهائل الذي عجز عن رؤيته، وتعيد بذاكرته الى ساعات المغارة الرطيبة المظلمة • وبين فينة واخرى كان يورام يحدجه بنظرة خاملة ثم تعود أبصاره فتتابع أجزاء الطريق المنحسرة من وراء سيارة الجيب باستمرار • وكانت الطريق طويلة• وكانت ملقاة بين أحضان الجبال كأفعى متناهية الطول سوداء لامعة • وكانت أحياناً تنحرف يميناً ثم تعود فتتجه فجأة الى اليسار • وربما تطوق عنق احدى الهضاب فتلتف حول نفسها محولة المشرق مغرباً والمغرب مشرقاً • وكان يورام يقطع هذه الطريق للمرة الثانية منذ أن ترك بالامس مقعده في الجامعة ليمضي في الجيش أربعين يوماً من الخدمة الاحتياطية • ولم تكن قد اتيحت له من قبل رؤية الدماء التي ساحت على ثرى هذه الجبال ابان حرب حزيران• فقد كان يومئذ يحارب في الجنوب•• فيجبهة سيناء• وكانت الصحراء القاسية قد قطعت معه عهداً وثيقاً حفر في رأسه ذكريات عميقة غامقة وقوية البقاء • أما هذه الاجزاء من الطبيعة المسماة بالضفة الغربية ، فقد مكثت بالنسبة له ، شبه غريبة • وكانت رغم كل شيء مدعاة لفضوله•• كانت عريقةالقدم فيقرابتها الىنفسه•• وكانيحاول جاهداً أنيبددعن عينيه تلكالغرابة ليكتشفالقرابة الوثيقة التيتربطها به ، مثلما يحاول الابن الذي يلتقي بأمه بعد جيل كامل من الفراق • واستطاع يورام أن يميز في هذه الجبال شيئاً غريباً قلما استطاع أن يعثر عليه في الجبال القريبة من الساحل • كان القدم يختم على هذه الجبال بلونه البالي • ان الصخور البنية تميل هنا الى البياض ، وهي

تعاني من الجفاف الشديد والتعب • كان من الواضح أن أقداماً كثيرة وطأت هذه الارض • هذه هي الاخاديد التي حفرتها سنابك الخيل فى قديم الزمان •• ها هنا اصطدمت جيوش الاجداد بالجيوش المعادية وقهرتها ••• لقد سالت على هذه الجبال دماء كثيرة وما عتمت تسيل حتى الان ! •

دفعته فكرة الدماء الى التحديق ثانية فى أبي زمارة • كانت نظرته الآن تحمل شيئاً من الازدراء والاشمئزاز • فهذا الرجل جاء من أجل أن تهرق دماء جديدة ، وأغلب الظن أنها كانت ستفرغ من دماغ طفل ، أو قلب امرأة ، أو صدر لاهث لشيخ عجوز • وغرق يورام فى غلالة الدم المتماوجة على وجه أبي زمارة المعصوب • وبدا الوجه أولا بشعاً ومريعاً وكأنه وجه مسخ • ثم فجأة ، هبت على فكرة الدماء عاصفة طارئة فتبددت معالم اللون الاحمر وبقي الوجه • ودهش يورام • كان الوجه قد استحال الى وجه انسان بكل معنى الكلمة •• وجه بشري ممعن فى بشريته •• وجه لا يختلف عن أي وجه آخر يحمل مقومات الانسان • وحرك يورام جفنيه ومكث ينظر فى الوجه • ففجأة تحول هذا الوجه من الهامش واستقر فى صميم الدماغ• وكان عادياً الى حد يثير الاستغراب •• وكان واجماً من وراء العصابة ، مطرقاً • ولم يكن يعلق به شيء من العنف الذي كان يطبعه قبل قليل • فهذا العنف قد انبثق فى تلك الفجاءة الى الخارج مع كل شيء ، واستقر هنا فى هذه الفسحة الصغيرة من الهواء الفاصل بينهما• مكث معلقاً فى الفضاء الصغير • غامضاً •• ناقصاً •• مجرد احساس ناجم عن الخيال الذي تثيره الكلمة • ولم يكن أبو زمارة قادراً على قراءة أفكار يورام أو اقتناص نظراته• كان جالساً فى مكانه كالمتجمد• وكان وجهه لا يرى شيئاً على الاطلاق • وكان يورام يكتشف أن

هـذا « الفدائي » الذي جاء ليروي الأرض بمزيد من الدماء ، لم يعد فدائياً • وانه لم يعد قادراً على قتل ذبابة واحدة • وان ثمة أسباباً واضحة وملموسة قد صنعت هذا التغيير وحسرت ـ من ثم ـ عن انسانية أبي زمارة بعد أن كانت متسترة وراء حائط كثيف من ضباب البشاعة الملازمة للقتل والتدمير • وكانت هذه الافكار تزحف تحت ثياب يورام العسكرية وتزرع فى بدنه شعوراً مركباً قوامه الارتياح والقلق • ان الاسباب الواضحة والملموسة لهذا التغيير الجذري الذي طرأ على الحقيقة كانت أسباباً قهرية • وأبو زمارة يمعن فى اطراقه •• وربما كانت تلك الاسباب القهرية تعني النصر ولكن الوجه الاخر للنصر هو الهزيمة• وكانت الهزيمة الان هي من نصيب أبي زمارة • وكان يمعن فى اطراقه بعد أن استحال الى انسان « عاجز » •• وكان يفكر فى صمت من وراء الغلالة الرابضة على عينيه ••• بماذا كان يفكر يا ترى ؟! •

تردد السؤال عميقاً فى سر يورام رغم أنه كاد أن يكون مغنياً عنه • وكان الرد عليه يبدو لأول وهلة شديد الشفافية • وكان يلوح أشد وضوحاً من الوجه المعصوب العينين • بيد أنه كلما تكرر ازداد ذلك الرد الشفاف شبهاً بالماء الزلال الذي نحركه بقوة ، أو بقطعة البلور الصافية التي تصطدم بها أنفاس حارة فى مساء شديد البرودة • ان بالمستطاع تصور أشياء موجودة خافية عن الانظار• ولربما تمكنت المخيلة من اعادة بناء أشياء كانت ثم لم يعد لها وجود • أما التحديق الدقيق فى الافكار التي تجري داخل الرؤوس الاخرى ، فلا شك فى أنها مهمة لا جدال على استحالتها ! •

كان يورام يجد وراء هذا التحديد الدقيق للافكار • وكان بمقدوره أن يتصور أن أبا زمارة كان يحترق من وراء الصمت • أجل ••• وثمة وراء ذلك الجبين بركان يهدر وأفكار لم تستطع ظروف العودة

الى الانسان العادي أن تغربلها من الحقد • وربما كان أبو زمارة الآن يحقد على الزمن فوق ما يحقد على الانسان• وربما كان يلعن هذا الزمن الذي سبقه بغتة ليحرث أفكاره كلها ويحوله الى مجرد « انسان عاجز » • ولكن استحالة التحديد كانت تلاحق يورام وتضايقه • وفكر فجأة « انها تشبه رغبة الامساك بتلك الحصاة الصغيرة الملقاة فى قلب الطريق وهي تبدو لحظة انبرائها من وراء سيارة الجيب وكأنها فى متناول اليد تماماً ، ثم قبل أن تنتهي الفكرة تكون قد غابت عن الانظار • » وكان هذا ينطبق على كل شيء لحظي • الافكار ، والاعمال • والوجود نفسه • وكانت عيون أبي زمارة ترتجف فى النور ثم تهدأ •• وكانت الان ترى كل شيء حتى العصابة المهملة الى جانبه • وكان يورام يبتسم فى رضى • كان يريد أن يرى الوجه كاملا ومن غير عصابة • وكان يريد أن يراه وهو يفكر من خلال امعانه بالاشياء • كان يعلم أن التفكير فى الظلام يختلف عن التفكير فى النور •• يختلف •• وفى الاختلاف معنى بغض النظر من حجمه أو طريقته •

وفى الجانب الاخر كان أبو زمارة يرى الاشياء بوضوح • وكان هذا هو بداية الاختلاف ، غير أن هذا الاختلاف لم يأت • فقد كان رد الفعل ما عتم متجلداً فى الداخل ، متصلباً ، لا يملك من تلقائه المقدرة على الانسراب • وكان الظلام والنور يصبحان على حين غرة ندين متشابهين فى كل شيء • وكان الصمت والتجمد ميزتين تختمان طابعهما على النقيضين وتجعلا منهما شيئاً واحداً • وقال يورام فجأة بصوت منفعل :

ـ « انك ترى الان كل شيء بوضوح يا أبا زمارة • »

ولكن الاخر لم يسمع ولهذا السبب فلم يجيء الرد كما توقع يورام • وكانت قطعتان من النحاس اللامع تومضان على كتفي يورام

ثم تخبوان بينما تصطدم أبصاره بالعصابة الملقاة فى اهمال بجوار أبي زمارة • وتساءل فى سره « هل ثمة اهانة لرتبته العسكرية وللمهمة التي كلف بها ؟ ! •• » كان من المفروض أن يبقى أبوزمارة كفيفاً الى حين يجلس أمام محققه فى الجانب الاخر من الطريق • مزيج من الروتين والحيطة •• وفجأة قرر يورام أن على أبي زمارة أن يرى وأن يفكر فى النور • وكان يعلم أن ذلك سوف لا يغير من الاحداث القادمة شيئاً • فهذا الرجل سوف يحاكم ثم يدان بناء على التهم الثابتة ضده ثم يلقى فى غياهب السجن • وغداً سيلتقي بأبي زمارة ثان وثالث ورابع •كثيرون هم أولئك الذين سينقلون على هذه الطريق أو غيرها بعيون معصوبة وأياد مكبلة بالحديد • وكثيرون من ستبقى الهزيمة والعصابة تشيدان بينهم وبين الطرف الاخر هذا الجدار الكثيف من الغموض • كانت هنالك حقائق دفينة خلف ذلك الجدار ومن طرفيه • وكان هذا الجدار يسخر من هذه الحقائق ويشوهها • وكان هو ، يريد أن يعلم مبعث الخطأ الذي يهين الانسان ويشطره الى قسمين متباينى المعالم فى حد دام حالك السواد اسمه العداء • ولهذا السبب لم يكن ما أقدم عليه مجرد فضول أو خروج على القاعدة • ان الانسان عبد للمفاهيم • ولكن ماذا يحدث لو أنه خرج يوماً على ما لا يجدي نفعاً من هذه المفاهيم ؟ ! ••••

وعاد يقول :

ـ « بيننا ساعة كاملة ••• فرصة وهبتها لكلينا كي يكتشف كل منا بعض مجاهل صاحبه • انني اريد أن أعلم كيف يمكن أن تزول هذه المعالم التي دفعت بنا الى هذا المكان ، كلا فى موضعه وظروفه ، كي يصبح فى نظر الاخر « انساناً » عادياً ،بمعنى أن نكون أصدقاء ، كما تحتم هذه الكلمة ••• »

وكان فى الوقت نفسه يفكر ... « انني اريده أن يتكلم .. لقد رفعت العصابة عن عينيه من أجل أن يجد مزيداً من البواعث على النطق . وسنرى .. فربما كان ذلك مجدياً أكثر من هذا الصمت المنتشر على أرضية من العيون المشدودة ... »

* * * * *

لم تتح الفرصة لابي زمارة لان يدهش من هذا النور الذي طرأ على عينيه بغتة قبل أن يداهمه ذلك الواقع الذي سيطالب شيئاً فى أعماقه بأن ينتفض ، باحثاً عن اسلوب جديد ، من ذلك الذي يسمونه بالدفاع عن النفس . كان يفكر فى الظلام . وكانت أفكاره دبقة . وكانت ملتصقة برأسه ومستمرة بحيث عجز النور عن القضاء عليها . ورمشت عيناه تلقائياً من دون أن تحدث تغييراً على عقله . وانحرفت سيارة الجيب انحرافة حادة تاركة وراءها نصف دائرة ضاعت معالمها وراء هضبة شامخة . وتأرجح يورام ... وتأرجح أبو زمارة ... وتأرجح المدفع الرشاش ... وتأرجحت الغلالة ، ولكن الفكرة الدبقة فى رأس أبي زمارة مضت فى طريقها لا تلوي على شيء .. وكان يفكر بهؤلاء « اليهود الجبناء » وبالعصابة ذاتها .. وقال عقله وهو يضغط على هذه الصفة.. « لو لم يكونوا كذلك لما عصبوا عيني ليحولوا بيني وبين رؤية أماكن أعرف مواضع كل واد فيها وكل مرتفع وكل شجرة . » وكانت الفكرة ذاتها مثيرة للدهشة . قبل شهور فقط لم تكن لهم هذه الارض . كانوا يجهلون معالمها . فحتى سياراتهم لا تتقن السير فى طرقاتها وهم ما عتموا يضيعون فى أرجائها ويتخبطون فى مسالكها خبط عشواء . وعندما يعصبون عيوننا ويحولون دوننا ودون الرؤية

يخيل لهم أننا سننسى الارض • وسخر عقله فى غيظ ••• « ألا يعلمون أننا حتى فى هذا الظلام الدامس نستطيع أن نميز المواضع من كل رجة تحدثها السيارة أو انحرافة تعترضها فى الطريق ؟ ! •• » وحل النور على عينيه وهو يتساءل فعرف المكان وأحس بشعور طاريء منتصر • « كنت اخمن أننا نسير على هذه الطريق وأننا بلغنا هذا الموضع بالذات •• » وكانت هذه « المبالغة » تعصف فى رأسه مضمخة فيه روح الاقتناع بالحافز• وكان « اليهودي » الذي يجلس حذوه يتفحصه بامعان • وأجزم أبو زمارة فى سره كأنما يخاطب يورام ويخاطب مع يورام كل أبناء جلدته •• « مهما فعلتم لاستدراجنا عن هذا الحافز فلن نحيد عنه قيد انملة • » ولكنه فجأة انتفض ••• فى هذه اللحظة بالذات تكلم « اليهودي » المكلف بتسليمه •• وكان يتساءل عن زوال المعالم التي تجعل كلا منهما فى موضعه ، وهو يبحث عن شيء اسمه الصداقة •• لقد كان يقرأ أفكاره •• وكان سؤاله يصيب صميم فكرته ويحدث فى وسطها ثغرة •• وكانت هذه الثغرة طارئة بحكم المفاجأة •• كان التصميم قد أصبح بديهياً •• لم يعد ثمة من حاجة للتنقيب وراء هذا التصميم عن دوافعه • وكان أبو زمارة يستطيع أن يقول ما يقوله كل طفل يولد هناك فى الخيام وينمو فى العراء بين العواصف المزقة والسموم المحمومة • وابتلع ريقه الذي جف من فرط الغيظ والمفاجأة • وكان فى برهة قصيرة ينسى مكانته ويتمالك رباطة جأشه • وقال فى شبه آلية :

ـ « اجلوا عن الارض ••• اجلوا عن الارض •• »

وكان يورام يرغب فى سماع شيء آخر • فهذه الصرخة كانت تقيد المنطق وتشل الافكار • وكان يسمعها منذ زهاء عشرين عاماً كانت وما تزال عقيمة •• متعنتة •• متطرفة •• عمياء ••

صماء .. معدومة البصيرة لا تريد أن ترى شيئاً غير الدم . ويومئذ كنا أيضاً نبحث عن الوئام والراحة . وكنا نبحث عن شعبين يعيشان معاً فى سلام . ولكن هذه الصرخة كانت وما فتئت تحيل الاشياء كلها الى عبث .. مجرد عبث . وفى تلك الليلة كانت الفرحة غامرة وكانت ترانيم البهجة تطغى على أزيز الرصاص. وجاء العديد من أشباه البشر .. جاؤا ليكونوا بشرا . جاؤا ليرتدوا الوجود .. وجودهم هم .. وكان هذا الوجود محرماً عليهم .. وكان محظوراً كالفردوس المفقود .. وكان كل جيل من الاجيال الغابرة لا يتقن عن سلفه الا شيئاً واحداً ، أن انضوا عن أجسادكم هذا الوجود وامكثوا فى العراء .. على الهامش.. مجرد صور .. وكان من هذه الاجيال من ضاق ذرعاً بهذه الصور المركونة على الهامش فعمد الى محقها وابادتها من على وجه الارض . ثم جاءت تلك الليلة لتجمع الرفاة البشري وتعيد ترميمه .. جاءت لتكفر عن الجريمة .. لقد أثبتنا للعالم أننا ككل البشر نستحق أن نحيا . ولاول مرة منذ الفين من السنين ، حدثت معجزة .. اتفق النقيضان الكبيران فى هذا العالم على أننا نستحق أن نمنح وجودنا . ومن وراء النقيضين وقف العالم برمته، الا هذا الشعب الذي نحيا بجواره .. وفى تلك الليلة العامرة بالفرحة ، تحرك هذا الشعب الذي مددنا له يد الاخاء من أجل أن نصافحه ، ولكي نعاهده على العيش فى سلام ، تحرك من كل الجهات .. من الشمال ومن الجنوب ومن الشرق .. تحرك رافعاً فى يده الدمار .. وكانت على لسانه صرخة واحدة

ـ « اجلوا عن الارض ! .. اجلوا عن الارض ! .. »

وصوب أنظاره الى أبي زمارة . كان ما يزال يريد أن يقف على أفكاره .. حقيقة أفكاره . وكان يخيل اليه أن هذه الصرخة

لم تكن وليدة أفكار معينة تطوف فى رأس أبي زمارة • ان العالم يتغير •• لقد تغيرت الاوضاع فى الشهور الاخيرة الى حد لم يكن يحلم به أحد • انكفأ كل شيء على وجهه وأصبحت الافكار تختلف • لا بد أن اختلافاً قد طرأ على الافكار بأسرها • أما هذه الصرخة فما عتمت منذ ما يربو على ربع قرن جامدة ، محدودة ، كأنما لا تمت الى الافكار بصلة • وفجأة تساءل بشبه دهشة

ـ « الارض ؟ ! •• ما هي الارض فى نظرك ؟ ! •• »

وكان ثمة شك يراوده فى المعنى الحقيقي للارض • منذ الازل والصراع محتدم حول الارض • وكانت الارض تجلب للانسان ذلك المعنى اللذيذ للاستقرار • وكان أن اصطلح على تسميتها وطناً • فدار الصراع حول هذا الوطن • وفى أحيان كثيرة اتخذ الصراع حول الارض طابعاً آخر أقل نبلا وأكثر شراهة •• مجرد الرغبة فى الامتلاك • ورغم كل شيء كانت الارض من حول يورام تبدو شديدة التواضع والبؤس • وفى يوم غير بعيد كانت الارض الممتدة غرباً شديدة الشبه فى تواضعها بهذه الاماكن • وفكر •• « انه وطن قاحل وخلو من الموارد الطبيعية ، ولكنه وطن على أي حال ، وبوسع الانسان أن يصنع من وطنه جنة مهما كانت أرض ذلك الوطن مجدبة وقاحلة • » •• وكان هذا الوطن صغيراً •• وكان يبدو على الخارطة مجرد نقطة شاحبة تكاد لا ترى • ورغم ذلك فقد سقطت على هذه النقطة الصغيرة من العالم دماء كثيرة، وأزهرت ضغائن كثيرة •• وكان يورام يريد أن يعلم لماذا يحاول أناس يمتلكون ربع العالم أن يتمسكوا بهذه النقطة الصغيرة ويتركوا هذا الشعب الذي كان تائهاً ، بلا مأوى •• مرة اخرى والى الابد ؟ ! •••

وكانت الطريق الشاحبة الملتوية المارقة فى سرعة تفوق سرعة

الخاطر خلف السيارة العسكرية الصغيرة ، ترتبك فى مفهومها المنظور وتتشتت • وفى رأس أبي زمارة كانت ترتسم صور اخرى لم يكن فى مقدور البصر أن يحدها • ومن هناك •• من وراء النهر حيث الخيام البالية المكدسة بشيء اتفق على تسميته بالحياة خطأ ، وحتى الجانب الاخر الذي يرقد البحر على حوافيه ، كانت الصورة • صورة مزدحمة مليئة بالمفارقات الغريبة •• صورة كان الغموض يطبع جانباً منها وكأنه عضو مشلول • ذلك الجزء الذي بتر عن أصله منذ عقدين من السنين • وكانت أعصاب أبي زمارة الثائرة تبذل مجهوداً جباراً فى محاولة للتسرب الى ذلك الجزء من الارض والتغلب على عاهته • وقال باصرار نفذ من نفسه على غفلة من شكوكه

ـ « انكم تتجاهلون حقيقة قديمة • هنالك أرض اسمها « فلسطين » ومنذ عشرين عاماً سرقتم جزءاً من هذه الارض ودفعتم بسكانها الى ما وراء الحدود • وبالامس القريب سرقتم البقية الباقية من فلسطين •• ولكن الشعب الفلسطيني يريد أرضه •• وسنستعيد هذه الارض مهما كانت التضحيات •• »

الحمقى ؟ ! ••• الحمقى ؟ ! ••• انهم لا يفكرون الا بهذا • وهذا يعني أنهم لا يفكرون البتة •

ضغط على الآلة الحديدية الباردة الملقاة على فخذيه • العناد أحياناً يورث الجنون • ولكنه فتر فجأة • كان يبحث جاهداً عن الصداقة بين هذا الصرح الضخم من الكراهية • وفكر بشيء من الضيق •• « لا يمكن أن يعدم الانسان ذلك الجانب الطيب من نفسه • » ورغم كل شيء كان لا بد من ثمن •• وكان هذا الثمن أكثر من الباهظ بكثير •• انهم يريدون القضاء علينا مقابل أن يهبونا الصداقة •• واذا لم يعد لنا وجود ، فان حاجتنا الى

الصداقة تصبح لاغية .

وعاد يورام فتمنى لو يعثر على أفكار هذا « العربي الذي لا يفكر » .. أجل .. لم تكن تلك أفكاراً بالمعنى الدقيق . كان ثمة رغبات تعصف بالافكار .. تلفحها .. تصيبها بجنون الكراهية والعنف .. وكان يحاول جاهداً أن يصنف رغبات الانسان الى عادلة ومجحفة حينما انفلتت أفكاره فجأة الى داخل رأس أبي زمارة واستقرت فى مخيلته . وهناك كان يورام يحس بأنه ينضغط وان أفكاره على وشك أن تختنق داخل رأسه . ورأى شيئاً تشبث بدماغه كالعلقة فلم يستطع الافلات منه . وكان هذا الشيء هو تلك المسيرة الدامية التي نفضت عنها غبار الشهور المنصرمة وبعثت أمامه على حين غرة . شهور رقدت وراء العالم منذ أن بدأت تلك المسيرة وانتهت على مرأى من الجميع . كانوا كالرمال فى كثرتهم .. بيوتهم خاوية وراءهم ، وعلى أكتافهم الكثير من سقط المتاع .. ووجوههم مولية شطر النهر . وكان بهم وهن الشيخوخة وهلع الطفولة واحتمال الشباب ، ولكنهم جميعاً كانوا قد أصبحوا من اللاجئين . وعبر النهر كانت تنتظرهم خيام ممزقة .. وداخل هذه الخيام لم يستقبلهم أحد ما عدا الجوع والعناء وكان دماغه يتحطم تحت وَطأة الصرخات المدوية بعيداً بعيداً عن هذا المكان .. وكانت بعض هذه الاصوات تهتف .. وكان بعضها يستغيث .. « اماه انني جائعة .. اماه انني أرتجف من البرد . » كما رأى العديد من الاطفال يسقطون صرعى بين أحضان الطبيعة الشرسة . وانتفض يورام فجأة . كانت السيارة ما عتمت تبتلع الطريق فى جنون . وكان أبو زمارة صامتاً أمامه وعيناه مزروعتين فى أصفاد قدميه .

وتنهد .. وكان يتطلع الى وشم فى ذراعه ثم يعود ويتنهد . وكان هذا الوشم الذي فى ذراعه عبارة عن سبعة أرقام لم يعد يذكر من أمرها شيئاً سوى انها نقشت على زنده عندما كان طفلا فى أحد معسكرات الاعتقال النازية وانها كانت تعني الموعد المحدد له للدخول الى فرن الابادة . وكان الضيق القاتل يتسرب من رأسه ويهيمن على صدره ويكتم أنفاسه . وعاد فتنفس بصعوبة وكأنه يتنهد . وكان يكتشف أن هذا الضيق لم يكن مجرد عدوى أصابته فى محاولته الدخول الى رأس أبي زمارة وانما كان ناجماً عن جمعه بين حقيقتين متعارضتين . لكل منهما رغبة معينة . وكان قد انتشل رغبة أبي زمارة ووضعها داخل رأسه الى جانب رغبة قومه المنبعثة جذورها فى أعماق عقله الى ما وراء الآف السنين ، مخترقة الطبقات السميكة السوداء من أحقاب هذا التاريخ المرعب . وكان يحاول التوفيق بينهما ولكن بدون جدوى . كان الجسم البشري يرفض دائماً كل ما هو غريباً عنه . واتضح ليورام ان العقل البشري لا يختلف عن جسمه فى هذا الرفض . وكانت الرغبتان انسانيتين بحتتين . بيد أنهما كانتا تقتتلان فى دماغه كأنهما خليتان مصابتان بالحساسية المفرطة . وبينهما كانت تتضح بقعة حمراء قانية وتحز حزاً ثم تنفث هذا الضيق الى كل رحاب ذاته . وكان ثمة خطأ فى التكوين البشري .. خطأ جسيم .. وكانت أحاسيسه تمتزج فى عصبية وتقتتل بالحاح ، ولكنه رغماً عنه قال وكأنه يفكر بصوت مرتفع

ـ « لا بد أن يكون هنالك حل . بشرط أن تنزلوا قليلا عن هذا التعنت . اذا فكرتم بروية فان بالامكان حل كل شيء . ان

بامكاننا أن نحيا معـاً على هـذه الارض • واذا لم تشاؤا فان الارض العربيـة كبيرة ومتوفرة وبمقدورها أن تستوعب الملايـين •• أمـا أن تترك لكـم الارض فهـذا محـال •• »

* * * * *

ضحـك أبو زمارة فى سـره ولكنه أشـفق من السخرية جهـاراً فانقلب ذلك على وجهه الى مزيد من الحقـد • « ان فلسطين عربيـة ولكنهم يحاولون طمس هـذه الحقيقة •• وهؤلاء اليهود لا يعرفون الانسـانية ولكنهم يستخدمونها شركا للايقـاع بمزيد من الضحايا •• ان جميـع دروبهم تؤدي الى رومـا •• » وكانت روما تعني فى نظره التنازل والغـبن والاجحـاف • ولهـذا السـبب كان اقتراح « اليهودي » سـخيفاً وعقيماً وعديم الفائدة • « الحـل الوحيد أن يرحلوا ويتركوا بلادنا لنـا » •• وكاشـفه موقفه بغتة فحك رأسـه بحركة عصبية ان هي الا رد فعـل لانعدام حيلتـه • وقبل قليل كان يناجي أبويـه العجوزين المتربعين فى ركن خيمـة مزروعة فى حقـل يدعى بالمخيـم •• « أبي وأمي البائسـين •• تجـلدا •• فعما قريب سـيتناهى الى سـمعيكما نبأ اعتقالي على أيدي العدو • وهنا على أرضنا المغتصبة من يحاول أن يعبث بقسـمي الذي قطعته مع الالاف على اسـتعادة البـلاد • فهؤلاء اليهود لؤماء وحمقى فى الوقت ذاته• ان أخي يجب أن يحتـل مكاني فى الكفاح •• علينا أن نفوت عليهـم كل الألاعيب لكي يعـود كل شيء الى نصابـه • » وكانت مشاكسته تصطدم كالجـدار بحديث يورام • وكان ذلك الحديث يبـدو فارغاً ومشحوناً بسـوء الطوية • كنا على وشـك أن نلقي بهم الى البحر، وكانت المأسـاة سـتنتهي لو أفلحنـا فى ذلك ، ولكن قوى الشـر

بأسرها انتصبت من ورائهم .. ومع ذلك ...

ـ « سيأتي اليوم الذي نلقيكم فيه الى البحر ونستريح ..»

ولهذا السبب حاربنا بضراوة . من أجل أن لا تتكرر المأساة. كانوا جادين فى هذه الدعوة .. جادين الى حد أنها طغت على أحلامهم فى الليل وعلى امنياتهم ابان اليقظة . ولهذا السبب ما انفكت هذه الصداقة المنشودة البائسة تائهة فى زاوية بعيدة من زوايا العقل .. ان من الجنون أن نعتقد بأن هنالك من يراد القاءه فى البحر ، فيمكث مكتوف اليدين ولا يحرك ساكناً .. أما نحن فكان يجب أن نحتاط للامر أكثر من الف مرة ، لان البحر ابتلعنا من قبل أكثر من الف مرة . اننا شعب عرف طعم الغرق والحريق والموت بحد السيف . وكانت أساليب الموت تبتدع ابتداعاً وتغرب المخيلات فى تطويرها حين كان يجب أن نموت . ومن العجيب أننا دائماً كان يجب أن نموت . وهذه الرغبة فى ابادتنا كانت مستمرة وخالدة .. فى كل جيل كان العداء لنا متوفراً بسخاء أما الصداقة فلم نجرؤ يوماً على المطالبة بها لاننا كنا غرباء وضعفاء. كنا كالاعشاب الطفيلية المنتشرة فى ربوع العالم وأرجائه .. والاعشاب الطفيلية تقتلع أبداً بضراوة خلوة من الرحمة . عاد غضبه فتأجج فجأة . كان وضع أبي زمارة يتغير تباعاً فى نفسه على هدى ذبذبة من الافكار الفوارة المتغيرة .. انهم يتهموننا بأننا نصب جام غضبنا على شعب من الابرياء .. كيف ؟ ! .. وهذا الشعب يرفض صداقتنا ويصر على القائنا فى البحر . وفكر ثانية بارتال اللاجئين .. بدموعهم .. بجوعهم .. بعرائهم .. وأحس بشيء أشبه بالضياع وبأن نفسه تضيق ذرعاً به وتحاول أن تتخلص منه . وكان غضبه عاتياً .. ولكنه الان كان يستهدف شيئاً مجهولا .. ربما كان كل منا على حق ... ولكن مما لا ريب

فيـه ان هنالك خطأ كبيراً .. عملاقاً .. شـريراً .. واننا لا نستطيع أن نلمـس هـذا الخطأ بأيدينا ولكننا نشرف عليـه من وراء نتائج الاحداث وحدها . » وكان غضبه يستهدف هذا الخطأ المجهـول فيتفتت ويضيـع ويغمره ببلادة حانقـة وعاجزة .

وفجـأة خيم صمت .. وكان جالسـاً فى غرفتـه بين أكداس من الكتب الكبيرة الضخمة .. وكانت عيناه مركزتين فى سطور رسـالة طويـلة وهي تهمل بدموع كثيرة . وكانت الرسـالة الطويلة موجهة اليـه من شقيقته المقيمة فى الاتحاد السوفياتي .. وكانت تحتوي على أكثر من ثلاثين صفحة ، كل صفحة منها بمثابة مستند صارخ ترشـح أطرافه دماً قانياً . وقرأ وهو يبكي .. « لا بد أن تتذكر ولا ننسى .. » ولكن القراءة كانت تحرث وجوده وتسحقه سـحقاً دقيقاً بحيث تفوت عليـه معالم شـخصيته وتنقيه من كل شيء مـا خلا العذاب . وكان عذاباً يفقد معه المرء صوابه ووجوده فيتأرجح بين الجنون والغيبوبة . وارتعشت الاوراق بين أنامله وداهمها خطر الابادة .. « هل تمزقها » وكان الرد الهـلع صارماً وعنيداً .. كلا ؟ . كلا ! . وعاوده شيء من تقبل الحياة ومن الصمود للذكريات الكاسـحة . يجب الا نهرب .. يجب أن نتذكر دائماً .. ان هـذه الذكريات ليست ملك أحد سوانا .. انهـا ملكنا وحدنا .. انها وجودنا الذي احترق على مر الاجيال وهي التي سـتنير لنـا دياجير المسـتقبل . لقـد تصاعدت الشـعلة من أجسادنا .. من أجساد النساء والاطفال والعجزة .. من أجساد سـتة ملايين من البشـر ... وكرر وأسـنانه تحاول أن تشـد على فكـه المرتعـد .. سـتة ملايين من البشـر . وكان الان يقرأ « ..... » وكانت عيناه تتدفقان بدموع ملتهبـة انبثقت من نبـع للعذاب تفجر فى كيانه فجـأة . وكانت كل خليـة من خلايا بدنـه تتلوى من هـذا العـذاب وتصرخ صرخات مسـعورة ....

•• « وقلت انك تنوي اعداد بحث عن تاريخنا نحن اليهود • عن المأساة التي حلت بنا مؤخراً . وطلبت مادة وثائقية لتتحقق من كارثتنا الشخصية فى معسكرات الابادة • لقد كنت طفلا صغيراً يا يورام •• ولا أستطيع القول ان من حسن الحظ أنك كنت كذلك • اذ لم يكن ثمة حظ على الاطلاق • كل ما كان هنالك هو اللعنة • ومهما كانت الذكريات بالنسبة اليك شاحبة وباهتة فان اللعنة مكثت حادة غامقة • وها قد جاء اليوم الذي تلح فيه طالباً الاطلاع على التفاصيل • انظر الى ذراعك • انظر الى ذراعك يا عزيزي وسوف تترى عليك التفاصيل • ان كل نظرة نلقيها من حولنا تطلعنا على هول الجريمة التي ارتكبت • ونحن مرغمون على أن نتذكر ولا ننسى كي نضع حداً لمأساتنا المستمرة ••• » وكانت التفاصيل تتتابع فى رسالة الشقيقة كالانياب الحادة المسمومة التي تلتهم أعضاءه شيئاً فشيئاً • وكان يحاول بكل طاقته أن لا يفقد صموده وأن يتابع القراءة •• « وبعد أن أخذوا الاب والاشقاء ، جاء دور الام • وكنت متعلقاً بها الى حد العبادة ، فانتزعوك من أحضانها وساقوها الى فرن الموت • وكنت تبكي ••• كثيراً جداً بكيت يا صغيري العزيز • فقد كنت تعلم أنها ستموت • كان الموت قد خرج عن نطاق الغموض الذي يحيق به داخل الرؤوس الصغيرة • فالموت كان قد أصبح شيئاً عادياً كتناول الطعام • وكان الطعام قلما يوجد ، أما الموت ؟ ! •• لقد كان فى سباق مع الانفاس ودقات القلب • وكان الحري بالانسان أن يتساءل عما اذا كانت دقات قلبه تستطيع أن تتنافس مع العدد الهائل من الضحايا الذين يساقون الى أفران الابادة كالخراف • وكان ذلك عبثاً ••• فقد كان الموت يلتهم بلا رحمة ، المئات •• والآلاف •• والملايين ، بسرعة خارقة لا يمكن لأي رقم قياسي أن يجاريها أو يصمد أمامها • وكانت الام تحترق

وأنت تبكي • وبعد ذلك تساءلت عما سيصير اليه جثمانها• وكنت أطمئنك بأنه سيرقد فى هدوء مع باقي ضحايا الاسرة • ولقد خشيت أن أقول لك بأن امنا لم يعد لها جثمان ، وانها استحالت الى قبضة رماد صغيرة من العسير ، بل من المتعذر عزلها عن التلال الهائلة من الرماد البشري الذي كان من قبل اعداداً هائلة من البشر الحي المتحرك » •

وكانت الرسالة طويلة ومثيرة • وكانت سطورها لا تحكي الا جزءاً صغيراً من تاريخ شعب مدون بالسواد • وكانت الاجزاء الاخرى من هذا التاريخ تتطاير فى الفضاء مبعثرة ومقطعة الاوصال • والسيارة العسكرية الصغيرة تبتلع الطريق بلا هوادة ثم تخلفه وراءها بعد أن تترك عليه عجلاتها آثاراً شاحبة قلما تستطيع العين المجردة تحديد ملامحها • وفى داخل السيارة شاب يجمع أوصال التاريخ المبعثر من وراء قبضة حديدية غير مرئية تضغط على أنفاسه• وشاب آخر تكبله الاصفاد • رأسه مطأطيء •• عاصف هو الآخر بالتاريخ البشع •• وبالصرخة العاتية المطالبة بالقاء اليهود الى البحر • وكان يورام يجمع التاريخ ويرقع أجزاءه الممزقة • وكان أبو زمارة يحاول أن يصنع فى رأسه تاريخاً جديداً نابعاً من معاناة شعب يرقد فى الخيام وراء الحدود • وكان بين التاريخ الموضوع فى ذاكرة يورام ، والتاريخ الذي يرسم فى مخيلة أبي زمارة فجوة عميقة كالهوة •• وآلام كثيرة •• وأرض هي موضع خلاف يستنزف الدماء الغزيرة الزكية •• وكان كل منهما يشعر بحاجته الى هذه الارض كي يوجد ويستمر •• وكان يورام يفكر •• « قبل الفيءعام بدأت المأساة •• فمنذ أن طردنا عن هذه الارض وأصبحنا شتاتاً منثوراً على وجه البسيطة ، أخذت انسانيتنا تغادرنا حتى غدونا كالجرذان المطاردة فى كل مكان •• ولم يكن من وسيلة الا

أن نعود الى الارض ثانيـة ، ونبعث من جديد بدولة اسـرائيل ..»
وكان أبو زمارة يفكر هو الاخر . وكان يفكر بالكفـاح الذي بـدأ منذ أن غزا « اليهود الدخلاء » الارض وشـردوا الشعب من منـازله وقذفوه الى مـا وراء الحـدود .. « ان هـذا الكفاح سيمضي فى سـبيله حتى ينتزع النصر .. » وكانت دعوة اليهود الى السلام فارغة لانها لا تقوم على « العدل » .. وكانت الدعوة الى القائهم فى البحر دعوة خطرة لانهـا تنذر بمزيد من المتاعب وسـفك الدماء .. وكان شـبح الشر يتضخم ويفرض ذاته فرضاً .. وكان غضب يورام يتأرجح ويستعر ثم يلتهم ذلك الخطأ الكبير الماثـل بينهما ، المعـلق فى الفضاء الضيق على شـكل فجوة حمراء لا حجم لهـا ولا خطوط مميزة .. ولا صفـة معينـة . وهتف بأعلى صوتـه

ـ « انـكم شـعب متعطـش للدمـاء ... »

ونسـي أبو زمارة موقفـه فصرخ محتـداً

ـ « بـل أنتم القتـلة وسـفاكو الدمـاء .. »

وقـال يـورام

ـ « كلا .. اننا نريد السلام .. نريده عن حق . »

فانخفض صوت أبي زمارة قليـلا ولكنه رد باصرار

ـ «لا سـلام طالما حقوقنا مهدورة ومغتصبـة .. »

وتسـاءل يورام من جديـد

ـ « ماذا تريدون ؟ ! .. ماذا تريدون ؟ ! .. »

بيـد ان الجواب كان معروفاً سـلفاً . وكان كالصفعة التي تخدر الحواس وتربك الافكار . وفكر .. « اننـا ندور حول دائرة مفرغة ولكن الذي يريدونه هو من المستحيلات الثابتـة . » وكان أبوزمارة يفكر بمثل هـذا . وكانت القضيـة فى نظره واضحـة ولا تحتمـل المسـاومات . وكان الزمـن يمضي ، والطريق يتقـلص ، والاشـياء

بأسرها تتغير الا الرغبات الكبيرة المزروعة فى قرارات النفوس ، فقد كانت جذورها تنشب بعيداً فى الاعماق وتنحدر بسرعة خارقة الى داخل الاغوار •

وعاد يورام يقول

ـ « تريدون ان نرحل عن الارض • ولكننا لن نرحل عنها ابداً •• اننا باقون هنا كي نحافظ على كياننا ومن أجل أن لا نعود ، انصافاً واثلاثاً من البشر •• »

اذهبوا الى أوغندا •• نعم • وقال بحماس

ـ « اذهبوا الى أوغندا •••• »

وكانت أوغندا هذه تشذ عن مفهومها وتضحى نكتة مضحكة• أوغندا ؟ ! ••• ماذا تعني أوغندا بالنسبة لنا نحن اليهود ؟ ! •• وكان يضحك ملء شدقيه • وكانت ضحكاته تطغى على الطرير المستمر المنبعث عن العجلات الدائرة حول نفسها وقال

ـ « ان أوغندا غريبة عنا وبها شعب سيطالبنا مثلكم بالرحيل عنها •• أما هنا فاننا فى بلادنا الخالدة •• بلاد اسرائيل • »

فصاح أبو زمارة فى حنق

ـ « انكم صلفون وفى منتهى الوقاحة • كيف تنتحلون ملكية الاخرين على رؤوس الاشهاد ؟ ! ••

وهناك بعيداً يتساءلون بضيق وتذمر •• « ماذا تفعلون هنا ؟!•• اذهبوا الى بلادكم •• الى اسرائيل • » •• فى برم متناه تتردد اليوم هذه الكلمات فى كل مكان • ومعظم هذا الشعب ما عتم يعير بالغربة •• وكانت مشاهد الجبال العتيقة المعصفرة من طول القدم تذكره ببداية التاريخ • البداية التي مكثت وحدها فى ذاكرة العالم برمته •• هذا العالم الذي لم يحتملنا بين ظهرانيه قرناً واحداً من القرون المنصرمة • وكانت الحقيقة تلح عليه من الداخل والخارج

معاً .. « ان البشر والتاريخ ونتائج الاحداث المتراكمة على طول مسيرة الزمن تفرضها علينا فرضاً . ان كل ذلك لا يدع لنا مجالا للاختيار .. أما هؤلاء الذين يحيطون بنا من كل جانب متوعدينا بالويل والثبور فانهم لا يفعلون شيئاً سوى أنهم يزيحون الستار عن ذلك الخطأ المجهول الكامن داخل نفوسنا ونفوسهم على السواء » . وقال ببعض الشرود

ـ « اننا لا ننتحل .. هذه أرضنا بلا منازع . »

ـ « انها أرضنا نحن .. ولهذا السبب أصبحنا اليوم شعباً من اللاجئين ... »

وأراد أن يعالج ذلك الخطأ وينزل عن بعضه رغم أنف الطبيعة فقال بصدق وحرارة

ـ « نقتسمها اذن ونحيا بسلام .. »

ولكن الآخر قال بعناد

ـ « ان أصحاب الارض الشرعيين يرفضون المساومة .. »

ـ « ولكن هذه ليست مساومة . انه مجرد محاولة من جانبنا لحقن الدماء ولكي يحل السلام فى هذه الربوع . »

وكان الغضب ما انفك يعبث فى كيان أبي زمارة وينسيه أنه لم يعد فدائياً . وان يديه وقدميه مكبلتان بالاصفاد . وهتف بقوة

ـ « لا يحل السلام فى هذه الارض الا اذا رحلتم عنها .. »

ـ « ولكننا لن نرحل .. ولا يمكن أن نرحل فماذا سيحدث ؟ !»

ـ « سنظل نحاربكم حتى نرغمكم على الجلاء ... »

وفكر .. « لقد عدنا الى نقطة البداية .. انها الدائرة المفرغة فكيف يمكن أن ننحرف عن هذه الاطراف المتصلة ببعضها التي تشدنا اليها بقوة خارقة ؟ ! .. » ونظر الى ساعته . كان

الوقت يمضي بسرعة خاطفة والطريق توشك على نهايتها وكانت الاشياء بأسرها تتغير الا هذا الخطأ الكبير المجهول .. وكان ما يزال ماثلا بينهما كالعملاق الذي لا وجه له .. خفياً .. ممسوح السمات مغروزاً فى الاعماق . ولم يكن من نصيبهما وحدهما .. بل كان من نصيب العالم برمته .. من نصيب كل البشر بلا استثناء .

وكان يورام يعود فيعصب عيني أبي زمارة باحكام . وكان يحترق وهو يردد لنفسه .. « لا فائدة ... » وكان يفكر .. « لقد عاد الان لا يرى .. ولكن لا فرق بين التفكير فى النور والتفكير فى العتمة .. ان جميع الناس يفكرون فى النور مثلما يفكرون فى الظلمة تماماً ! . ربما ! . ربما كان هذا صحيحاً بالنسبة لكل البشر ! .. طالما وجد هذا الخطأ اللعين ! . »

وتوقفت السيارة الصغيرة الصفراء فرفع قامته وصوب بفوهة العوزي الى ظهر أبي زمارة ثم دفعه أمامه وهو يقول بلهجة منذرة

ـ « انزل . لو حاولت أن تحيد يميناً أو شمالا فسأطلق عليك النار ... »

الثغـــرة

فى قلب الصحراء وجد نفسه • وجدها ضمن عوامل متعددة مرهقة • التعب ، والجوع ، والصراع المدمر ، وأشياء كثيرة أخرى• وكانت تلح عليه الرغبة فى الاسترخاء ، فهوى على بقعة من الرمال الكثيفة ، وألقى بسلاحه الشخصي وبجعبته جانباً ، ثم أحس بلذة هذا الاسترخاء • ولم يكن يقوى على التفكير • وكان قد مضى عليه وقت طويل من غير أن يجد الى هذا التفكير سبيلا •.

كانت حياته فى اليومين الاخيرين قد تجردت وأمست حياة مطلقة• فهو نفسه ككل بني الانسان ، كان أشبه بالنواة التي تحيط بها هالة كبيرة من الضوء تكمن فى مجالها تلك العلاقات البشرية التي تكتسب بموجبها حياة المرء معناها ، وتصبح ممارسة • غير أن هذه النواة ــ التي هي ذاته ــ انطلقت فجأة مخترقة مجال تلك الهالة ، مبتعدة عنها بسرعة الصواريخ التلقائية المتناهية • وكانت طريقها الذي انفلتت اليها مشحونة بالمخاطر ، بيد ان عامل الردع كان مفقوداً ، طالما ان عقله قد كف عن التفكير واستحال الى مجرد آلة رادار تراقب اعماله التلقائية وتحيد بها بشكل وهمي او ارتجالي عن مواضع تلك الاخطار قدر المستطاع •

وأغمض عينيه فسرقه النوم فى سهولة عجيبة ومات ساعة كاملة ثم بعث بعدها ، فاستيقظ مذعوراً • وكانت انفجارات هائلة تفرقع فى رأسه وتشج اذنيه • ولكن عينيه تفتحتا على نفس المكان الذي فارق فيه الدنيا • وكانت أشباح بشرية كثيرة قد اتخذت أمامه أشكالا متغايرة ، وآليات بعضها يتحرك ، وبعضها رابض فى مكانه ، كما لو كان هو الاخر يتمتع بقسط من الراحة • أدرك الان

أنه قادر على التفكير ، رغم أن عوامل الاعاقة العديدة ما لبثت ترزح على كيانه • فهش لهذه القدرة الطارئة ، وهو يمد أبصاره بعيداً بعيداً في أعماق الصحراء الواسعة •

رمال صفراء مترامية وألسنة من لهب تنفثها شمس مكشرة صارمة ، في كل مكان ••••

هذا هو الوجه الحقيقي للطبيعة في هذه البقعة التي أقحم اليها • ومن هذا الوجه ، تنبثق النتائج الاكثر ازعاجاً • القيظ الصاهر ، واسراب من الذباب الوقح الذي لا ينزجر ، ودوامات تقوم بدون سابق انذار ، مثيرة معها أغبرة تلطم الوجوه وتعفرها •

على أن عوامل الطبيعة القاسية هنا ، لم تكن لتبلغ منتهى الازعاج ، مما ينجم عن يد الانسان ذاته • وكانت هذه اليد قد تطاولت بالفعل على وجه الطبيعة وصفعته ، وكانت قد شوهته وصيرته دميماً • ولم يكن بحاجة الى اقتفاء آثار هذه اليد التي ختمت بطابعها على كل شبر من هذه البقاع الممتدة الى ما لا نهاية ، الصامتة صمت القبور الى ما قبل يومين اثنين فقط • لم يكن ثمة حاجة تدفعه الى ذلك ، لانه نفسه كان مجرد خلية صغيرة منحشرة بين الخلايا الكثيرة المتراصة ، التي صنعت تلك اليد البشرية الغليظة • ولانه كان كذلك ، فقد كانت آثار تلك اليد تبدو كجزء بديهي التحم بنفسه في غضون اليومين الاخيرين • وكنفسه التي استحالت مطلقة ، كانت تلك الاثار مطلقة كذلك • صورة غامقة الخطوط لم تندثر من معالمها لمسة واحدة• فقد عاشها مرحلة بمرحلة في تلقائية كتلقائيته • ولما لم يكن يفكر ، فقد كان اهتمامه العفوي يتوجه اليها بحواس مرهفة،

ربما عشرة أضعاف عما كان يمكن أن يبلغه فى حياته العادية، من ارهاف الحس • كما أن ذاكرته نشطت دون أن يريد لها ذلك• فقد كان يتمنى أن لا يذكر شيئاً على الاطلاق ، بيد ان الصورة مكثت تطارده • وكانت تنتصب أمامه منبعثة من موقعين يتمم كل منهما الآخر • أحدهما يبدأ من على بعد خطوات منه ، ثم يمتد ويتشعب على طول الصحراء ، أما الموقع الثاني ، فلم يكن يتقيد بالابعاد، وانما تتقلص مسافته وتنعدم ثم تنبثق منه فعاليات متنوعة تصبح وهي مجتمعة ، هو نفسه ••• كيانه أفكاره ••• ومشاعره •

وكان الان يستطيع أن يفكر • وكانت أفكاره تنهال بأسرها فوق الصورة الغامقة المنحنية على عالمه كله دون اختياره • ولم تكن بعد رغم حدة خطوطها قد استكملت لمساتها الاخيرة • وكان يعلم انها ستستمر ، وأن اجازته القصيرة فى التحرر من التلقائية والعودة الى نفسه ، ان هي الا اجازة القدر الذي القى فرشاته ليسترد أنفاسه ثم يواصل العمل • ولم يكن هذا قدره وحده • فثمة الآف من أمثاله البشر ، كانوا يمتلكون صوراً مماثلة يرسمها نفس هذا القدر • وكان كل من هؤلاء قد خرج مثله عن هالته الشخصية واتخذ له مداراً تلقائياً فى فلك الاحداث الاخيرة • وزمجرت من فوقه طائرة قطعت عليه تأملاته المرهقة ، فرفع عينيه الى السماء مثلما فعل الآخرون ثم داعبته ثقة منتفخة فعاد وغض بأبصاره وهو مطمئن • ولأول مرة منذ أضحت حياته مجردة ، ساوره رد الفعل المنطلق عن مغبة الاعمال التي صدرت عنه فى هذه الفترة الغريبة من حياته ، كما حاول أن يقترب بأفكاره من هالته المهجورة ليمعن النظر فى أعماقها • وفجأة عن

له أن يتجول فى الصحراء قليلا • ارتفق سلاحه وحمل جعبته وقفز• وكانت الصحراء من حوله مشوشة المعالم • وكانت وحشتها الصامتة الهادئة قد تحولت الى زحام صاخب مروع• وكانت مشحونة بالانسان وبالجثث ، مفعمة بالمعدات الثقيلة وبكثير من حطام هذه المعدات • وتمشى عن كثب من حلقات الجنود ، فدس عيونه فى قلبها ولكنه لم يعثر على احد من اصدقائه • وكان الموت يلتهم معظم أفكاره المبعوثة ويسامره بهدوء ، دون أن يولد فى أعماقه رعباً حقيقياً • وكانت هذه هي المرة الاولى التي يحل بها ذلك الموت المخيف على خواطره ، وكأنه ضيف أليف لا يحمل من ثقل الظل غير أطياف ممسوحة لا تكاد ترى •

واصل سيره بين زرافات الجنود على غير هدف ، ثم فجأة حمل له الهواء السادر فى غيبوبته مع احدى نوبات ركوده ، نداء كان الوحيد من بين الاصوات الكثيرة المتشابكة الذي استطاعت اذناه أن تلتقطه بوضوح

ـ « صادوق •• صادوق • »

وكان هذا هو اسمه وصاحب النداء زميله اورى • ودهش لانه لم يكن البادىء فى اكتشافه وتوقف • ثم انصهرت دهشته وبقية أفكاره فى بوتقة من العناق الحار • وقال أورى :

ـ « الحمد لله على أني وجدتك تمشي على الارض • »

ـ « اذن فأنت مثلي تبحث عن الاصدقاء • »

فتنهد أورى

ـ « العزاء الوحيد فى ظروفنا هذه ، أن نعثر على بقية من أصدقاء •• »

ـ « أنت على حق ، ولكننا بعد فى مستهل الطريق • »

فوجم أورى ثم قال بأسف عميق :

ـ « قتل دوب وأصيب كل من حاييم ويوسي بجروح بالغة . »

ولكن النبأ المؤسف لم يثره كثيراً . فقد كان الموت قد أصبح أليفاً بحيث لم يعد بوسعه أن ينتزع من العيون دمعة تذرف على القبور الندية للاصدقاء الذين يسقطون تباعاً . اقتصر النبأ على فرض باحة من الصمت ضيقة تخللتها أفكار ساخطة . وطالبت هذه الافكار بمزيد من الموت وأصرت على جبايته من الطرف الاخر . وقال أخيراً :

ـ « قبل شهر واحد فقط كان موتنا يبدو بعيداً بعد الشيخوخة . »

فغمغم أورى نافثاً من خلال أسنانه حقداً ملتهبا

ـ « الاوغاد . فرضوا علينا هذه الحرب وسيدفعون حسابها باهظاً . »

ـ « ان أحداً لا يعلم ما اذا كنا سنشهد خاتمتها . ولكني واثق من أننا سنكسبها حتى النهاية . »

وقهقه أورى

ـ « انهم كالثيران التي يثير خوارها الفزع فى قلوب من لم يروا فى حياتهم ثيرانا . أما نحن فان أطفالنا تلاعب الثيران دون أن تساورها خشية من حجمها الكبير . »

وقال صادوق ولما يزل يجتر فى عقله الموت الذي أضحى أليفا .

ـ « أطياف شريرة تصيب ضرباتها الطائشة من تصيب ، فاذا ما اكتسحنا مهاجعها لم نعثر على غير الاحذية . »

وكان ما انفك يعاني من شعور بالغرابة . لقد خرج عن مركزه داخل الهالة .. انسلخ عن ذلك المركز وقد لا يعود اليه أبداً . أما اذا عاد فستكون الحياة غيرها التي كانت بالامس .

وكانت هـذه الفكرة تقبـع على كيـانه كالتخمـة • وقال لنفسـه ان جميع ما يراود المرء هنـا من أفكار ، لا يمكن أن يكون بديلا عن الافكار التي تراوده فى بيتـه أو فى مكتبـه أو حين يسير فى الشارع ممارسـاً حيـاة طبيعية • وبوجل شـديد الفى نفسـه يندفـع الى موقف غاية فى الاحراج ، فتسـاءل عن الحب والاحاسيس الطيبـة• وكان هـذا كـله قد احترق أو تبخر فى اليومين الاخيرين • وكانت مناظر الدماء والموت هي المشـاهد الوحيدة التي مكثت • وكل ذلك يحدث فوق أرضيـة من الرمال القاحـلة الجرداء • وبدا هذا غريباً وعسـير الهضم ، ولكنه حقيقة ثقيـلة يقحم اليها المرء دون أن يدرك وزنهـا ، تمامـاً كحوادث الطرق التي تقـع بغتـة • وترك صديقه وابتعـد قليلا مقتفياً آثار الدبابات المرسـومة على الرمال • وكانت ثمـة شـظايا قنابل مبعثرة بعضها فى حجم الصفيحة وبعضها صغـيراً لا يتجاوز حجمـه راحـة الاطفـال • وكانت أيضاً بقـع كبيرة من الزيت انتشرت بين الخطوط المسـننة المرسومة على الرمال ، وفوقها• ولم يكن من العسير تمييزها عن البقع الاخرى السوداء الناجمـة عن انفجار القذائف وعن الحرائق التي خلفتها تلك الانفجارات . وأدرك أن كل شيء قابل للاحتراق حتى الرمال • فقد كانت روائح الشـواظ تنبعث من هـذه الرمال المحروقة فى كثير من المواضع • وكانت أشلاء الانسان الممزقة تساعد على احتراق الارض • ووجد نفسـه يضحك ببـلادة من هـذه الحقيقة التي يكتشـفها لاول مرة •وكان الدمـار يتكاثف أمامـه كلمـا ابتعـد • دبابات •• وسـيارات مجنزرة •• ومجرد لوريات عادية لنقل الجنود ، كلهـا قضت وماتت موتاً همجياً• ولسـبب ما بدا منظرها وهي منثورة بنظـام فوضوي على قارعـة الطريق ، أشـد بشـاعة من منـاظر الجثث المنضودة فيمـا بينها على

نفس ذلك النظام ، فخلى عنها ومضى يحصي الجثث الآدمية المتفحمة. وكان معظم هـذه الجثث مشوهاً ، بيد أن بعضها كان ما يزال يحتفظ بوجوه لم يمسـها الدمار ، فلاحت وكأنها تراقبه عن كثب بدعة مشوبة بقلق مكتوم . وأحصى مئـة جثـة ثم عدل عن هـذه اللعبـة . ولم تكن لعبـة مسـلية قدرما كانت تسـليه لعبـة الشطرنج المفضـلة، ولكنها كانت لعبـة صميمية ممـلة بعض الشيء . لعبـة قد يتوصل اليها كل فرد غيره وجد ذاتـه فجـأة فى هـذا المكان . ثم أدرك أنها لم تكن لعبـة بالمعنى الذي يؤدي الغرض . وانهـا قبـل أن تكون كذلك ، فهي اشراف على النتـائج الصادرة عن عمـل ذاتي شـارك فى صنعـه ، فداوى مله الطاريء بارتياح أكثر ثبـاتاً . ولكنـه فى الوقت ذاتـه تأمل بذهول ذلك التغير الجذري الذي طرأ عليه . لقد كان دائمـاً لا يقوى على رؤية دجاجة تذبح حذو عينيه . وكانت رؤية الحياة وهي تضمحل وتتلاشى ثم تتحول الى جثـة ، هي نقطة الضعف الرئيسية فى حياته الشخصية . فكيف انتقلت نقطة الضعف تلك ، وفى فترة وجيزة ، من أقصى أطراف ذاته الى أقصاها ؟ .. وكيف استحال هو الى شـيء فظيع يصنع الجثث ويطمع الى صنع المزيد ، ويفعمـه كل ذلك بنشـوة الارتيـاح والظفر ؟ ! .

توجه بهـذا السـؤال الى نفسـه . كان بحده مثيراً ومخيفـاً. ولكن نفسـه لبثت غير مكترثة . وأطـال التحديق باحـدى الجثث التي كانت مسـجاة أمامه ، فلم يجد بينها وبين الارض التي تؤطرهـا من جميع الجهـات فرقاً . وحرك كتفيه باسـتهانة ثم عاد أدراجـه. لقـد كان الخطر يكمن فى طرح هـذا السـؤال على ذاتـه . بيـد أن ذلك السـؤال ، سرعان مـا هوى على الارض بعـد أن اصطدم بجـدار من الفولاذ كان يغلف نفسـه باحكام . وكان ذلك الجـدار

أقوى من جميع الزوابع • لقد كان كالدرع الواقي •• شيئاً يحيله الى حجر صلد لا يمكن أن يتفتت أبداً • ورفع رأسه الى السماء، بعد أن شحنت اذناه بهدير مزق السكون النسبي • وابتسم• وبدا البشر على محياه وهو يلوح للطائرات النفاثة المارقة كالبرق الخاطف بحرارة صادقة وعميقة •

* * * * *

فيما هو يعود أدراجه ، كان زملاؤه الجنود يتحدثون فيما بينهم عن « الأسير » •

ـ « لقد عادت الدورية بأسير يبدو انه على جانب كبير من الاهمية • »

فتساءل البعض فى فضول بالغ

ـ « كيف تم العثور عليه ؟ • »

فقال أحد رجال الدورية العائدين موضحاً

ـ « بينما نحن نستكشف الجبهة صادفنا رجلا يضرب فى الكثبان الرملية على غير هدى • »

واقترب صادوق فاندس بين الحلقة ومضى ينصت فى هدوء

ـ « ألم يحاول الهرب ؟ •• »

ـ « ان الهرب لم يكن فى مثل هذه السهولة ، كما أنه لم يحاول المقاومة لانه لم يكن يحمل سلاحاً ، ولان المقاومة فى مثل هذه الاحوال غير ذات جدوى • »

ـ « واضح أنه تخلص من سلاحه فى وقت سابق للعثور عليه •»

ـ « هذا صحيح • وقد تخلص أيضاً من قميصه ومن الوثائق التي تحمل هويته الشخصية • »

وغرقت الحلقة فى موجة عارمة من الضحك

ـ « يخيل الي ان قيادتهم كانت قد زودتهم بأوامر واضحة تقضي عليهم بابادة ملابسهم العسكرية قبل الشروع فى الهرب. فجميعهم يؤسرون وهم فى الملابس الداخلية وحدها . »

فقال الرجل الذي عاد من الدورية

ـ « أما هذا فقد كان ما يزال محتفظاً بسرواله مما أعاننا على الاهتداء الى هويته . »

ـ « كيف ؟ .. »

ـ « بصفته ضابطاً، لم يشأ أن يقع فى الاسر حاملا رتبته الحقيقية. ولهذا السبب فقد عمد الى تضليلنا بابادة قميصه الذي يحمل رتبته ، وكذلك أوراقه الشخصية . ولكننا نعلم أن ثمة اختلافاً كبيراً بين ملابس الجنود وتلك التي يرتديها ضباطهم . »

فقال صادوق باستهانة

ـ « هذا غباء مطلق . فما دام قد تخلص من قميصه وبطاقة هويته ، فلماذا لم يتخلص أيضاً من سرواله الذي كشفه بهذه السهولة ؟ .. »

فهز رجل الدورية رأسه تعبيراً عن شيء ما ، وقال ببعض التوكيد

ـ « ان لكل شيء أسبابه . فحتى الغباء المطلق قد يتأتى فجأة بسبب ظروف طارئة . انك تتحدث من موقف المنتصرين ولا تنسى أنك تتحدث عن رجل كان قد فقد كل حيلة وتاه فى الصحراء. لقد انتشلناه وهو منهزم . ولا تتوقع من المنهزمين غير الانهيار التام. ثم ان هنالك سبباً آخر . »

فتساءل صادوق مع جملة من الجنود المكتظين فى حلقة الدائرة

ـ « مـا هـو ؟ ... »

ـ « لقـد ظـل مرتدياً سـرواله ، كـي يبقي على محفظتـه فى جيبـه الخـلفي . »

ـ « قلت انـه تمكن من ابادة وثائقـه بأسـرها ، فلمـاذا اذن كانت محفظته تهمـه الى هـذا الحـد ؟ . »

ـ « بالفعـل كانت محفظتـه خاليـة . اذ لم نجـد بداخلها غير صورة لطفـلة صغيرة ، الارجح أن تكون ابنتـه . ولعـل الصورة ذاتهـا هي التي كانت تهمـه كثيراً . »

طغى على بعض الوجوه كلاحـة عارضـة . وهبت زوبعـة قذفت بصادوق الى الاعماق ، فتخيـل ذاتـه فى صميم الهـالة .. « اننـا نحارب فى الجبهـة وخيط رفيـع يظل يشـدنا الى الاعمـاق » .. وكانت تلك الاعماق مثل الصورة البشعة التي شـرع القدر برسـمها منذ يومين فقط .. وكان موقعها يتشـعب مثلها الى نقطتين بعيـدتين متقاربتين . فهنالك فى أعماق الدولة ، فى المدينـة ، تبدأ النقطة الاولى التي يتصل منها الخيط ، فيمتد ويمتـد حتى يلاحقه فى آفاق هـذه الصحراء المترامية حيث يتوغـل طرفه الآخر فى اعمـاقه هو .. فى قرارة كيانه وداخل وجوده المتذبذب . ودق الناقوس ، فحطم رأسـه وأتلف صوابه . وكان ناقوساً يؤلب الموت الذي أصبح شهياً ، وينفخ فيـه روح الرغبـة الضالة المتهالكة . وقال : « ان كل شيء يستحثنا على القتـل كي لا يقتحم الاعداء تلك الاعماق فيدوسـونها وتتحول تحت أقدامهم الى هبـاء منثور » .. وانتشلته من قلب الزوبعة ، يد لكزت كتفـه من ورائـه فالتفت . وقال لـه الجنـدي :

ـ « اذهب الى قائد الكتيبـة ، فقـد طلبـك . »

فتساءل بشيء من التشاؤميـة لم يكن لهـا مناسـبة

ـ « ألا تعلم لماذا طلبني ؟ »

ـ « كلا . والارجح أنه يريد أن يكلفك بمهمة . »

وكانت قيادة مؤقتة قد اقيمت فى صريفة خشبية متداعية ، كان العدو يستخدمها على ما يبدو مع عدد آخر من الصرائف المماثلة كناد موقعي للضباط . ولم تزل أشياء كثيرة كالكتب وأوراق اللعب مبعثرة بداخلها ، منذ أن تركها فى الصباح الباكر منسحباً على عجل . وكانت الشمس تخترق الواح الخشب المتشققة فتدخل الصريفة وتبصق نورها على طاولة الكرة التي اتخذها قائد الكتيبة مكتباً . وثمة احساس يراود المرء بأن الهواء داخل الصريفة يتلظى من جراء الحر الذي يمتصه الخشب المحروق ، من الخارج ببذل وسخاء كبيرين . ودخل صادوق فألقى بالتحية العسكرية ومكث واقفاً فى مواجهة الطاولة الكبيرة . ورأى بجوار القائد ، رجلا غريباً فى أواسط العقد الخامس ، نحيلا ، طويل القامة ، شديد سمار البشرة ، ذا سابل دقيق وعينين عميقتين خابيتين . وكان الرجل يرتدي قميصاً عسكرياً طبع عليه بالعبرية وبالحجم الكبير الحرف « ش » . ولم يكن ثمة شك فى أن هذا الرجل هو الاسير الذي كانوا يتحدثون عنه فى الخارج .

وألقى قائد الكتيبة بنظرة قصيرة على صادوق ثم قال :

ـ « عليك أن تقوم على حراسته حتى نبت فى أمره . ان فى الصريفة المجاورة سريراً فاصحبه اليها ولا تغادره حتى تصدر أوامر جديدة . »

وعاد صادوق فحدج الاسير بنظرة فاحصة . وكان الاخير قلقاً وكان يدخن نفس السيجارة التي يدخنها القائد . ولاحظ صادوق أن سيجارة القائد ما تزال تحتفظ بمعظم حجمها الطبيعي ، بينما

استحالت سيجارة الاسير الى مجرد عقب يتصل بلولب طويل من الرماد المتماسك . وأحس بالضيق ، فتساءل

ـ « لماذا أنا بالذات ؟ .. »

ـ « لانك تجيد العربية . »

ـ « هنالك ممن يجيدونها الكثير . »

ـ « لقد وقع اختياري عليك ولا احب أن تجادل كثيراً . »

وصمت . وبحركة برمة أشار الى الاسير بأن يتبعه . ولانه كان يشعر بالضيق فقد تكاسل عن أداء التحية مرة اخرى . وكان كل شيء فى قرارته يعصف . وكانت السماء ترجع أصداء نفسه العاصفة بهدير الطائرات الذي لا ينقطع . وكانت الانفجارات تتوالى مترامية من الآفاق البعيدة ، ورائحة الموت تعبق الانفاس . واقترب صادوق ومعه الاسير من الغرفة الخالية . وكان ساخطاً . لقد امسى كل شيء مطلقاً منذ انسلخ عن حياته وانطلق من هالته كالصاروخ . وكان يعلم ان هنالك اسبابا قهرية تحتم هذا . وكان ظهر الاسير المنتصب حذو عينيه يلوح أمامه كالمسلة الحجرية التي تحسم عن كيانه بقية مقومات الحياة .. « فى هذا الرجل بالذات تكمن عدة لا يستهان بها من تلك الاسباب القهرية » . اما أن يلازم هذا الرمز البشع، فقد كان يمكن أن يكون له فى ذلك بعض الاختيار . وفتح باب الغرفة ، فأدخل الاسير ثم دخل فى أعقابه . وذاب فى غيبوبة من الصمت . وكان حانقاً ، حاقداً على كل شيء .

* * * * *

الحاجز ....

انه جدار من الفولاذ ذلك الذي يقوم بينهما . وكان صادوق

ينظر اليه بازدراء وينصت الى صدى الانفجارات المنهالة على اذنيه من شتى الجهات • ان آلافاً اخرى من البشر الذين خرجوا من الهالة يستحمون الان فى حمامات النار والجحيم • وكتيبته التي خاضت تلك البحار من النار ، ستعود الى خوضها سرعان ما تنتهي اجازة القدر • وكان هذا الرجل فى الصباح يصدر الاوامر التي تتمخض عن الموت • وكان همه الاول أن نباد جميعاً ، لتمضي قواته على اشلائنا متوجهة الى الاعماق •• واستفزته فكرة الاعماق هذه ، ولكنه هش للنتيجة الواقعة أمام عينيه • وكان الاسير جالساً فى الطرف الآخر على السرير المتداعي ورأسه مغروز فى الارض التربة • ولعله فى الصباح كان يجلس فى نفس المكان ، ولكن بصفة الآمر الناهي المفعم بشهوة الابادة • وأمعن الصمت بسماجة ضمن أفكار سمجة هي الاخرى كانت تطعنه فى قلبه • وكان صادوق حانقاً حاقداً وبرما بكل شيء • وكان ما يزال مرهقاً ممزق الاعصاب جائعاً • جلس القرفصاء ثم فتح جعبته وأخرج منها علبة اسطوانية، ثم استل مديته فضرب بها قلب الغطاء الصفيحي المحكم فشقه وتطايرت فى الهواء رذاذات من المرق • وبحركة حذرة أزال هذا الغطاء فظهرت داخل العلبة قطع من اللحم المسلوق تسبح فى بركة من سائل زيتي . وسال لعابه شهية وهم بالاكل ، ولكنه عاد وأمسك فجأة وقذف بأنظاره الى الرجل فوجده فى موضعه صامتاً منكس الرأس خامداً كالصنم . فهب واقفاً وراحته تطبق على العلبة بشيء من العناية والاحتراس . وتقدم خطوة باتجاه الاسير ثم مد له العلبة

ـ « كل ! ••• »

ورفع الاسير وجهاً داهشاً وتساءل بارتباك وحيرة

ـ « انـه طعامك دون شـك ... أليـس كذلك ؟ ! . »

فأومأ صادوق برأسـه فعاد الاسـير يتسـاءل بارتباك

ـ « لمـاذا تقـدم لي طعـامك ؟ ! . »

فهمـس باسـتهانة

ـ « لا بـد أنـك جائـع .. »

ـ « قـدم لي بعض الطعـام أثنـاء التحقيق .. »

ـ « كل هذا أيضاً ، أما أنا فسـأفتح من أجلي علبة ثانيـة . »

وبعـد أن فرغت العلبتان قدم صادوق للاسـير سيجارة فمجهـا بانفعـال شـره . وقبل أن تتحول بين أنامله الى رماد قال :

ـ « انني منـدهـش ! .. »

فنفث فم صادوق نافورة من الدخان وسـأل بصوت خافت

ـ « لمـاذا أنت منـدهـش ؟ ! ... »

ـ « انـكم تقدمون الطعـام والسـجائر بسـخاء . »

وابتـلع صادوق ريقـه بصعوبة . وكان يحاول أن يبـدو هادئاً . وكان السـبيل الى كبح جمـاح سـخطه شـاقاً وعسـيراً . وبصق هـذا السـخط بين الرمال المبسـوطة وراء النافذة وقهقه بسخرية ..

ـ « ماذا كنت تتوقـع أن نفعـل بالاسـرى اذن ؟ .. »

وتململ الرجل ، فصر السرير من تحتـه صريراً متقطعاً

ـ « ربمـا كان مصيركم بين أيدينا ، يختلف عن هذا تماماً . »

وقدحت عينا صادوق ولكنه قال باصرار

ـ « لهـذا السـبب كنت أنت الذي وقعت فى الاسـر . »

ـ « مـاذا تعني ؟ .. »

فصرخ صـادوق

ـ « لاننا نعلم ذلك فلم يكن مناص من أن نفعل كل ما بوسعنا من أجل أن يحدث العكس . »

وتنهد الاسير ولم يجب . كان منغلقاً . وداخل هذا الانغلاق كانت شحنات من الضباب تتكدس موارية خلفها أشياء كثيرة. ولم تكن هذه الاشياء بعد ، تحمل الرغبة المتهالكة الى التدمير. كان العالم يتحطم ثم يعاد تركيبه . ومن وراء هذه الصياغة الجديدة للعالم ، وجد نفسه مكشوفاً لشيء واحد فقط كان فى منتهى الوضوح . الحنين الى الحياة ... وكان هذا الحنين فى الصباح مخنوقاً وراء جدار من الفولاذ الجبار . أما الآن فقد أصبح رغبة ضالة تحصد الالم بكميات لا حصر لها . وتحامل على نفسه واتجه الى النافذة . وكانت النافذة تؤدي الى ذلك الشيء البعيد البعيد . وكان بين النافذة وبين ذلك الشيء مسافات شاسعة.. من الجحيم المتأجج ، ومشاهد تمتد الى الآفاق ، ميتة ، فقدت كل صلاتها بنفسه . ولم تعد الا عقبة هائلة تحول بينه وبين ذلك الشيء الاخير . وعاد فاستدار ، وعاد فتنهد ، ثم اقترب من السرير ثانية

ـ « لقد قلت الحقيقة لان كل شيء قد تغير . »

ـ « لقد فات الاوان ولم يعد للاشياء أهمية حتى وان تغيرت ، ولكن الاسير يجب أن يعامل معاملة طيبة . »

فهوى الاسير فوق سريره وكان منهاراً

ـ « كلا . ان للاشياء المتغيرة أهمية كبيرة .. وأنا لا أقول ذلك افتراء ، وانما عن تجربة ذاتية مروعة . لقد تغيرت تماماً عما كنت عليه فى هذا الصباح فقط . »

فقال صادوق وهو يحدجه بنظرة عميقة غائصة

ـ « انك لم تختر هـذا التغيير ، بل انـه فرض عليك فرضاً ٠»

ـ « لا ٠٠ بـل أنا تغيرت حقـاً ، وبمحض اختياري ٠ »

وكان صـادوق يعتقـد بأنه يفهـم الاسـير تماماً ٠ قبـل ساعة واحـدة كان رجـل الدورية يقول لـه ان لكل شـيء سـبباً حتى للغبـاء المطلق ٠ وها هنـا يتلظى الفضاء ، لان شـمـس الصحراء قاسـية ، ولان خشـب الصريفة المحروق لا تسـتطيع شقوقه منـع تسرب الحـر ٠ ورغم شـدة القيظ فان أحـداً لم يعـان من تصبب العـرق ٠ لقد كان الهواء الجاف يمتص هـذا العرق قبل أن تمتصه الثياب ، بل وقبل أن يتـاح لـه أن يسيل على الجبين وفوق الصدر وبـين الابطين ٠ وأدرك صادوق فجـأة انـه رغم انعـدام ظاهرة العرق ، فان جسم الانسان يفقـد من السـوائل فى الصحراء أضعاف مـا يفقـده فى المدينـة ، وان الدليـل على ذلك هو هذا العطـش الظالم الذي يلح على المرء باسـتمرار ٠ وبل شـفتيه بقطرة من الماء الضئيل المحفوظ فى قنينته الشـخصية ، وكان شديد الاقتناع برأيه

ـ « افرض انك عدت الان الى مكانك من القيادة المصرية ٠ انك حتماً سـتجد ان هـذا التغيير الذي تتحدث عنـه لم يكن الا مجرد وهـم ، وان كل شـيء قـد عاد الى سـالف عهـده تمامـاً كمـا كان فى الصبـاح البـاكر ٠ »

وتحـرك رأس الاسـير مومئـاً بالنفي . وكان يهمـس بقنـوط كأنمـا مخاطبـاً نفسـه

ـ « لا ٠٠ لا ٠٠ لا يمكن للانسـان أن يعـود الى ماض كانت تفعمـه الفروض الخاطئـة ٠ »

ـ « ولـكن زملاءك الـذين يحـاربون ، لا يفـكرون بمثـل هـذه الطريقـة ٠ »

ـ « انت على حق • وهم لا يستطيعون التفكير بها لانهم ما عتموا يعيشون ماضي • ان ذلك الزمن الذي أضحى ماضياً بالنسبة الي ، ما زال مستمراً بالنسبة لهم • لقد كان ماضينا جميعاً • وهو الآن حاضرهم وربما يكون مستقبلهم ايضاً • انهم يحاربون ولهذا فلا يمكن أن يكون لهم ماض ومستقبل ، ولا يمكن أيضاً أن يتغيروا لان جداراً سميكاً من الفولاذ يحول بينهم وبين هذا التغيير • »

الجدار •• انه الظاهرة المشتركة التي يعاني منها كل من خرج من الهالة • لقد كان من نصيب الطرفين على حد سواء ••• ومن ثم فلا بد أن مصيرهم هو الاخر واحد مهما كانت النتائج • لقد كان قدرهم مشتركاً • وأفكارهم واحدة •• « ما أشبهنا بفرسي رهان توأمين يتسابقان فى حلبة لا نهاية لها » •• وقال فجأة:

ـ « اسمي صالح ••• »

ـ « وأنا اسمي عبد الفتاح •• عبد الفتاح طاهر • »

ـ « متزوج بالطبع • »

غامت السماء فجأة وهي تتقلص فى وجهه • وكانت السحابة سوداء قاتمة • وكانت تضفي على بشرته السمراء دكنة مخيفة• وتحشرجت أنفاسه فجأة • ومد يده الى جيبه الخلفي وأخرج الصورة من المحفظة • وكانت السماء على وشك ان تهمل •

ـ « انها صفاء •• ابنتي الوحيدة • »

التقط صادوق الصورة وحدق بها ، ثم ما لبث أن استحال هو نفسه الى صورة اخرى • ونشبت الصورتان بأبصاره والتهمت عينيه • ولم يكن يرى شيئاً غيرهما • وكانتا تمتصان كيانه ، فلم يعد يملك قدرا • وكانت لحظته تتطاول على الطبيعة وتسحقها• وذاب مصيره فى ذرات هذه اللحظة وتبدد • ثم سقطت اللحظة

فى أغواره العميقة مخلفة وراءها زبداً طافياً على السطح. وكان هذا الزبد كثيفاً ومتراصاً . وكانت فقاعاته متصلة باحكام .. خلايا منسوجة بدقة كالشريحة من اللحم الآدمي . وتساءل وقطعة من الخشب تعترض حلقه

ـ « كم عمرها ؟ .. »

ـ « ستة أعوام . »

ـ « انها أكبر من ابنتي بعام واحد فقط . »

وكانت صفاء تبدو من خلال الصورة سمراء كأبيها . وكانت تقاسيم وجهها دقيقة وشعرها شبه مجعد . أما ابنته فكانت تشبه امها .. شقراء مسترسلة الشعر دقيقة الانف واسعة العينين . ورغم ذلك فقد كان ثمة شبه بين الطفلتين . وأجهد صادوق نفسه كي يحصر ملامح هذا الشبه ، ولكن الرغوة الطافية على سطح عقله أعجزته عن كل شيء . وقال عبد الفتاح وكأنه يتذكر

ـ « كانت تحب التنزه معي على شاطيء البحر فى الاسكندرية، ولم يحدث أنني كنت يوماً فى المدينة دون أن أخرج معها فى نزهة على الساحل . »

أما « زيفة » فانها تفضل السباحة . وكان فى مقدوره الآن أن يستعيد هو الاخر فى ذاكرته أشياء كثيرة . فى الصيف الماضي تعود على الاستحمام فى البحر يومياً . وكان هذا من أجلها. كان يصحبها كل يوم الى ساحل (بات يام) كي يعلمها السباحة. وعندما أجاز لنفسه فى الصيف المنصرم أن يتركها تعوم لوحدها، كان الخوف من البحر قد زايلها تماماً وأضحى حباً شبيهاً بالشغف. وكانت طوال الشتاء تترقب الموسم الجديد بلهفة ، ولكن أحداً لم

يتصور أن أحداثاً غير متوقعة سوف تسبق الصيف وتنزعه عن الهالة وتبعده عن « زيفة » • وكان شيء يشبه العدوى ينبثق عن عبد الفتاح ويعلق فى نفسه ••• وفكر فجأة بأن الانسان حين يمارس حياة طبيعية ، فانه يفقد كل الخطوط التي تفرقه عن باقي البشر • وكان الشبه بينهما الآن يبدو من خلال الذكريات وثيقاً ومحكماً • ولم يكن يقتصر على « زيفة » و « صفاء » وحدهما• فأن صفاء وزيفة ان هما الا نتائج لخيوط اخرى من الشبه • وتذكر الليلة التي صنعا فيها هو وزوجته ابنتهما • وكانت زوجته عارية • وكان يطوقها ضمن اوار من الانفاس المسموعة المتوقدة • وكان يذوب فيها وتذوب فيه فيتحدان ويغدوان جذوة مشبوبة من احساس مرهف لا تعريف له• ثم غابت الوحدة المشبوبة، وتلاشى كل شيء، وبدأت أول مرحلة من مراحل خلق « زيفة» • وكان يدرك ان موقفاً مماثلا قد مر بعبدالفتاح وزوجته حين صنعا « صفاء » قبل ستة اعوام • وان مشاعر مماثلة وأفكار متشابهة قد جابهتهما وهما يمران بتلك المواقف• وكانت الشقة بينهما تضيق وتتقلص • وضحك عبد الفتاح باستهانة وهو يواصل ذكرياته المحروقة •

ـ « ••• وحين ودعتها قبل اندلاع هذه الحرب ، كنت أعدها بأنني سوف أصطحبها قريباً فى نزهة على شاطىء البحر فى تل أبيب •»

وكان صادوق يتنهد وهو يعيد الصورة الى عبد الفتاح • ولم يعد بمقدوره أن يحصد الحقد ويكومه تلالا فى صدره ثم يوغر فيه النيران • وكانت ذكرياته تتمزق ، ولكنها تترك على أرضيه عقله أشلاءها الكثيرة • وقال أخيراً وهو يحاول التشبث بخيط رفيع كان قد تدلى من خلال تلك الأشلاء •

ـ « أما أنا فلم أعد ابنتي بنزهة فى الجيزة أو الاهرام • لقد كان ذلك يبدو سمجاً • وكان يعني اولا القضاء على « صفاء» مثلما كان وعدك لها بالتنزه على شواطيء تل أبيب يعني القضاء على ابنتي « زيفة » • »

فغمغم عبد الفتاح بصوت خافت

ـ « كان ذلك فى الماضي • ولم يعد الحديث عن الماضي يخيفني بعد أن تغيرت الاشياء بأسرها • »

وكانت الشمس تأذن بالمغيب آخذة معها جزءاً كبيراً من الحر الخانق • تاركة فى أرجاء الصحراء خيوط الظلام الاولى التي تبعثرها ومضات القنابل المتفجرة فى الآفاق • وكان التعتيم ساري المفعول فى هذا المكان من الجبهة كما كان سارياً فى الاعماق ، فأسدل صادوق على النافذة ستارة سوداء ثم أوقد مصباحاً زيتياً • ولم يكن بعد بحاجة الى أن يجادل أقوال عبد الفتاح قبل أن يكتشف صدقها • كان كل شيء قد أضحى واضحاً كالشمس المودعة• وفكر « ان همه الان هو أن يعود الى زوجه وابنته كي يمارس حياة طبيعية •• » وكان هذا الهم قد أخذ يراوده هو الاخر ، بيد أن مصيره كان ما يزال مضموماً فى قبضة القدر المكورة • ولم يكن بعد يملك الاختيار • وقال فجأة

ـ « لا حاجة بك الى الاكتئاب يا عبد الفتاح ، فستعود حتماً الى ابنتك فى يوم من الايام • »

وابتسم الاخر لاول مرة منذ أن وقع فى الاسر • ولم يعد منغلقاً كما كان فى الصباح • ومن خلال انفتاحه ، توالت عليه الذكريات

والافكار الطيبة فبسطها أمام صادوق بثقة مستوخاة من حنينه الى أن يحيا • وتسامر الرجلان حتى ساعة متأخرة من تلك الليلة•

* * * * *

مع خيوط الفجر الاولى استدعاه القائد •

كان الجو قارصاً بخلاف ساعات النهار وثمة حركة نشطة تجتاح الكتيبة • كل شيء كان فى حالة تأهب قصوى

وسأله القائد وكان قلقاً

ـ « ها ؟ •• ماذا عن الاسير ؟ •• »

أنصت صادوق الى السؤال من خلال دوي الانفجارات المتلاحقة من كل مكان

ـ « كل شيء على ما يرام أيها القائد • »

وذرع القائد غرفته جيئة وذهاباً ثم توقف

ـ « ينبغي التخلص منه فى الحال • »

وذهل صادوق

ـ « ماذا تعني أيها القائد ؟ •• »

فصرخ الاخر بصوت منفعل

ـ « أعتقد ان ما قلته واضح كل الوضوح • »

وتلكأ صادوق فجأة

ـ « ولكن ••• ولكن هذا محال يا سيدي القائد • »

استشاط الاخر غيظاً وهتف

ـ « محال ؟ •• من قال لك ان ذلك محال ؟ ! • »

وكان صادوق شارداً • وكانت أصداء الانفجارات المنصبة فى رأسه عن طريق أذنيه ، تصيب قواه العقلية بما يشبه الخلل •

ـ « اننا لم نعتد على قتل الاسرى يا سيدي القائد . »

أشعل القائد سيجارة . وضمن زفير الدخان الذي نفثه آهة عميقة . وكان قلقه متناهياً وشاملا

ـ « حقاً اننا لم نعتد على قتل الاسرى ، ولكن هناك ظروفاً شاذة تضطر المرء الى الخروج عن القاعدة ... هل فهمت يا صادوق ؟ . »

وكان يفكر فى زيفة وصفاء ، فلم ينتبه الى الظروف الشاذة ولم يفهم شيئاً . وقال بشيء من العتاب

ـ « لو أن سيدي القائد طلب أن أقتله فى الليلة الماضية، لاستطعت أن أفعل ذلك بكل سهولة . »

فقال القائد وكان قلقه يغلب على نبرته

ـ « فى الليلة الماضية لم يكن ما يستوجب قتله ، ولكن تطورات خطيرة قد طرأت منذ البارحة وان كثيراً من الاشياء قد تغير ولا بد والحالة هذه من التخلص منه ... »

أشياء كثيرة قد تغيرت . وبدون أن يستفسر عن هذه الاشياء، كان عقله يوميء بالموافقة . وكانت موافقته تنم عن أشياء قد تغيرت بالفعل ، بيد أن مقرها كان بداخله . ولهذا السبب فقد كان بوسعه أن يقتل عبد الفتاح قبل أن تتغير تلك الاشياء فى البارحة . وكان واجماً . وكان يتعذب . وقال فجأة وباصرار عميق

ـ « اذا كنت مصراً على التخلص منه ، فأرجو أن تفعل ذلك بنفسك أيها القائد . »

تبعثر فى الارجاء دوي هائل لانفجار قريب ، وكان هدير الطائرات لا ينفك يسمع بلا هوادة . وصاح القائد

ـ « صادوق • لا تجادل كثيراً فيما يلقى عليك من أوامر • »

فقال صادوق وما عتم متمسكاً باصراره

ـ « انني لا اجادل ، كل ما هنالك انني غير مقتنع بعدالة هذا الامر • »

وضاق الاخر ذرعاً

ـ « انك لا تريد أن تفهم بأن أحداثاً خطيرة قد استجدت، وان هذا الاسير أصبح مشكلة لا بد من التخلص منها • »

ـ « لماذا لا تنقلونه الى أحد مجمعات الاسرى بطائرة هيليوكوبتر ؟ »

ـ « لان طائرات الهيليوكوبتر منهمكة فى نقل القتلى والجرحى •• انك لا تريد أن تفهم هذا ! • »

وسقط قلب صادوق فجأة ، وسقط صوته وادراكه

ـ « اذن •••• »

ـ « أجل • وعلينا أن نتحرك من هنا فى غضون نصف ساعة، كي نواجه العدو • »

انتهت اجازة القدر • ان الصورة البشعة ستمضي فى استكمال خطوطها بتلك التلقائية الرهيبة ، بعيداً عن الهالة • لقد كان على الموت ان يصبح اليفاً مرة اخرى • وتناول صادوق المنظار وقربه من عينيه • كانت الصورة ما تزال بعيدة ولكنها من خلال المنظار بدت واضحة ومروعة • لقد هجم الاعداء قبيل الفجر على ما يبدو • وكان هجومهم عنيفاً وضارياً • استطاع صادوق ان يرى مزيداً من الاليات تلتهمها النيران لتتركها جثثا • وكانت القنابل تحرث الارض الجرداء من بعيد وتقطف منها كل شيء يتحرك • وكانت الفرقة التي تواجه العدو تقاتل فى استماتة وهي فى انتظار النجدة•

وأحس بأنه ينهار • وكان واجماً كل الوجوم • وتركت أنامله المنظار فسقط عن عينيه كما يسقط القناع وفى مكانه تبدت دمعتان نديتان صامتتان ••• لقد كان صادوق يبكي ! •

* * * * *

وتمطى عبد الفتاح ورد على صادوق بتحية الصباح • وكان على وجهه طيف ابتسامة • « لا بد أن أحلاماً لذيذة قد داعبته طوال الليل •• لقد تخلص من الصورة البشعة •• تحرر منها ربما الى الابد » • ولم يكن بصادوق أي حاجة ليستخدم « ربما » كي يعلق الامر ، فكل شيء كان الآن فى حكم المنتهي • بيد أن كلا منهما كان يفسر هذا الحكم بنقيض ما يداعب صاحبه من أفكار • وكانت الرعود والبروق الجهنمية تتلاحق فى شغف محموم الى الدمار والقتل • ومعها كانت تتوالى موجات من القلق الجارف على كيان صادوق وتلفحه • وتململ عبد الفتاح وكان مطمئناً • أما صادوق فقد كان موزعاً • وكانت طمأنينة الاخر تصيبه باحساس ثقيل ضد نفسه • وأمعن فيه النظر وهو يقاوم ذلك الاحساس الثقيل • « ان الموت سيدركه قبل أن يرى صفاء ، ولن يكون هنالك بالنسبة له سلام أو فكاك من الاسر » • وبدا هذا بشعاً ومخيفاً• ان الموت فى هذه الصريفة ليس اليفاً مثله فى أي مكان آخر من هذه الصحراء • ولأول مرة تساءل بتبرم « متى ستنتهي هذه الحرب ؟ » • ولكن الرد جاءه فى صدى الموت المفرقع بفظاظة فى شتى الجهات • وأوجس خيفة وهو يعتصر شيئاً فى أعماقه خوفاً عليه من الفناء • وقرع الفضاء دوي انفجار ، فارتجفت الغرفة الخشبية وتساقط الزجاج عن النافذة ممزقا • وتساءل عبد الفتاح

ـ « متى ستنتهي هذه الحرب ؟ . »

فنهش صادوق احساسه الثقيل وقال كاتماً توجعه

ـ « ان جماعتكم يهاجمون منذ الصباح الباكر . »

فسهم عبد الفتاح قليلا ثم عاد يقول

ـ « مهما تكن النتائج فان الموت وحده هو الذي سيكسب المعركة . »

وكان اليتامى والارامل يزدحمون فى مخيلة صادوق كالدخان الكثيف المنبعث من طرف سيجارته . انهم الثمرة الوحيدة لهذه الحرب . ان الموت المشمر عن أردانه ينتجهم بغزارة وبلا توقف. وكانت صفاء تبدو فى أفق هذا المصنع الرهيب ، تنتظر دورها. وكان الزمن يمضي ويستحثه على العمل. كان حائراً .. كيف سيقتله ؟!. ووقعت أبصاره عليه ، فاذا هو يخرج الصورة من جيبه فيثبت فيها أنظاره ويمتصها بشراهة . وداهمته رغبة فى أن تبقى هذه الصورة حذو عيني عبد الفتاح . وهتف فجأة

ـ « كلا . لا تعيدها الى المحفظة . »

وحدقه عبد الفتاح بدهشة ، فقال متلكئاً

ـ « ربما تسقط علينا احدى قذائفكم فتحيل هذه الصريفة الى هباء ونحن بداخلها . »

فضغطت أنامل عبد الفتاح على الصورة ثم قربها من صدره ومكث صامتاً

ـ « بامكانك أن تمضي الى النافذة فتشاهد بأم عينيك ذلك الذي يحدث فى الخارج . »

وكانت الصورة ما تزال فى يده . وبدت على طلعته أطياف كئيبة كان مصدرها الموت الذي بدأ يتحرش من جديد . ولم يكن هذا الموت يبدو له قريباً وقاطعنا معه هذه الصريفة

المهزوزة • ولكنه كان يتهدده من هناك ••• من وراء النافذة• وبآلية مطلقة ترنح اليها حتى لاحت له الصحراء منتشرة الى ما لا نهاية • وسطعت عينيه ومضات الموت الكامنة فى النار والدخان المتصاعدين من الآفاق البعيدة ، فسهم ولم يستطع أن يفكر بعد بالحياة التي يهفو اليها • لقد كان بينه وبينها هذا السياج الكثيف من الموت الذي يقترب ويتسع ويزداد سمكاً ومتانة • وكان صادوق يتساءل •• « كيف ستقتله ؟ • » •• وكان ذلك يبدو له أعسر من جميع حمامات الدم التي خاض غمارها فى اليومين الاخيرين والتي سيخوض منها المزيد عما قليل • كان عبد الفتاح مكشوفاً أمامه بلا جدار من فولاذ • وتحسس جداره هو فوجد فيه خرقاً هائلا • وفزع ، واعتراه رعب كاسح • حاول أن يرقع هذا الخرق، بيد أن يديه تخاذلتا وهو يحاول أن يصوب البندقية الى ظهر عبد الفتاح •

وهتف فجأة

ـ « ماذا ترى يا عبد الفتاح ؟ ••• »

ولكن الاخر ظل واجماً ، فعاد يقول

ـ « يخيل الي أننا سننتهي ونحن فى هذه الصريفة المتداعية !• »

ولم يتحرك عبد الفتاح عن موضعه ، ولكن أصداء قهقهة ساخرة ترامت الى أسماع صادوق من جهة النافذة • وكانت رائحة القنوط تفوح منها قوية مزكمة للانوف

ـ « قلت لك ان الموت وحده هو الذي سيكسب المعركة •• » الثغرة •••

كيف يمكن التغلب عليها يا الهي ؟ ! •• وكان الوقت يمضي والموقف يزداد حراجة • وفجأة أحس بأن ظنه يخيب • كان

عبد الفتاح واقفاً عند النافذة دون حراك • وتساءل •• « لماذا لا يستغل الفرصة ويقفز من النافذة ؟ •• » وكانت هذه الامنية وحدها القادرة على سد الثغرة • لو فعل ذلك ، فسيكون قتله سهلا كما كان يمكن أن يكون فى الليلة الماضية • وتردد •• وكان القدر يستحثه •• والزمن الناهب يستحثه •• وشيء فى الاعماق يزيد من تردده وهو يستحثه مع الزمن الناهب والقدر الذي انهى اجازته• وكان ظهر عبد الفتاح هدفاً هيناً أمامه ، وكان فى مقدوره أن يصوب الى هذا الهدف لولا •• وكان ذلك الظهر يسد المنفذ الوحيد الى الصحراء فيلوح كجزء من الحائط الخشبي المنتصب عن يمينه وشماله • وكان من ورائه يبدو بلا ملامح ولا قسمات • ورفع صادوق البندقية ولكن عبد الفتاح التفت فجأة قبل أن يصوب صادوق • وهوت البندقية فى حركة خاطفة فلم يلحظ عبد الفتاح شيئاً وقال

ـ « ربما كنت على حق ••• قد نموت فى هذه الغرفة معاً• ولكن من سخرية القدر أن يموت المرء ••• بالرصاص الذي يطلقه أصحابه هو • »

وكانت الآليات فى الخارج تتحرك • وترامى هديرها الى صادوق فأفقده الصواب • لقد مر الزمن وما زال عبد الفتاح حياً •• وتنهد بضيق

ـ « ان أشياء كثيرة تربط بين البشر عندما لا يكونون فى الحرب • أما فى الحرب ذاتها فان جميع تلك الاشياء تتقلص عند شيء واحد مشترك هو القتل • »

وضحك عبد الفتاح • وكانت يده ما تزال تعبث بصورة صفاء

ـ « ان الجدار الفولاذي الذي يسدل على النفوس فى نفس

الوقت الذي يرتدي المرء فيه قبعته الفولاذية ، هذا الجدار يكتسح كل شيء ولا يفرق بين الاخوة ..»

وأراد صادوق أن يعرف من هم هؤلاء الاخوة الذين يتحدث عنهم عبد الفتاح ، بيد ان الزمن كان يضيق عليه الخناق .. لم يعد ثمة مجال للتفكير ..

ـ « انظر يا عبد الفتاح ... »

وعاد عبد الفتاح فاستدار صوب النافذة . وعاد ظهره يسد المنفذ المؤدي الى الصحراء المزدحمة بالجثث

ـ « انني لا أرى جديداً .. انه المشهد ذاته .. »

ـ « انظر هناك .. هناك يا عبد الفتاح .. »

ونظر بعيداً بعيدا ... ولكن الحياة القاصية كانت محسومة. وكان الحاجز الشيطاني يتكاثف وينتشر حتى يمس طرفاه جزئي الحياة المبتورة . وسقطت قنبلة فى مكان قريب ، فدوى انفجارها عالياً وتطايرت الشظايا بشكل دائري نافوري . وصرخ عبدالفتاح

ـ « لقد اصبت ... »

وكان الان منحنياً على النافذة .. وكان متشنجاً . وهتف صادوق

ـ « لا تلتفت . وتشاغل عن آلامك بالنظر الى الصورة ، حتى قدم لك الاسعافات الاولية ..

فجاء صوت ضئيل ممرغ بالالم

ـ « لم تعد الصورة ترى .. لقد غسلها الدم .. والنار .»

ومن ورائه ، كانت البندقية ترتفع . ونظر صادوق الى ذراعيه. لقد كان يرتعد . وكانت فوهة البندقية تتأرجح ذات اليمين وذات الشمال . وحاول ان يتماسك . وشد على أعصابه .. ثم أغمض عينيه .. وصوب ..

وكان يصوب الى قلب الثغرة ....

الفهـــرس

الموضـــوع	صفحة
١ ــ مصرع ســانت كلــوز	١٣
٢ ــ الايمـــان	٤٧
٣ ــ امرأة فى الطريــق	٥٩
٤ ــ أســتا يهــودا	٧٧
٥ ــ أللعبــة والدمعــة	٩٥
٦ ــ طنــين الذبــاب	١١٣
٧ ــ الخطـــأ	١٥٩
٨ ــ الثغـــرة	١٨٥

لوحـة الغـلاف

بريشـة الفنـان صالح (درور) نقاش

الثمن : ٤٢٥ أغورة أو ما يعادلهـا